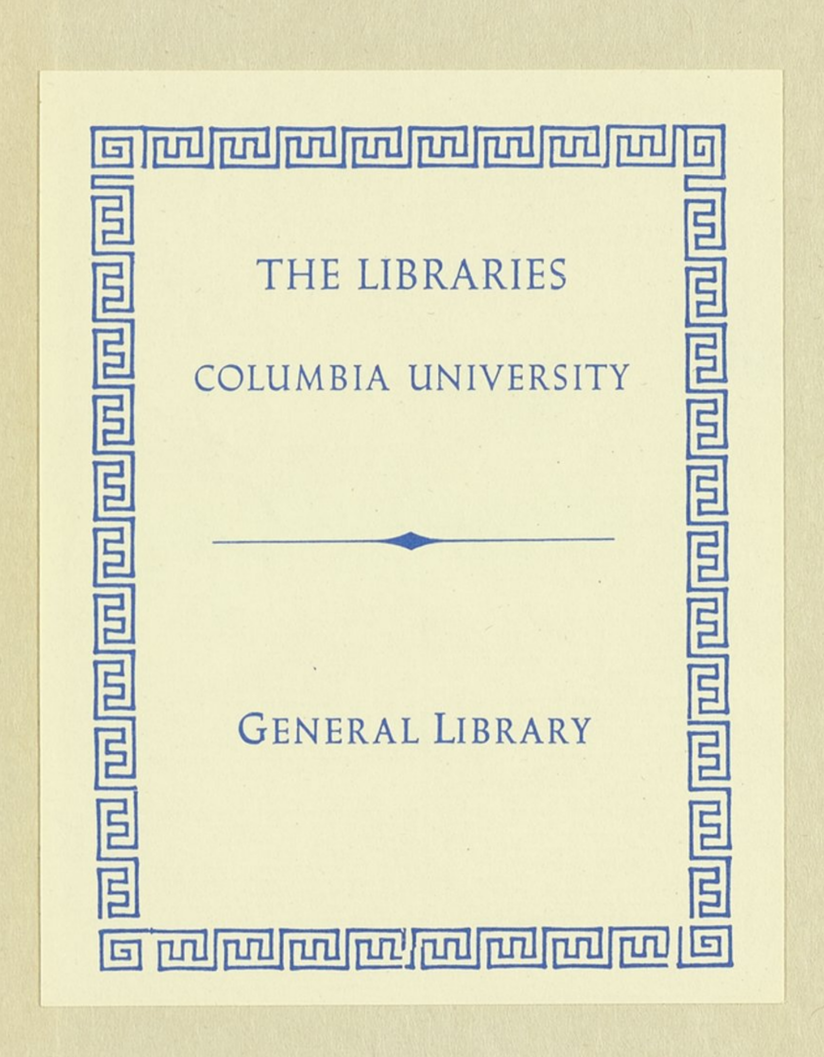
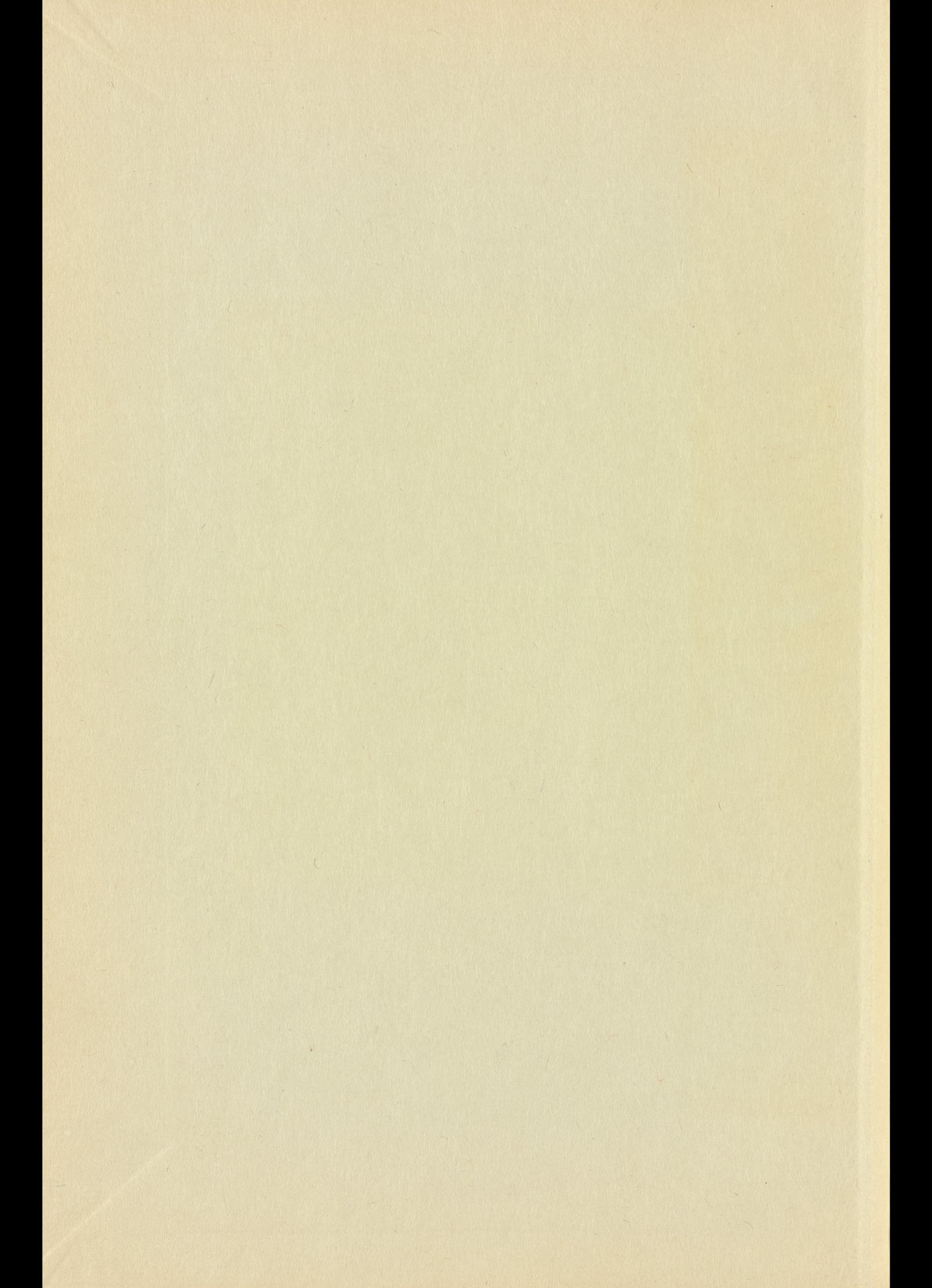
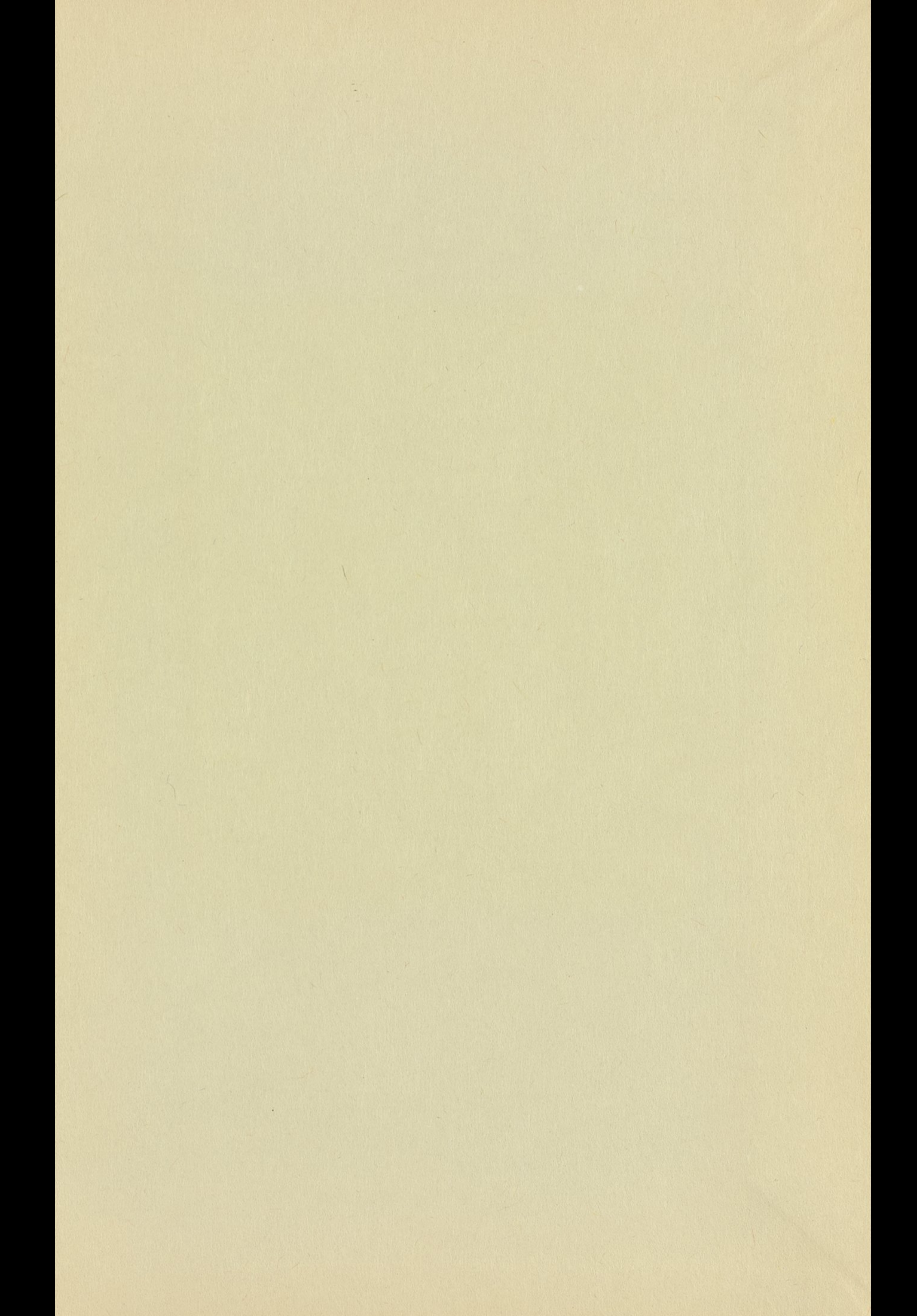
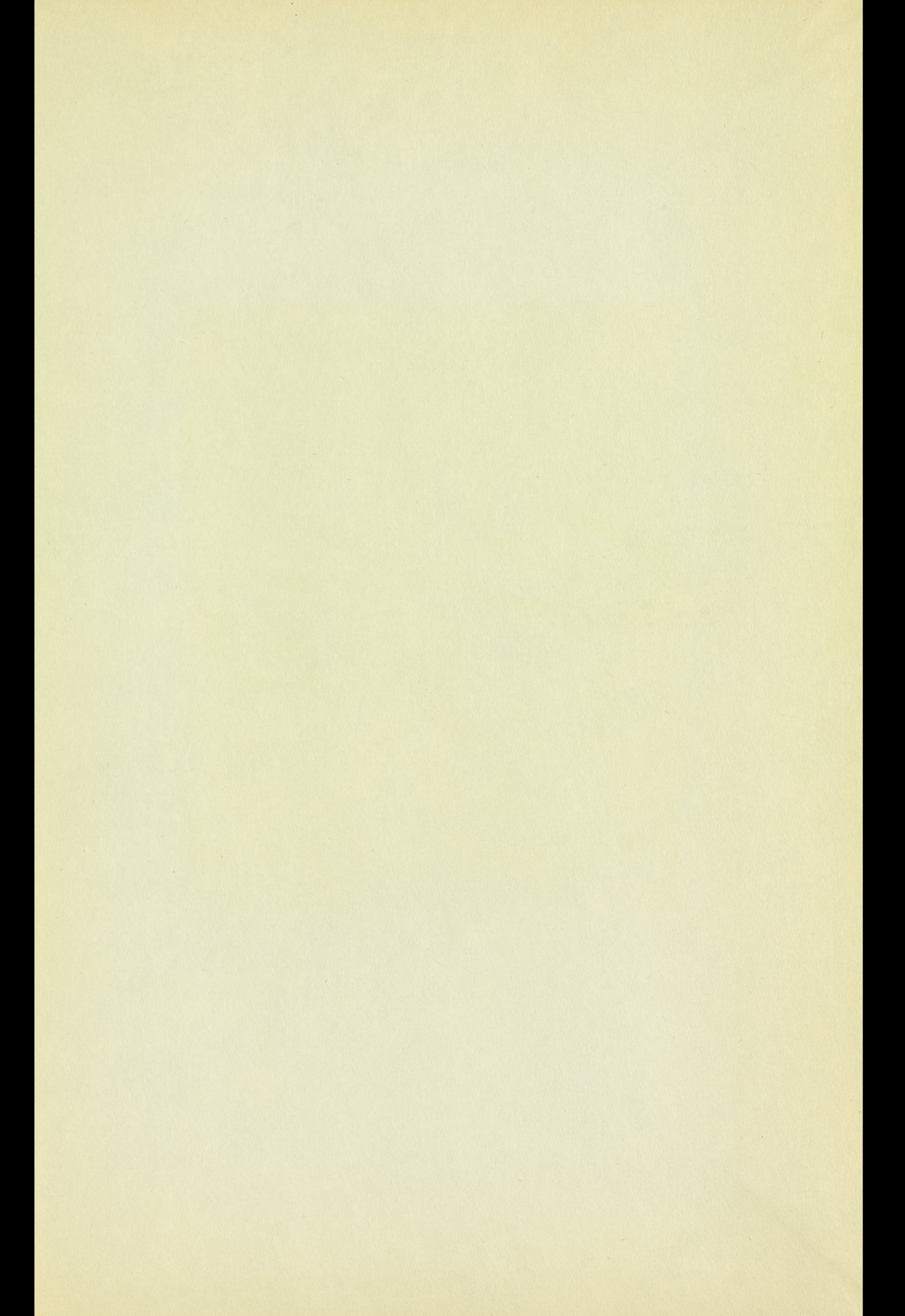










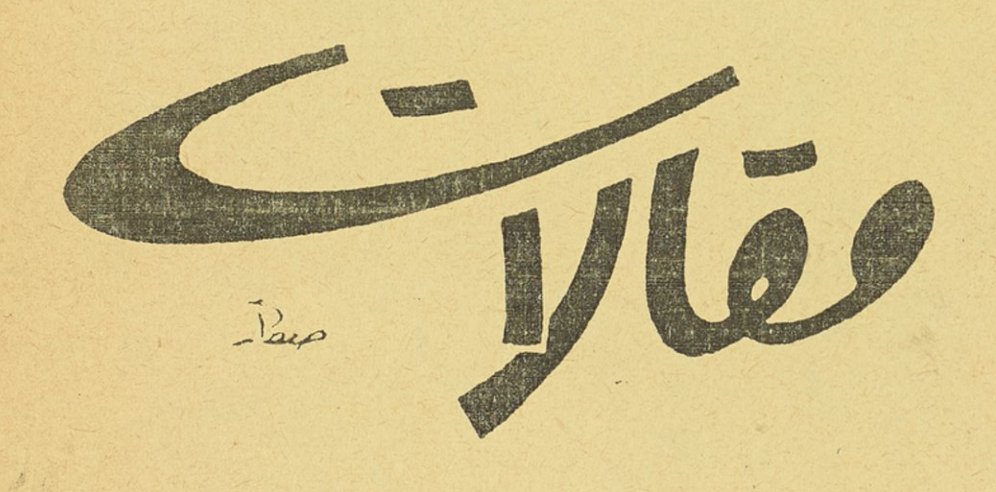
علي جواد الطاهر

مقالات

ساعدت وزارة المعارف على نشره



علي جواد الطاهر



خطرات في النقد الادبي - في القصة - شعر حديث ومعاصر - تعريف بكتب - شعراء من العصر السلجوقي - جامعة باريس - في التربية والتدريس

ساعدت وزارة المعارف على نشره
مطبعة اتحاد الأدباء العراقيين

بغداد - ١٩٦٢

هذه « مقالات »

والمقالة ـ هنا ـ ليست انشاء مطلقاً قائماً على العاطفة او الخيـال، وليست بحثاً مثقلاً بالاسانيد والمراجع ، انما هي عرض يســـهل المادة ويجعلها اقرب الى القاريء واخف عليه بما يحاوله المؤلف من ترقيق في الاسلوب واثارة للذهن وقصـد الى الطرافة ، فتؤدي بذلك غرضاً قـــد يعجز عنه البحث في ساعات لايجد المرء في نفسه استجابة لغير اليسير او الميسر .

ولو أراد المؤلف ان يثقل لأثقل ، وله في شـعر العصر السلجوقي وشعرائه خير شاهد ، فلقد سبق له ان ألف ونشر في هـــذا الموضـوع ورأى ثقل المادة على سامعها وقارئها ورأى الضيق والبرم والنفور . لذلك عاد فاعتصر تلك المادة واستخرج منها مقالات واحاديث وقـدمها اسلس قياداً او اخف ظلاً ، واجدى لغير المتخصص وطالب الثقافة العامة. .

و « مقالات » مما كتب في مدد متفاوتة بين عام ١٩٥٥ ـ ١٩٦٢

وفي مجالات مختلفة وظروف متعددة . وقد نشر اكثرها في مجلة « المعلم الجديد » ، ومنها مانشر في مجلات اخرى اكثر اكاديمية او اقل ، ومنها مانشر في جريدة يومية . ومنها ماأذيع من دار اذاعة بغداد ومنها مالم ينشر .

وتفسر هذه الظروف جانباً مما يبدو على جملة المقالات من تفاوت في الاسلوب ، فاقد جاءت حسب مقتضى الحال ، وطبيعي ان يكون للزمان والمكان والشخص والموضوع اثر في هذا التفاوت ، دون ان يجور هذا « الاثر » على اخلاص الكاتب للكلمة واحترامه للقاريء .

ولابد من النص على ان مقالات جامعة باريس ليست من قلم المؤلف انما هي ترجمة عن الفرنسية . وكانت ترجمتها من متطلبات اشتغاله في مجلة « المعلم الجديد » .

ولنكرر ان المعلم الجديد كانت حافزاً مباشراً لكثير من مقالات الكتاب ، وانها دفعت المؤلف لخوض شؤون من التربية والتدريس (ليست بعيدة عن مهنته واختصاصه) .

وبعد

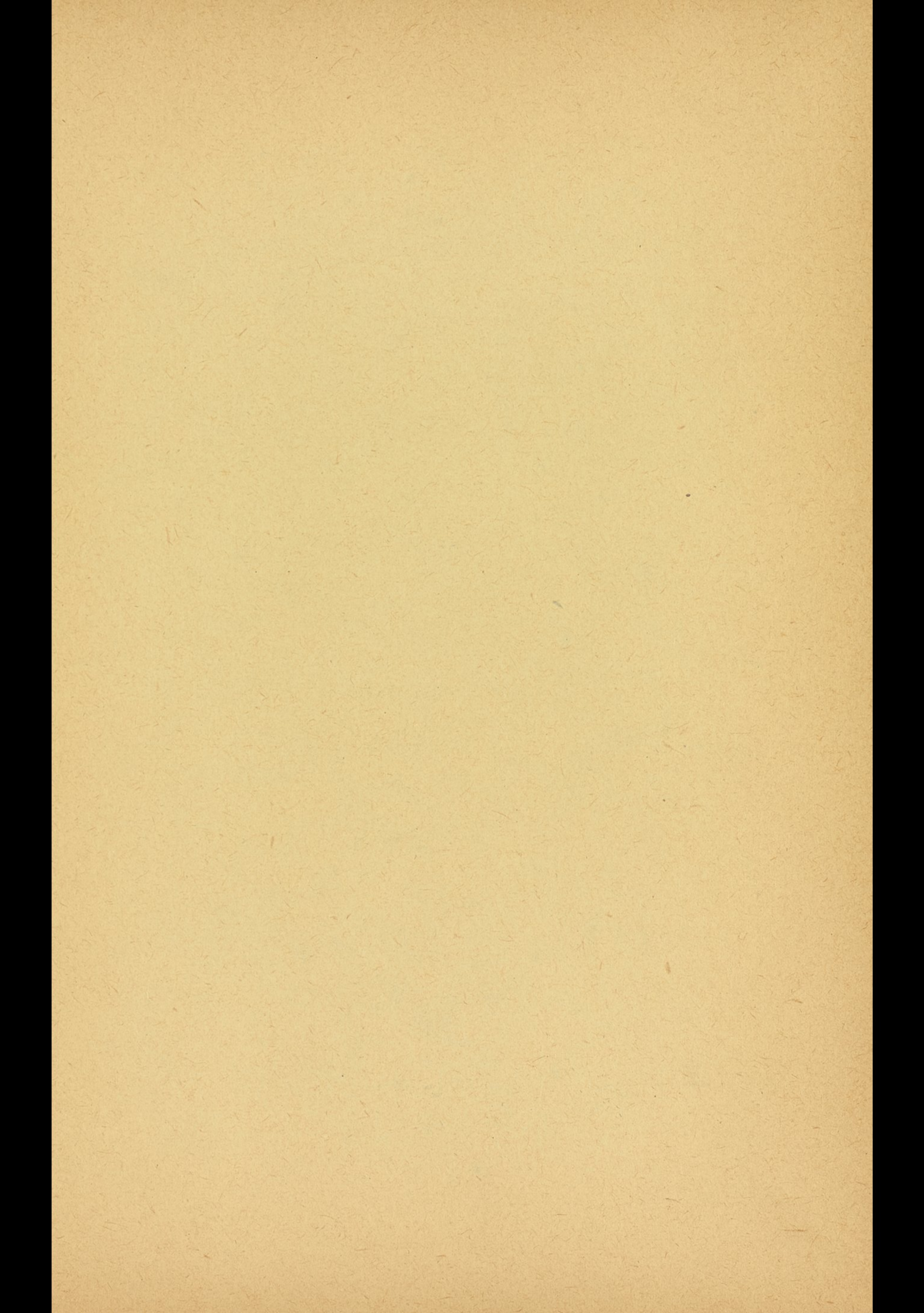
فكل مايكتبه انسان عزيز عليه ، وكثيراً مادفعت هذه القاعدة اهلها الى الحرص على كل مايكتبون ، حتى ماقد يبدو لغيرهم على غير مابدا لهم ، والى جمع « المحفوظ » ونشره ، من غير تغيير يذكر . في كتاب ، وليكن اسمه اسهل الاسماء وابسطها واكثرها صراحة « مقالات » ما دام المهم في الامر ان يحفظها من الضياع ويعدها لأن ينتفع بها من يريد الانتفاع ـ اي انتفاع ، في هذا الميدان او ذاك . لهذه الناحية او تلك ـ وحتى للغاية التأريخية التي يلزم الالمام بها منهج البحث ومذهب الاستقصاء .

ارجو ألا تكون « مقالات » من غير نفع .

(١)

خطرات في قضايا من نظرية النقد الادبي

مقدمة في القصة القصيرة



النقد سهل

اى نعم ... سهل جدا ... يقع بيدك كتاب فتقول : مجلد ضخم ، على ورق صقيل ، وبطبع أنيق فيه افكار كثيرة تـدل على عمق المؤلف وبعد غوره وكثرة تجربته واننا نتمنى له الرواج وندعو القارىء العربي للانتفاع به ، ان مثل هذا الكتاب لو كان في الغرب لتعددت طبعاته وتكاثر قراؤه ولما توانى ناقد عن مدح واطراء سعادة الاستاذ الفاضل مؤلفه . . . الخ .

اى نعم . . . سهل جدا . . . تقع بيدك قصيدة فتقول : «٩٥» بيتا ، ألا ما أطول نفس الشاعر الكبير ناظمها . والقافية لامية ، والبحر طويل والغرض اجتماعى ، هذا الغرض الذي ابتكره العصر الحديث فيعالج فيه الشعراء قضايا المرأة والاقتصاد والتقاليد . . . ان شاعرنا مجدد مبتكر يحتل مكانته السامية في تاريخ أدبنا الحديث وسيبقى خالداً على الدهر . . . الخ .

. . . سهل . . . وستصدر لصديقك قصة . . . من واجبك أن تخدمه ، والا لم وجد النقد . قصة هي من روائع الادب ، قصة لخصت كل مشكلات النفس الانسانية وعنيت بالناحية الوجدانية عناية خاصة فهي تعيد لنا عصر الرومانتيكيين ولو عاد لامرتين لادعاها وكفى بذلك فخرا لادبنا ! اللغة كأحسن مايكون ! والهدف كأنبل مايكون ! والعقدة كأرقى مايكون !

. . . وترمى القلم وتعيد قراءة ماسطرت فاذا بك معجب كل

الاعجاب ولله درك وستنشرها المجلات في صدورها . . . وقد أديت واجب الصداقه ! وأى خدمة هذه التي قدمتها لاخيك الغالي وانت لم تقرأ القصة ولاتدرى ان له مقدرة قصصية . . . ولا تعتقد .

. . . سهل . . . لقد ألف فلان قصة رائعة دون شك ولكنها مرت وكأن لم تكن ، وفلان هذا قصاص موهوب أصيل ولكنه بليد . اما انا فأعرف منه بالكتف وطرائق أكلها . ولا ولن أدع قصتى تمر من غير ضجة . . . أنا أقل منه قدرا وأقل مهارة . . . ولكنى سأفوقه . . . سأدعو الناقد . . . والصحفي . . . والناشر . . . سأطلب الى النابهين من زملائى في الدراسة ان يتكلموا على قصتي وليس من المجاملة أن يبينوا نقاط الضعف . لقد عاد صديقي اخيرا من فرنسه وليس من المعقول لرجل مهذب متحضر مثله ان يتوانى عن مدحي ولاشك في ان فرنسة قد زودته بمصطلحات وتعابير تخلب لب القارىء العربي وتدعه يقرأ قصتي ويعجب بها ويمدحها ويتطوع بالاعلان عنها . . . وهكذا .

. . . سهل . . . فما عليك الان تدعيه حتى ترى الناس ينعتونك بالناقد ، ويتحدثون عنك بالناقد . . . ويكتبون اليك بالناقد الكبير . . . تدعيه فتنهش هذا . . . وتطرى ذاك . . . وأولى نصائحي اليك ان تتكلم بلهجة الواثق من نفسه ، ان توغل بالادعاء حتى تنسى حقيقتك . وعليك، عليك بالكلام الغامض الذي تطرب له عقول السوقة - وما اكثر السوقة بين المثقفين . أحش كلامك بالأعلام . . . من الغرب . . . من انكلتره وفرنسة والمانية . . . وآلسكا - وجزائر الخالدات والارض الخضراء . . . وكندا . . . لاتنس كندا فان فيها نقادا كبارا . . . كبارا جدا . . . أما كيف ؟ ومتى ؟ ومن ؟ فليس ذلك بالأمر المهم . ان من شروط الناقد المقدرة على الاختلاق !

. . . سهل . . . تكلم على الملحمة دون ان تقرأها ، لان الناس عندنا مولعون بالحديث عن الملحمة ، ولع الشاعر بنقصه ، ولع من اصبح النقص فيه عقدة . . . آه الملحمة ! وما أدراك ما الملحمة ثم تهدر كالسيل . قل كل ما لذ لك وطاب لان الناس كلهم مثلك يتحدثون عن العنقاء دون أن يروها ، كلهم مثلك يتحدثون عن الملحمة دون ان يتكلف واحد منهم قراءتها وهي في متناول اليد .

تحدث عن الملحمة . . . وعن الملحمة الخالدة التي كتبها صديقك عبد النور . . . تلك الملحمة الخالدة التي أعادت الى الادب العربي اعتباره وسدت ثغرة ، وردت عاديا ، وارغمت عدوا . . . ان بامكان ادبنا - منذ اليوم - ان يقف مع أدب اليونانيين والرومانيين والفرنسيين والانكليز . . . على صعيد واحد . ولك ان تذكر من الامم ماتشاء فلن تجد من يسألك ومن يجهد نفسه للبحث والتحقيق . وكلما اكثرت من هذه الامم ومما هو اغرب منها كنت كبيراً وأكبر في عيون قومك . ولله درك ودرهم ! ان ملحمة الاستاذ عبدالنور فلتة . . . واصبح من السهل على المرء أن يضعها من غير أي عناء الى جوار الالياذة والاودسة والانيادة والشهنامة والمهابهارته . . . ورولان وحج شارلمان . . . والكوميديا الالاهية ، واورلاندو الغاصب والفردوس المفقود و . . . و . . . وانشودة الظلام وسقوط ملاك والاترياد . . . الفلانسيك والبارمارين . . . الخ .

وكلما اكثرت من هذه الاسماء ومما هو اغرب منها - رفعت صاحبك ورفعت نفسك . ولله ابوك وابوه ! ولم تقل زورا ولم تدع مينا أما استطاع صديقك عبد النور المحترم أن يتحدث عن غرامه الموهوم الواهي بأكثر من خمسة وسبعين وثلثمائة بيت .

تحدث عن الملحمة . . . وعن السريالية . . . والوجودية

والكليماتيكية والفولماطيتية . . . وليس المهم أن تـكون قـد قرأت شيئاً عن هذه المذاهب ، وليس المهم ان تكون قد وجدت فعـلاً ٠٠٠ انمـا المهم أن تتحدث وأؤكد لك ان الناس يصـدقونك ويحترمونك وسيقولون فلان ٠٠٠ لله دره ، هو الوحيد الذي افاد من وجـــوده في الغرب . وسيسألونك عن الدادية وهنا يفتح امامك طريق ممهـد اجر فيـــه كما تشاء ويشاء لك الناس . اياك والتردد . وما دام الناس يرغبون في هذا المذهب ويعجبون به فما عليك الا أن تقول وتقول واياك والتوقف لأنهم يحبون الانطلاق ويسحرهم الكلام المتدفق ٠٠٠ وهذه كل مواهب النقاد والموجهين في ديارنا ٠

اي نعم ٠٠٠ النقد سهل ٠٠٠ اذا كان هـــذا وامثاله نقداً ٠٠٠ وعاش من قال « النقد سهل والفن صعب » أكان بوالو ام دتوش وانـا لله وانا اليه راجعون .

المعلم الجديد ـ شباط ١٩٥٨

ألف شرط . . وشرط

اى نعم ، ألف شرط يجب ان يتوافر في الانسان لكي يكون ناقدا ، وشرط واحد لكى يكون شاعرا ، فلماذا ؟ أما في ذلك حيف يلحق كائنا من الناس ؟ !

ألف شرط . وأنت تعلم منها : العلم العميق الواسع ، ولابد من دراسة للغة والتأريخ والدين والاخلاق والجغرافية ، والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع ، والفيزياء والكيمياء والفسلجة ! ولقد بالغنا وأثقلنا ، وكان القدامى أرحم اذ أشاروا الى الاخذ من كل علم بطرف . على ان هذا « الاخذ » وذلك « العلم » مما يمكن ان يتهيأ لاوساط الناس ، ولاى منهم ناقدا كان أم مثقفا .

وشرط ثان ، الانصراف الخاص ، الى « علم النقد الادبي » ، علم ! يدرس تأريخه وأعلامه واتجاهاته وغاياته وأسبابه وصلاته بالفن وشعب المعرفه الاخرى وخصائص كل امة فيه . . . وفلسفته وفلسفة الادب . . . وشروط الناقد ! . . . وليس هذا بالسهل الميسور وان كان الالمام بخطوطه العامة ممكنا لدى أسوياء الناس وأوساطهم ، فهو أخذ بطرف من الاطراف ، يستطيعه الانسان ، ناقدا كان أم مثقفا .

وشرط ثالث . اللغات الاجنبية فالعربيه وحدها لاتكفى ، ولغة امة

واحدة لاتكفى ولا محيص من الانگليزية والفرنسية والالمانية ... والهندية واليابانية والتبتية . . . والقبطية . وهذا مستحيل ولكن الالمام بلغة اجنبية او اكثر ليس تعجيزا ، وهو مما يتوافر لعامـــة البشر وكم من سائح ألم بلغات عدة . . . ان اللغة الاجنبية مما يستطيعه الانسان ، نـاقدا كان أم غير ناقد .

وشرط رابع ، وخامس ، وسادس . . .

والشرط المئة : الموضوعية . اى نعم ، النقد علم مثل سائر العلوم التجريبية ، له مختبره ، وله عالمه ، الذي يجب ان يقوم بمهنته خير قيام وان يؤدي واجبه أفضل أداء ، فلا مناص لا ولا منـاص من ان يتصف اولا وقبل كل شيء ، بصفات الكيمياوى ، مثلا : صفاته وهو يحضر حامض الكبريتوز - وما اشبه . يأتى بمادة ويأتى بمادة ، ويضع هذه وتلك في بوتقه ويضيف اليهما قدرا معلوما من الماء المقطر ، ويمرر عددا محصورا من الشرارات الكهربائية ثم يكون له - بعون الله - مايشاء مـن ذهب ابريز . والعالم في كل ذلك مجرد من عواطفه وميوله فلا يؤثر الحوامض بغرامه ولايصب على « القواعد » جام غضبه ، ولايستعمل في ذلك غـير ذكائه وعقله والقوانين التي سبق ان درسهـا في كليـة الصيدلة والكميـاء . والنسب معروفة والمقدمات معروفة والنتائج معروفة .

الموضوعية . وقد اجتاح العلم كل شيء ، أليس الادب علمـــا ؟ وأستغفر الله ! أليس النقد علما ؟ وأعوذ من الشيطان . واذن على الناقد ان يقوم بوظيفته دون ان يتدخل ودون ان يكون لذاته أثر وهو يستطيع ذلك كل وقت وكلما يطلب اليه ، في النهار ، وفي الليل ان تهيأ الكهرباء . ازاءه مادة ولديه قواعد وما عليه الا ان يطبق هذه على تلك - وكان الله

غفورا رحيما . يريد ان ينقد قصيدة ، طيب ، وكلنا بات يعرف صفات الشعر الوجداني - حتى المشايخ ، ولطالما قالوا انه ليس ملحمـــة وليس مسرحية ، اذن ، فالقصيدة من الشعر الوجدانى وهى مجموعة أبيات ثم هى موزونة على البحر الطويل ومقفاة ومن لزوم ما لايلزم ، وفيها المواعظ والحكم والافكار التربوية واذن فهي من الروائع . . . لا ، لاياأخي ليس أبو العتاهية شاعـــرا وجدانيا . . . « وليست بانت سعاد » قصيدة وجدانية . . . ولا الزهاوي . ليس أولئك من الشعر في شيء وليسوا من النثر في شيء . اقول ذلك وانا مؤمن بموضوعيتي وكافر بموضوعيتـــكم وليس الشعر « طبقات أرض » وانى اعرف الموضوعية الادبية في التحرر من القواعد والقوانين ، أعرفها في الذاتية ، ولاأأخذ من الموضوعية الادبية الا التجرد من الاهواء والاغراض الشخصية ، وليست بى حاجة الى ذلك الاخذ ، لان الاغراض الشخصية تزري بكل عمل ، نقدا كان أم حدادة والعمل العدائي يهدم نفسه بنفسه .

والشرط الـ ٩٩٩ . . . الناقد مصلح اجتماعى . . .

ثم شرط أخير ، لايعرف الا بعد عزل كل ماهو خارج عن طبيعة الاشياء ، وطرد كل مايمكن ان يتوافر في كل انسان من القواسم الالف المشتركة بين الاسوياء . واذن ، فلابد من تحديد الموضوع وتضييق دائرة البحث ، لابد من السعي وراء الجوهر الفرد . . . فما هو ؟

ــ هل الناقـــد عالم ؟

ــ لا

ــ هل هو لغوى ؟

ــ لا

ـــ هل هو حدّاد ؟

ـــ لا

ـــ موسيقار ؟

ـــ لا

ـــ شاعر ؟

ـــ لا . . . انه ناقد

اذن لنسبر غور هذا « الناقد » ، ولنسبر غور عمله وطبيعة وجوده وماذا يفعل ؟ وكيف ، انه لاينظم « قفانبك . . . » ولكنه يفهمها ، انه لايعمل « اندروماك » ولكنه يفهمها ويفهمها ، انه لايكتب « الاحمر والاسود » ولكنه يفهمها ويفهمها . . . ولايتيسر ذلك لكل انسان ، وان استطاع كل مخلوق ان يدلى بدلوه في الدلاء ويقول شيئاً ، ان الذي يفعله الناقد الحق هو شيء غير هذا الشيء . . . أعمق وأجل ، وليس ممايواتى كل من عليها من أقول عامة او من ملاحظات تقع تحت كل عين من حيث الطول والعرض والارتفاع ، ومن حيث اللون والحجم والطعم . . .

واذن فلا بد من أمـــر خاص في كيان هذا الانسان الذي يجيد النقد ، فكما كان للشاعر أمر خاص ـ سمه الموهبة ان شئت ، وهو بهذا الشيء ـ اولا وقبل كل شيء ـ شاعر يواتيه القصيد طواعية ويهبط عليه بارعا رائعا ، فلابد لهذا الناقد من أمـــر في نفسه وفي فطرته ـ وليكن أسمه الموهبة ، ولم لا ؟ مادام خاصا بانسان بعينه ، وهو اذ يتوافر لديه يرى في النص الادبى مالا يراه سواه ، واذا رأى ، أعرب وفسر وبلغ الآخرين مواضع الاسرار ومكامن الجمال . . . والقبح أيضا . ومن ثم يقبل الآخرون على النص نفسه فيجدون فيه ما لم يجدوه من قبل ، ومالا يجدوه لو تركوا وشأنهم .

الناقد انسان موهوب ، يقرأ النص فيفهمه على نحو خاص ، ويقف من مخبئاته على امور خفية في مجالي ابداع المؤلف ومجلى شخصه في اسلوبه ثم يتكلم عليه وكأنه شيؤه ، وربما وقف صاحب النص نفسه ازاءه معجباً ومستغرباً ، مردداً « لله درك » - يقولها علناً ان وجد في كلامه ما يرفع اسمه ، ويقولها سراً ان وجد فيه ما ينبهه الى اغلاطه .

ثم ، اتراني مبتكراً لهذه « الموهبة » ؟ طبعاً لا ، لأنها ملاحظة انسانية . . وكان « سنت بيف » منذ حوالي مئة العام يذكر شيئاً من هذا إذ يقول « لن يكون - النقد - إلا في متناول من اوتوا الموهبة الطبيعية . . . على نحو ما يتطلب الطب حاسة خاصة عند من يزاوله ، والفلسفة ذوقاً فلسفياً والشعر موهبة شعرية » الا أن « سنت بيف مولع بالعلم وكثيراً ما وصل هذه الموهبه بالتصنيف واكتشاف الفصائل و « كفايات علماء التاريخ الطبيعي » .

عن طريق هذه الموهبة ، موهبة الشاعر في الناقد ، يستطيع هذا الانسان أن يستعيد تجارب المنشئين فاذا هي تجاربه ، وكأنه قد عاشها . فهو محب مع المحبين وساخط مع الساخطين وضاحك مع الضاحكين . واذا عزونا ذلك منه الى الموهبة عرفنا انه لا يسير الى ذلك بقصد وخطة جامدة ، انه لا يقول في نفسه ، بعد ان يلم بالنص، سأبكي مع الشاعر ، وسأسخر . . . ولا يقول لنفسه لأرتفع الى مستواه ولأتبن تجربته ، ولأنظره من الناحية الفلانية ، ولأتصوره من الجانب الفلاني . . . لا . . . لا . . . لأنه ان فعل ذلك كان منهجياً كسائر الناس ، ولا تعني الموهبة ذلك ابداً . . انه يفهم ويفسر ويرتفع وينحط تلقائيا ، كما ارتفع الشاعر وكما انحط . . .

وهذا امر لايكتسب ، وهل تكتسب الشاعرية ؟ ولهذا رأيتنا

لم أصل الى هذا الشرط البديهي بيسر ، فلقد كان الصدأ يعلوه من كل جانب ، وكان العرض يشغل الناس عن جوهره ، وكنت أنكر النقد انكارا عجيباً حتى ليظن من يسمعني أهاجمه ان النقد شخص بعينه ولى عليه ترات بعيدة الاغوار ، وما كان ذلك بصحيح ، ولكنى كنت افهم النقد في ضوء ماأقرأ له من أمثلة ، فلا أرى وجها لما يحاط به هذا « السيد » من هالات وما ترفع اليه من ابتهالات . وبعد ان بلغ الانكار منتهاه وكاد يصبح سخفا صحوت .

— ترى أيستطيع ان يكون أى انسان ناقدا ؟

— نعم

— ناقدا عالياً ؟ !

— لا . . . ولا حتى كبار الشعراء ، بل ان هؤلاء كثيرا ماظهروا فقراء ، مساكين اذا عرضت مسألة نقدية . . . أو ذوقية . . . أو حتى ان استشيروا في أمر يخصهم ، ولكنك تقع على شخص آخر لم يزاول الشعر أو انه زاوله فلم يجد له فيه حظا يذكر ، تقع عليه ، فتسأله عن هذه القصيدة أو تلك القصة ، فاذا هو يحلل ويعلل ، ويطلعك من أسرار المبنى والمعنى مالا يمر ببال - حتى ببال المؤلفين أنفسهم ، وعندئذ ، عندئذ فقط ، تعلم ان النقد غير الشعر ، وأن الناقد غير الشاعر .

تعلم وتحسب نفسك مكتشفا لهذا الفرق ، ولا غرو فلقد بلغته بعد كد وعناء ، وشغل وجدان ، وتأزم ضمير .

وتقلب الكتب ، وقد يكون بين هذه الكتب ماسبق ان قرأت فيه اكثر من مرة ، وتقع عينك على « سقراط » ، وترى انه توصل الى هذا التفريق منذ حوالى ثلاث وعشرين مئة سنة ، فتفقد شيئاً من لذة النصر ثم تبرر ، فتعاودك الثقة قليلا قليلا . ويكفى ان يكون السابق عبقرى

كسقراط ، ويكفي انك لم تكن بدعة في الرأى . ومن يدرينا ، فلعل سقراط هذا ، كان مسبوقا بسقراط آخر في يونان أو في غير يونان ، ومن يدرينا انه لو وصلت الينا الحضارة السومرية كاملة لوجدنا على احجارها التفريق بين الشاعر والناقد ، عند السومريين وعند من هم اقدم منهم ، مادامت المسألة انسانية ، وما دام الشعر قائما في البدو ، والجاهليين . . والاسلاميين ، ولعلك قرأت كيف كان يحيل المتنبي على ابن جنى . وقرأت ماجاء في مقدمه المرزوقي لشرح الحماسة من أنه « قد يميز الشعر من لايقوله ويقول الشعر الجيد من لايعرف نقده » . . ولايعنى التوافق في امثال هذه الآراء السرقة ، انما يعنى صدق الهاجسة وصلة الفكرة بالنفس الانسانيه .

وليست المسألة مسألة تفريق بين الشاعر والناقد . . .

فقط ، انها ابعد من ذلك ، انها تفريق بين موهبتين فكما كان الشاعر موهوبا ومعدا لأمر بعينه يخلقه ويبدع في مجاليه ، فكذلك الناقد موهوب ومعد لشيء بذاته يخلقه ويبتكر في ميدانه (١) . واذا اعترفت بهذا ، احترمت « الموهبة » في ضوء طبيعتها ، وربأت بنفسك عن ان تطالب ناقد القصيدة بأن ينظم مثلها وناقد القصة ان يكتب مثلها وناقد المسرحية ان يعمل مثلها . اعترفت وتذكرت ماقرأته في « الغربال » يوما ما : « أعلي ان أبيض البيضة . . . لأعرف ما اذا كانت جيدة او فاسدة » وأفدت من « هوارس » فعلمت ان المسن يشحذ الحديد ولا يقطع .

هذه الموهبة شرط اساسي في الناقد ، ومن لم تتوافر فيه شغل نفسه وشغل الناس بالتوافه والقشور ، والصخب واللجب ـ بالعرض كما كان يقول أهل الفلسفة .

---

(١) وقد يجتمع النقد والشعر في أديب واحد ، و « ليس على الله بمستبعد . . . » ولذلك أمثلة ، والظاهر انه حتى في هذه الحالة لابد من تفوق احدى الموهبتين على الاخرى .

نختلف مع « آبر كرومبي » وسواه من القائلين بأن ملكة النقد مما يمكن ان يكتسب ، لا . . . انها لا تكتسب ، انها كالشاعرية ، ولكنها تختلف طبيعة ، تلك تخلق من الطبيعة ، وهده تخلق من النص والطبيعة ؟ تلك تنشىء النص وهذه تفهمه وتفهمه ، او قل انها تعيد خلقه بعرض جديد ، ومن هنا « لزم » الناقد الكبير البيان الرائع ، لأنه منشىء ايضاً - وقد يقرأ لذاته في هذه الحال . اما مسألة الاكتساب فليست منكورة . ولكن بالقدر الذي يحتاج اليه الشاعر ، وهل يستغني الشاعر عن الاكتساب ؟ واذا كان الشاعر لايستغني . و« يلزمه » - عن قصد وغير قصد - الالمام ببعض الامور ، وكلماتقدم الزمان وتعقدت الحضارة كانت مستلزماته اكثر ، فكذلك الناقد . فالناقد الفطري فطري ، والحضاري حضاري واذا كان هناك فرق في الاكتساب فبالقدر الكائن بين الموهبة الشاعرة والموهبة الناقدة . القصة موهبة والمسرحية موهبة ، ولكن هل تستغنيان عن الاكتساب ، من قراءات وغيرها ؟ واذن فمن الاولى ان لا يستغني النقد الذي يتطلب قراءات للآثار الانشائية وقراءات تدور حول النصوص ويتطلب منه المرانة والمحاولة ومعاودة المحاولة . . ، والصبر على القراء وكر القراءة . . ، . وكل هده امور مساعدة تدخل في ألف الشرط التي مر ذكرها .

واذن فالنقد موهبة ، والموهبة شرطه الاول .

المعلم الجديد - آذار - نيسان ١٩٥٨

اريد ان اكون قصاصاً

أرغب في ان اكون قصاصـــا . . فما القواعـد التي استطيع بهـا النجاح ؟ أرجوك ان تلخصها لى وأعدك بأنى التزمها حرفا حرفـا ، فليس من الصعب ان اطيـع ماتمليه علي مما يجب في حسن الابتـــداء وحسن التخلص وحسن الختام . . أعدك بأني اكتب لك القصة كما تريد . . . كما تنقل لى ما قرأته في كتب النقد الادبى . . .

تلك اسئلة وجهها وهو حسن النية صادق العزم . . . وهو معذور لانه ألف ان يسمع بالعروض . . . وبالبلاغة . . . وأخيراً بفن القصة . . . ويتحدث فن القصة هـــذا ، ويطيل الحديث عن العرض والعقدة والحل ويتحدث ويطيل الحديث عن الحوادث واطارها ، ويتحدث ويطيل الحديث عن المواقف النفسية . . . ونفسية الكاتب والقارىء . . . الـخ . وله في ذلك فصول وفصول وكتب وكتب ، وقد ولع الشباب العربي في الايـام الاخيرة بهذا الضرب من النشاط العقلي ولعا أنساهم الغاية الاولى وملك عليهم أفئدتهم فوجدوا فيه مجال تعاظم ومجلى تكبر . وفي ذلك دليل على سهولته وسهولة السفسطة في شعابـه .

تريد ان تكـون قصاصا ، حسن . ذلك من حقك وواجبك ـ ان شئت . فمن يدرى فلعلك تجن موهبة ، ولعلك تكن مقدرة ان اهملتهـا عبثت بها الايـــام فأصابها الضمور وارداها الضياع . وصحيح ان لهذه الموهبة بعض البوادر في تصرفاتك اليومية ، وفي حديثك الاعتيادي ولكن

لابد من اختبارها بالمحك الصحيح ، وتريد ان تكتب ، ولكن قبل الكتابة وقبل ان اغرقك بسيل من القواعد والقوانين التي ولعت باطالتها بعض العقول ، ولعت وعبثت . قبل ان تغرق ، اسألك هل قرأت قصصا عالمية ثبت نجاحها على مر الزمن واختلاف الشعوب ؟ قصصا أبدعتها عبقريات مرت الايام وبقيت ، ومات النقــد وخلدت ؟ قصصا لم تعد خفية على متذوق وقد جاءك خــبر دستوفسكى . . . وبالزاك وستندال . . . ودكنز . . . وغيرهم وغيرهم .

اقرأ هؤلاء تجد القدوة الصالحة والمثل الاعلى . . . اقرأهم . . . عش عوالمهم . . . انك حين تصحب القصة من قصصهم . . . وتديم الصحبة ، تتشربها وتمتزج بذوقك وحسك ، وتقف على اسرار فنهم عن كثب ، من غير وسطاء أو دخلاء . . . ولم يعد الفن القصصي ممثــلا بسلسلة من الاوامر والنواهى تبدأ بالواحد ولاتنتهي بالالف . . . وقد رأيت ـ أول ما رأيت ان لكل من هؤلاء العمالقة ذاتيتهم وشخصيتهم ولايمكن ان يشبه الواحد منهم الاخر ، ارأيت ، ان « القواعد والقوانين » تريد ان تجعل منك آلة . أو حيوانا أعجم ، وحاشاك . . . تريد ان تنظر الى أولى المواهب نظر العالم النباتى الى الاشنات والسرخسيات ـ وحاشاهم . انك في قراءتك الاثار التي حظيت بالخلود تجد الامثلة الصحيحة ومن هنا تبدأ . اما انك اذا قرأت كيفما اتفق ، مجموعة من الورق والحبر سماها صاحبها قصة ، وطبل له اصدقاؤه وزمروا . . . حتى اعتقدت ورحت تنسج على منوالها فقد اسأت الى نفسك والى القصة .

اذن تقرأ امات القصص في العالم ؟

وكيف تقرؤها ؟ لم نستطع حتى الان ان نتوفر على المترجم المبدع الذي يستطيع ان ينقل لنا هذه القصص الى لغتنا العربية . . . ولابد

لك من ان تقرأ مجموعة من هذه القصص ، في لغتها الاصلية . . . فما العمل . . ؟ العمل . . . اذا أردت الجد . . . هـو ان تسعى لتعلم لغـة اجنبية واحدة ـ في الاقل ـ وهذه اللغة تفتح لك ابواب العالم وتطلعك عـلى شؤون النفس الانسانية . ستقول : لاأستطيـع ، ولا اتمكـــن . . . ظروفي . . . وقتي . . . وكل تلك اعذار واهية ، ان دلت على شيء فانما تـدل على ضعف ارادتك ، وضعف ايمانك بنفسك . . . وطلبتك .

اذن تتعلم اللغة الاجنبية وتقرأ روائعها وماترجم اليهامن روائع ... وتنظر في نفسك وتجاربك وتجارب من حولك وتحاول المـــرة والمرتين والثلاث . . . وتـــأتي بعدها ومعك محاولاتك لتكـــون القواعد متسقة وشخصيتك والقوانين منسجمة مع فنك .

ومن يدري فلعلك تكـون انموذجا جديدا . . . وقاعدة جديـدة !
ولم لا ؟

المعلم الجديد ـ آذار نيسان ١٩٥٨

أنا ناقد مسرحي

ــ انت ! . . . لا . . . لست . . . ولا تكون !

ــ ولمـــاذا ؟

ــ لانك تكذب على الناس وعلى نفسك . . . اذ تدعى ذلك !

ــ لمـــاذا ؟

ــ ماعدتك ياسيدي ؟

ــ وهل النقد المسرحى يحتاج الى عدة ؟

ــ لا ! ولكن ماعدتك ؟

ــ اولا، انى أحب ان اكون ناقدا مسرحيا . . . ولطالما غلبنى هذا الحب على نفسي ، وشرد بى عما حولى فأراني الحاكم المطاع والمحلل المبدع الذي يشار الي بالبنان وتتهافت على اسمى الصحف وتخطب ودى المسارح وتترامى على اقدامى الممثلات . . .

ــ قدك اتئد ، أربيت في الغلواء . . . قدك ، فلقد شردت . . . هذا أولا . . . فحدثنا عن « ثانيا » . . .

ــ انى اعتقد مخلصا بسمو المسرح وان بلــدا لا مسرح فيه لاشيء . . واعتقد ان من واجبي الاول ان اسعى الى رفع مستوى وطنى

واعمل جاهدا على توفير هذه العلامة الفارقة من علامات الحضارة البشرية التي تمتـــع بها اليونان والفرنسيون والانكليز . . . فبلغوا القمة من المجـــد . . . اما نحن . . آه . . . فوا أسفاه . . . ولكن لا بأس ولاضير . . . رب متأخر بـذ الاقدمين ، وأنا لها . . .

ــ حياك الله وبياك ! . . و « ثالثا » . . .

ــ قرأت كتابا ذا قيمة يبحث في « الفن المسرحي » . . . حقـا انـه ذو قيمـــة .

ــ رابعا . . .

ــ !

ــ اسمع ، بني . . . المسرح ابـن الغرب فهل كنت يومـا لـدى المنبـــع ؟

ــ وهل ذاك ضرورة ؟ . . .

ــ طبعـا

ــ لقد جاء « فلان » ومثل في بغداد روايـة خالدة

ــ من نظمه وتلحينه ! اسمع ، يابـنى . . . ان نيتك حسنة اكـثر ممـا يجب .

لابد للناقد المسرحى ـ قبل ان يتصدى للنقد ـ وقبل ان يدعيه من ان يعيش طويلا في المسارح يشهد بناءهـــا ، ويعرف مشكلاتها . . . ثم يشاهد روائعها المختلفة . . . يشاهد المسرحية الـواحدة المرة والمرتـــين والثلاث . هل شاهدت : فيدر ، السيد ، اندروماك . . . تارتيف ، البخيل ،

روميـو ، يوليوس قيصر ، عطيل . . . أوديب ، الفرس ؟ ؟ .

هل قرأت هذه المسرحيات العالميـــة . . . وغيرها من قديـــم وجديد . . . لابد للناقد المسرحى ، قبل ان يتصدى للنقد وقبل ان يدعيه من ان يقرأ خوالد التراث العالمى بلغة اجنبية او لغتين او اكثر . . . يقرأ ويعيد القراءة . . . ففي كل قراءة لاثـر جليل كشف جديـد . . . وفي كل مشاهدة علـــم جديد . . . انك اذا قرأت فيدر ـ مثـلا ـ ثلاث مرات فكأنك قرأت ثلاث مسرحيات ، واذا شهدتها ثلاث مرات فكأنك شهدت ثلاث مسرحيات . . وتشهدها على يـد ممثلـــين عالميين وممثـلات عالميات . . . فهل فعلت شيئاً من ذلك ؟ . . .

ثم تعـال الي . . . لقد نقدت كل مسرحية خالدة اكـثر من عشرين مرة ، لكل نقد طعم خاص يجلو منهـا بديعا خفي عن القارىء والشاهد . . وحتى عن الممثل والممثلة . . . ولكل ناقد منحى خاص يقع به على سر من أسرار خلود القطعة وذيوعها فيما يتصـل بالفن المسرحى وفيما يتعلق بتيارات النفس الانسانية . . . وقد كتبت هذه النقود بأكثر من عشرين لغة . . . فهل قرأتها . . . أو قرأت بعضها . . . أوقرأتها مترجمة الى العربية ! . . .

ذكرت أنك أعجبت بكتاب « الفن المسرحي » فـاعلم انـه واحد من عشرات ومئات خير منه . . . وألوف يبحث كل منها ناحية من النواحي ويتعمق شيئا من الاشياء . . . هذا في التاريخ وذاك في المؤلف وآخر فيالممثل ورابع في الاشخاص الثانويين وخامس في الملابس وسادس

في الخشب وثـامن . . . وعشرات في النـاقد . . . فهل قرأت شيئاً من ذلك ؟

وهل درست ؟

انك لم تخط لتحقيق رغبتك خطوة واحـــدة او ربع خطوة على الاقل ، انك لم تحـاول ان تكشف فيما اذا كانت رغبتك هذه فجـــرا كاذبا ... وزعما باطلا ساقه اليك الكسل واهدته أحلام اليقظة وخصك بـه المزاج المضطرب

ولم تكن غبيـا جدا ... فقـد تلفت فرأيت العراق خلوا من المسرحية .. خلوا من المسرح ... واذن فليس من المستحيل ان تكون ناقدا مسرحيا ففى ذلك مايضفى عليك صفة التوحد ويحقق لوجودك صفة الوجود .

ـــ لا والله ، ما الى شيء من ذلك قصدت ... انمـا هى رغبـة عارمة .. ثم انى لم أسمع بشيء مما ذكرت ، وها أنت ذا ترى الناس هنا ، لايكاد الواحد منهم يهوى أمـــرا حتى يدعيـه ويتفنن في الادعاء وحوله عصبة تطبل وتزمر . امـا والامر كما ذكرت فأعدك بـأنى قررت تعلم اللغة الاجنبية منـذ الان وقررت قراءة روائع المسرح العالمي منـذ الان وقررت الرحلة الى الغرب لارى التمثيل الراقى ولاكون عـلى قرب من قضايـاه وأساطينه ... أعدك .

ـــ ارجو ان تكون لك من الارادة مايخرج بك عن الوعـــود المعسولة

ـ ثــق !

ـ أخشى انـك تسافر الى الغرب بجريمة فتعود بجريمتين ...
تعود وتدعى ماليس لك ـ عن علم ـ في هذه المرة .

المعلم الجـديد ـ آذار ـ نيسان ١٩٥٨

في الاسلوب

عنـد اليونان مـن Stilus ، الازميل الذي يستعملـه النحات ، وعند العرب من الصف والاصطفاف ..

ولكنك لاتجد اللفظة في دلالتها النقدية مبكرة ، واذا جاءت فانها ليست ذات حد ، ولعلها اكثر ماتعني المنهج والطريقة في نظم الكلام ولعلها تتصل اكثر ما تتصل بصورة الكلام وشكله .

واكبر الظن انها دخلت عصرنا الحاضر عن طريق الغرب ، ترجمة لكلمة Style دون ان يفكر المترجم كثيراً بالدلالة العربية ـ ولكنها على حظ كبير من التوفيق .

لأن الـ Seyle في ابسط تعـريفـاته « طريقة الكتابة » « Une Maniere d Ecrire » . والمعقول في الكتـابة هـذه أن تكون ذات دلالة واسعة تجعلها هى والانشاء سواء ، فتضم حينئذ الكتابة والخطابة وما اليها من فنون الأدب الصرف كتب ام لم يكتب .

ثم ان الـ Style اذ يذكر ، فان اول مايتبادر للذهن، الجانب الشكلي . بمـا في ذلك من مفردات وتراكيب وصـور ـ وهذا ما يتبادر لذهن الغربي كذلك .

وكل ما في الأمر أننا وقفنا عنـد هذا الجانب وحـده في اطلاقنـا كلمة « أسلوب » بينما راح الغربيون يجمعون اليهـا جانباً آخـر هو

الروح او الفكرة او المضمون ، بحيث جعلوا الجانبين امراً واحداً لايفترق ولايفرق ولم يرضوا دون وحدتهما حتى بتشبيههما بوجهي الدرهم أو الجسد والروح في الكائن الحي . وانهم ليسخرون مر السخرية ممن يشبه الاسلوب بالثياب والملابس ...

على ان بينهم من لازال يقصد الى الجانب الشكلي عندما يتكلم ، ومنهم من يقف عند اللغة ويسميه حينئذ La stylistique وتجد هذا لدى النحويين والصرفيين ، ومن اليهم .

وقد عرف العرب شيئاً من هذه الأمور بوجه جزئي ـ كأكثر معالجاتهم النقدية ـ فكان هناك اللفظ وأهل اللفظ ـ والمعاني وأصحاب المعاني . وكانت معارك . ولنا ان نقرأ الجاحظ والآمدي والعسكري والجرجانيين وابن الأثير ... لكي نلم بشيء مما ذكرنا .

اننا اكثر مانجد تقسيم الاسلوب الى قسمين : شكل ومضمون عند المدرسيين مدّعين بذلك تسهيل الأمر وتقريبه من الناشئة والطالبين .

ويدخل تحت كلمة شكل Forme : الكلمة المفردة ، والجملة او البيت والفقرة او المقطع والبناء العام .

وأطال العرب الوقوف عند الكلمة ، ووقفوا غير قليل عند الجملة والبيت وهو مايمكن ان يقابل ماسموه بالصياغة ... وقلما تطرقوا الى الفقرة وصلة الفقرة بالفقرة وماينتج عن ذلك التماسك ...

اما المضمون فهو الافكار والمعاني ، هو مايكتنف الأثر من عواطف وأخيلة وحالات نفسية وعقل .

وقد تنبه العرب الى شيء من هذا ، الى ماسموه ـ كما رأينا ـ

بالمعاني وقد وقفوا عند حد محدود وضمن دائرة ضيقة لاتكاد تتعدى المدلول العقلي والمغزى الفكري للجملة او البيت وفي كلام ابن قتيبة في مقدمته على الشعر والشعراء ما يلقى ضوء على هذا .

وقد يكون النقد الغربي في ماضيه على شيء من هذا ، ولكنه كما وصل اليه اليوم واسع جداً ، وانهم ليدخلون في المضمون - كما رأينا - النفس الانسانية كلها - بخيرها وشرها .

ومع كل هذا التوسع الذي بلغه المدرسون في عناصر الشكل وفي عناصر المضمون ظلوا محط سخرية من اهل الانشاء انفسهم ومن النقاد ... الذين لايريدون ان يسمعوا كلمة شكل وكلمة مضمون ... ولاداعى الى هاتين الكلمتين بعد ان كانت لدينا كلمة تغني عنهما وتزيل ملابساتهما ، تلك هي الكلمة البارعة الرائعة : الاسلوب

وليس الاسلوب اللفظة المفردة والجملة .. والخيال والعاطفة ... ان هذه اضعف شيء فيه ، انه هذه زائداً شيئاً آخر اهم منها بألف مرة ...

انه الجانب الاصيل الذي يرتفع بالنص الى مستوى الروائع الخوالد . والذى يميز صاحبه عمن سواه ومن هنا نعلم ان هذا « الشيء الآخر » اهم مافي الامر .

وليست المواد هي المهم ... ان توفرها ... ودراستها ليس بالامر الصعب انما الصعب ... والمهم ... ان تبحث عن سر الاسرار .. . عما جعل الاديب اديباً . . عن الذي جعل فلانا ينظم هذه القصيدة - يؤلف تلك القصة . . . الخطبة . . دون الآخرين . .

عندك مال اذن ، تستطيع ان تشتري ما تشاء من المواد الانشائية من جص وآجر واعمدة . . وعندك مال اذن تستطيع ان تكري اكبر مهندس في العالم لوضـع الخارطـــة فهنا المطعم وهنا الحمام . . . وهنا المرحاض . . . والحديقة

ولكن هل تستطيع ان تحصل بذلك على عمارة ذات اسلوب ؟

أبداً .

وهناك الوف من الناس يستطيعون رصف الحجارة الى جـــوار العمارة . . . والغـــرفة ازاء الغرفة . . . والطابق فوق الطابق . . . ولكن الذين يعملون كل هذا بأسلوب قليلون .

عندك قطعة من افخر القماش

واخذ لك الخياط ادق القياس في طول البنطلون وعرض الكتف وحجم الياقة . . . ويملك هذا الخياط احدث مقص واحدث ماكنة .

ولكن هل يكفى هذا لأن يجعل من بدلتك بدلة ذات اسلوب ؟

ـ ابداً .

ثم ، ان الذين يستطيعون خياطتها كثيرون

وما اكثر من يرتدي السترة والبنطلون في هذا الناس

ولكن بدلات قليلة تتأملها ... وتقارنها الى سواها ... فتعجب ، .. اجل ... انك ترى فيها شيئاً خاصاً ... غـــير المقص والمقاس ... وهذا السر الخاص هو الاسلوب . .

وفي عمل الكيك

المقادير معلومة ... كذا من الطحين وكذا من السكر وكذا من البيض ... الخ وحتى السعرات الحرارية محدودة ، .. والقوالب معدة . . .

ولكن هل تستطيع كل النساء (والرجال) عمل الكيك ؟ نعم . ولكن ايستطيع كل النساء عمل الكيك اللذيذ الذي يسرك مرآه ومخبره . . . فتطرب له اسنانك ويطرب له انفك وتطرب له معدتك . . . لا . . . انهن قليلات جداً . . . وهذا السر الذي يبرعن به هو الاسلوب

هذا هو الاسلوب .

وكل ما في الأمر اننا في الطبخ والنجارة والخياطة وما اليها نعزوا التفوق الى المهارة بينما نعزوه في الشعر الى الموهبة .

والناقد القدير هو الذي يستطيع ان يغوص وراء الأصالة ويبحث عن الموهبـــة متحـدة في الأثر الأدبي ، ويتقصى ما سميناه « بالشيء الأخر » وهنا تكمن الصعوبة . . .

وإلا ، فما اسهل ان يقال هذ لفظة غريبة وهذه استعارة . ، . وهذا حب ... وذاك تصوير ـ وما اســهله ، وهـــدا اخلاقي وذاك لا اخلاقي ـ ما اسهله .

ان « الشيء الآخر » اجدر كل شيء بالدراسة ، بل هو وحده مجال الدرس .

ومن هنا صح القول « بأن الأدب دراســة الاساليب » لان الاساليب هي التي ميزت الأديب الحق من غيره ووسمت هـــدا الاديب الحق بهده السمة ووسمت ذاك بغيرها .

وهذه الدراسة صعبة .

لأنها « الاديب نفسه »

بل « الاديب » في اصدق ساعاته ـ ساعات الخلق والابداع التي يستطيع ان يعبر خلالها ـ من غير تكلف ـ عن اعمق مشاعره ، واعمق ماهو كائن في كل انسان .

هو صعب جداً .

ولا يستطيع أحـــد ان يدّعى التمكن منه وبلوغ درجته العليا - وان كان الناس - أي النقاد ، درجات في الاقتراب من « هـــذا الشيء الآخر » ، وهم يتفاوتون بنسبة موهبتهم واســتعدادهم في هذا الميدان . . .

في القصة القصيرة

للقصة تاريخ طويل يبلغ عمر البشرية أو يكاد ،وقد كانت القصص - اول ما كانت - خبرا وحكاية واسطورة (١) ثم مغامرات وخوارق لاتصدق ، في الحرب والحب .. ، وامتد بها العمر ونالها التطور وربطتها مدام دلافايت بالنفس وجان جاك روسو بالطبيعة .. وأكتسبت الجد وعالجت التقاليد والمجتمعات ؛ وعنيت برسم دقائق الاطارات والمناظر والاشخاص .. فاصبحت أوسع وأعمق وأكثر صدقا ، وانجبت أفذاذا من اقطار مختلفة منذ القرن التاسع عشر - خاصة . واذا كان « الواقع » هو مادة هؤلاء الافذاذ ومصدر وحيهم ، فانهم لم يستطيعوا ولم يحاولوا ان يجردوا آثارهم من الخيال ؛ لان الخيال عنصر أساسي في كيان القصة ولانه الجزء الاكبر من تعريفها الجامع المانع ؛ وكل ما في أمره ، انه اختلف في النسبة ولبس للحال الجديد لبوسا جديدا .

كان تاريخ القصة طويلا لان حاجة الانسان اليها فطرية ، ولم يستطع ان يستغني عنها حتى في حياته الحديثة المعقدة ، ويكفى انها باتت ابرز الوان الادب واكثرها قوة . وربما كان السبب في ذلك مرونتها

---

(١) جاء في قاموس المصطلحات الادبية :

Dictionary of World Literary Terms (London - 1955)

ص ٣٧٣ - ان المصريين القدماء تركوا لنا مجموعة « حكايات السحرة » تضم قصصا ترجع الى حوالي ٤٠٠ سنة ق . م ، كما ترك لنا الهنود والعبريون والاغريق والعرب .. مجموعات اخرى .

ويروى هذا الخبر في مقالة « القصص القصيرة » ص ١٢٥ - ١٥٦ من كتاب « دراسات في الادب الامريكي » الذي نشرته مكتبة النهضة المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين . وقد كتب الموضوع راى وست الصغير ولخصه أحمد قاسم جودة .

وقابليتهـــا لمطاوعـة كل موضوع وكل عاطفـــة وكـل أنواع الانشاء والاساليب (١) .

والقصص اقسام ومناحى ، فاذا أردت ان تعرفها من حيث الشكل وجدتها عند الفرنسيين مثلا على ضروب منهـا الـ Conte « ويقابلهـا بالانكليزية Tale » وهى حادثة مغرقة في الخيال ترويهـا الشفاة وتتناقلها الاجيال وتتفنن في عرضها « الجدات » ولا يخلو منهـا شعب على وجـه الارض ـ مهما بلغ من البدائية ـ وربما كانت البدائية شرطا فيها ... فالـ Conte اذن حكاية .

ثم تأتي يد الانســان وتنقلها الى الورق ـ مع شيء من التعـديل والتبديل ـ محتفظة بالطابع الساذج والخيال الطاغي والجن والملائكة ولكنها تظل حكاية .. ومن امثلتها في هذه الحال ماهو مشهور معروف من آثار شارل پرو « ١٦٢٨ ـ ١٧٠٣ Perrault وقد جاست سندريون وذات القبعة الحمراء خلال تقاليد العالم (٢) .

---

(١) Abbe C Vincent Theorie des Genres Litteraires '
Paris (Gigord), 19 ed. 1946, P.802 .

لقد نـالت القصة من النمو ما كادت تبتلع به انواع الادب الاخرى ،

وبدت لعيون كثير من الناس وكأنهـا كل الادب (ممن نص على ذلك Jean Suberville في كتابه نظرية الفـــن والانواع الادبية نقلا عن Maynial في كتابه الذي اختار فيـه صفحـات لقصاصي القرن التاسع عشر) وقـال Charles Plisnier في كتـابـه " Roman " الذي نشره Grasset عام ١٩٥٤ : « لااستطيع ان اخفى بأنى أضع القصة على رأس كل الانواع الاديـــة » .

(٢) ترجم عدد من حكـايات برو منفردا هنـا وهناك . وترجمت له دار المعـارف بمصر « مملكة السحر » في سلسلة « أولادنـــا » .

وتأخذ الـ Conte مظهراً آخر تحسن ترجمته بالاقصوصية ، وهى اشبه شيء بالحكايات من حيث الخيال والحادثة والسرد ، ولكنها من عمل مؤلف بعينه ومن فنه وطابعه ـ وقصده . وأمثلتها كثيرة منذ القرن التاسع عشر ـ خاصة . ويمكنك ان تدخل فيها من آثار غير الفرنسيين أقاصيص « أندرسن » (١) و « هوفمان » (٢) و « پو » (٣) . ومع ان پو تأثر بغيره فان من الناس من يعده أبا الاقصوصة ، أو أول استاذ كبير لها ـ في الأقل . وكان پو الى ذلك مبكرا في الكلام على طبيعة الاقصوصة وبعض ماتقتضيه من تعليمات وذلك على أثر « ظهور طبعة جديدة في مجلد واحد ... لمجموعة قصص هوثورن « الحكايات المعادة "Twice Told Tales" (٤) وقد نشر ذلك عام ١٨٤٢ في

---

(١) هانس كرستيان اندرسن ، دنماركى ولد عام ١٨٠٥ وتوفى عام ١٨٧٥ وقد ترجم له ـ عن الانكليزية ـ محمـود ابراهيم الدسوقى مجموعة من اقاصيصه وضمنها العدد الثامن من سلسلة عيون الادب الغربي التي كانت تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة (١٩٤٠) .

(٢) المانى ، ولد سنة ١٧٧٦ وتوفى سنة ١٨٢٢ .

(٣) ادگار ألن پو ، امريكي ولـد ١٨٠٩ وتوفى ١٨٤٩ وقد ترجم له ابراهيم عبد القادر المازنى « نبيذ الامونتيلادو » ونشرها سنة ١٩٣٩ في كتاب « مختارات من القصص الانجليزي » وهو الكتاب الذي يؤلف العدد السابع من سلسلة عيون الادب الغربي . وترجم له نجاتى صدقى مجموعة بعنوان « الخنفسة الذهبية » نشرتها دار الكتاب ـ بيروت ١٩٥٤ .

(٤) دراسات في الادب الامريكي ص ١٢٧ وتنظر دائرة المعارف البريطانية في طبعتها الاخيرة ، كما ينظر قاموس المصطلحات الادبية .

Garham's Magazine (١) ومما قال في تحديدها انها أية قصة تقتضى قراءتها من نصف ساعة الى ساعة واحدة أو ساعتين ، وان كاتبها يتصور أثرا معينا يريـــد ان يخلقه ويعمل على ان يخترع لـه الحوادث ويلبسها الكلمات التي ستحدث الاثر (٢) « ولنفرض ان أديبا ماهرا يريد ان يفرغ فنه في قصة . انه ان كان حكيما لم يكيف افكاره طبقا لحوادث قصته ، بل يجب ان يستقر قبل كل شيء ، وفي عنايـــة فـائقة ، عـلى « أثر » معين فريد أو نادر يرمـــى الى اظهاره ، ثم يؤلف الحوادث المناسبة بعد ذلك ـ وعندئذ ينسق هـذه الحوادث على أحسن وجه يـراه كفيلا باظهار « الاثر » الذي استقر عليه من أول الامر . فـاذا كانت عبارة الاستهلال نفسهـا قاصرة عن ابراز ذلك الاثر فقد أخفق المؤلف اذا في اولى خطواته . فما ينبغى خلال القطعة الادبية كلهـــا ان يخط قلمه كملة واحدة لاتتسق ـ بطريق مبـاشر او غـير مباشر ـ مع خطتـه المرسومة المقررة (٣) » .

« نعم لقد استطاع عبقرى مثل « پـــو » ان يأخذ نفسه أخذاً ذقيقـا بقيد الاقصوصة « فحصر نفسه في الحوادث » ولـون « الحوادث في الوقت نفسه بلون الحالة النفسية التي أحاطت بوقوعهـا ، تلوينا قويـا ساطعا يترك في نفس القـارىء أثرا فيه دراسة كاملة لموقف من مواقف

---

(١) هكذا في دائـرة المعارف البريطانية (ط ١٧) أمـا كتـاب دراسات ص ١٢٧ فيجعل ظهور طبعة مجموعـة هوثورن سنة (١٨٥١) وهو تاريخ غير معقول اذ علمنا ان وفاة پو كانت عام ١٨٤٩ .

(٢) قاموس المصطلحات .

(٣) دراسات ص ١٢٧ .

وينظر عزالدين اسمـاعيل فى «الادب وفنونه» القـاهرة ١٩٥٥ ص ١٧٢

الحياة ؛ لكن ذلك لايعدو ان يكون خداعا يحدثه فن الكاتب (١) ...»

ان « تعريف » « پـو » مشتق ، من قصصه ومشتق ، من نفسه ومزاجه ، ولايعنى انه يصلح لكل قصة وقصاص ، بل ان فيه - على رغم قيمته وعنايته بوحدة الاثـــر - كثيرا من الافتعال والدعوة الى الافتعال « وربما كان اضعف مافيه ذلك الايحاء الضمنى بأن تأليف القصه لايعدو ان يكون عملية مرسومة تكاد تكون آلية بالنسبة للكاتب » (٢) لقد « كان « پو » معنيا بالصيغة النظرية او المصطنعة للقصة اكثر مما كان يعنيه ان يقيم فنه على اساس متين من العالم الذي يعيش فيه (٣) » .

ولنلاحظ ان « پو » كان يسمي قصصه Tales ، وكـذلك كان يفعل هورثورن وملفيل ، والى هؤلاء الثلاثة يعود الفضل الاكبر في شأن الاقصوصة الامريكية (٤) .

وكتب Brander Mathews عـام ١٨٨٥ في « فلسفة القصة القصيرة « ورد على پو (١) ، وألف من الكلمتين « قصة » و « قصيرة » اصطلاحا واحدا يعنى ضربا معينـا Short — Story (٢) . وكان الالمان يفضلون كلمة Novellen ، وقد تركوا آثـارهم في القصص القصيرة

---

(١) هـ . ب . تشـارلتن - فنون الادب ، عربه زكى نجيب محمـود في العدد الثـانى من سلسلة الفكر الحديث الذي اصدرته لجنـة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٤٥ .

(٢) دراسات ص ١٢٧ .

(٣) دراسات ص ١٣٣ .

(٤) دراسات ص ١٢٦ .

ومـا يذكر بشأن هوثورن انه « قد كتب مقدمة لمجموعـة قصصه لعلهـا كانت ردا على نقـــد « پـو » ونظريته في أدب القصه وبواعثـه وأهدافه ... دراسات ص ١٢٧ - . وقد ترجم له المازني « دفن روجر مالفن » وذلك في « مختارات من القصص الانجليزى » .

الاولى مما كتب في القرن التاسع عشر .

ويستعمل الفرنسيون كلمة Nouvelle هذه دون ان يشيروا الى اصل ألماني في الاستعمال (٣) وهم يذكرونها - مثلا - عند الكلام على آثار مريمه Merimee (٤) وموبسان Maupassant (٥) ، وكانو

---

(١) تنظر دائرة المعارف البريطانية مادة Short Story .

(٢) قاموس المصطلحات الادبية مادة Short Story .

(٣) ألح على هذا الاصل قاموس المصطلحات .

(٤) ولد بروسپير مريمه Prosper Merimee عام ١٨٠٣ وتوفي عام ١٨٧٠ ، واشتهرت من قصصه « كارمن » وقد استل منها أكثر من فلم ، ونشرت له دار الكاتب المصري عام ١٩٤٧ « كولمبا » ، ترجمها محمد غلاب . وترجم له محمد شيخ ديب في كتابه « سبع قصص عالمية » : سقوط الحصن ، والكتاب هو العدد الحادى عشر من سلسلة مناهل الفكر العالمي ، صدر عام ١٩٥٥ عن دار ابن المقفع بدمشق ، أما العدد الثاني عشر فقد عقد على « فانديتا » . ومن المحتمل ان تجد في مجلة « الرواية » عددا من قصصه .

(٥) گی دموپسان Guy de MauPassant ولد عام ١٨٥٠ وتوفي عام ١٨٩٣ ، كانت « الرواية » ترجم من آثاره ، ونشر الزيات في كتابه « من الادب الفرنسي » احدى عشرة اقصوصه وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة عام ١٩٤٠ ثم اعيد طبعه عام ١٩٥٢ . وترجم له أميل خليل بيدس « مختارات ... » ، ولا تخلو مجموعة من القصص العالميه من أثر أو أكثر من آثاره .

ينظر عن موبسان كتاب هنرى ودانا توماس : « أعلام القصة -

ـ وما زالوا ـ يقصدون أول مايقصدون ـ الى قصة وسط في الطول ، ثم هم بعد ذلك مضطربون في الاستعمال والدلالة ، ويمكننا ان نستغل هذا الاضطراب ونعد مريمه وموبسان من كتاب الاقصوصة Conteurs مهما طالت كتاباتهم لاننا نريد أن نحتفظ بالـ Nouvelle لمسمى آخر هو القصة القصيرة .

وقد حاول مارك بلانپين ان يخرج مريمه من الـ Conte الى الـ Nouvelle ـ ولم يكن في ذلك الاول . ولكنك اذا قرأت الصفات التي اشترطها للنوفل وقرأت آثار مريمه او الصفات التي ذكرها هذا الناقد لآثار مريمه ، رأيت اختلافا ، ورأيت أن مريمه تتمة لخط طويل من الاقصوصيين . واذا كانت هذه الاقصوصة قد خطت على يديه خطوة نحو الكمال وقليلا نحو القصة القصيرة ... فلا بأس بعد ذلك من ان يكون مكانه من تأريخ القصة القصيرة الفرنسية مكان مدام دلافايت (١٦٣٤ ـ ١٦٩٣) من القصة الطويلة (١) .

ويفهم من كلام الناقد المذكور أن القصة القصيرة Nouvelle مما يمكن ان يصدق ، وأن لها لون الحياة وطعمها وانها لاتقول كل شيء او تقرر النتائج كما تفعل الحكاية Conte وأنها عندما تنتهي لا ينتهي معها

ـ الغربية » وقد نقله الى العربية يوسف عبد المسيح ثروة وصدر عن دار الرواد بدمشق ، وترجم ونشر في سلسلة الـ ١٠٠٠ كتاب بعنوان « أعلام الفن القصصي » .

(١) ولا يعني ذلك الناحية النفسية من القصة ، لان أقاصيص مريمه خلو منها (تقرأ مقدمة طبعة Pleade) .

سير الحياة ثم أنها لاتعلم ولا تربى ، واذا علمت ، فعلى طريقة القصة الطويلة أى بعرضها مشاهد الناس وعواطفهم وأحداثهم - من دون تصريح بالمعنى (١) .

واذا كانت هذه الصفات قد وجدت فعلا عند مريمه ، فإنها ليست كل ميزات القصة القصيرة ، وليست أهمها ، واننا نستطيع ان نخرج مريمه عن القصة القصيرة الى الاقصوصة بالحجة التي أدخله بها بلانپان نفسها ، فقد جاء في كلمته : أن كاتب القصة القصيرة Nouvelle يقف على الساحل وبيده الشص والشبكة وينحنى على المياه وعلى ملتطم الامواج أحياناً - ولكنه على الساحل ، عليه . بينما يلقى كاتب القصة الطويلة بنفسه في صميم المجرى مثل سباح ماهر يغشيه الموج وقد يلطمه المجرى أو يدفعه أو يجرفه (٢) . وهى تفرقة جميله على ان تكون بين كاتب الـ Conte في الاقصوصة من جهة وبين القصة الطويلة الحديثة Roman او القصة القصيره الحديثة من جهة اخرى لان رجل الساحل كاتب اقصوصة - ومثله مريمه الـ Conteur اما كاتب القصة القصيره Nouvellist (٣) فأكثر منه ، انه - مثل كاتب القصة الطويلة - يلقى

---

(١) كتب مارك بلانپان Marc Blancpain هذا الذي نذكره عنه في مقدمته للطبعة التي صدرت عام ١٩٥٣ لمجموعة من Nouvelles مريمه عن دار Hachette في مجموعة Flambeau .

(٢) لعل بلانپان قد أخذ التشبيه عن تيبوده

Albert Thibaudet — Histoire de la Litterature Francaise de 1780 a nos jours, Paris (Stock), 1936 p. 211

وقد كان پيير رشاد أكثر أمانة اذ نص على تيبوده وهو يقدم للمختارات التي نشرتها Classique Larousse عام ١٩٣٨ كما ذكر مصادر اخرى لا يستغنى عنها من يريد التأليف في الـ Nouvelle الفرنسية .

(٣) كاتب الـ Nouvelle وهي بالانلگيزية Short Story

بنفسه في صميم المجرى . . وكل فرقه عن هذا الاخير أنه يكتفى من هذا الخصم الزخار بدفعة واحده .. دفعة واحـــدة ويبقى التيار بعده يجرى ويجرف أصحاب القصة الطويلة .

ذلك ان القصة القصيرة موجة من خضم الحياة الراهنة وقطعة من المجتـــمع الصاخب ، وهى تجربة صغيرة أو جزء من تجربة كبـيرة فيها صفحة من النفس الانسانية ، النفس الانسانية ؛ لان الجانب النفسي مهم جدا في القصة القصيرة بالمعنى الدقيق - وهو مهـــم ، أهميته في القصة الطويلة الحديثة ، وكل الفرق بـــين الاثنين أنه في القصيرة يمثـل طورا واحدا من أطوار النفس . والعناية بالامور النفسية تقلل من شأن الحادثة وتقلل من مكانها الذى تحتله في الحكاية . كما ان القصة القصيرة الحق اكثر جدا واكثر صلة بالمجتمع وواقع الانسان في مجتمعه ، ولكي يهبها القوة والحياة ويبعد بها عن أن تكون هيكلا عظميا Squellettes يلعب به ذكاء الكاتب ويعبث وهمه . لئن كانت القصة الطويلة الحديثة جسما فان القصة القصيرة الحديثة عضو حي من هذا الجسم : انها قلب تارة وعين تارة . . . ومعدة تارة اخرى . .

فأين من هذا أقاصيص مريمه - رجل الساحل المتفرج ؟ اين خضم الحياة ؟ وأين أطوار النفس (١) . انه لمن الصعب ان تجد للقصة القصيره

---

(١) من أبرز صفات أقاصيص مريمه ضعف الجانب النفسي ، وفي مقدمة مهمـــة للمجموعة التي صدرت في سلسلة Pleade دراسة قيمة لهذه الاقاصيص ، ونص على هـذه الناحية ، وقد تشير هـذه المقدمة الى اقصوصة نفسية ! ولكنك تقرأهـا فلا تجد الحكم قاطعـا ولاتجـد النفس حيـــر .

بالمفهوم الصحيح ممثلاً عند الفرنسيين ، وانهم يتعبون إذ يعملون على تحديدها في ضوء اتجاهم ولا ولن يبلغوا صميم الحقيقة ولا ولن يجدوا ما يقولون فيها مالم يخرجوا عن دائرتهم الضيقة الى انطـون تشيكوف (١٩٦٠ ـ ١٩٠٤) حيث يجدونها على أحسن ما يكون فيجدون سعة للقول ومجالاً للاجادة .

وشيء آخر يجب أن نعلمه من أمر القصة القصيرة الناجحة هو أنها ليست قصة طويلة مقصرة مركزة لأن الحياة شرط في الاثر الأدبي وشروط في القصة القصيرة ، اما انك اذا لجأت الى قصة طويلة واختصرتها في صفحات معدودات فانك افقدتها الحياة وجعلتها هيكلا عظمياً بلا لحم ولا دم (١) .

ان هذا التطور الذي أصاب القصة القصيرة في القرن التاسع عشر هو التطور الذى أصاب القصة الطويلة Roman (وفي الانكليزية Novel) ـ وان كانت بوادر التطور في القصة الطويلة أقدم فكانت ـ عند الفرنسيين ـ الاميرة دكليف وأدولف ومانون لسكو . . . حتى اذا بلغت القرن التاسع عشر ـ أو نصفه الثانى ـ ان أردت الدقة ـ لقيت كتاباً كباراً مثل فلوبير وبالزاك وستندال (٢) .

---

(١) وقد انتبه محمود تيمور الى ذلك وهو ينقد الاقصوصة المصرية ص٤٧ من كتابه فن القصص ط(٣) سنة ١٩٤٨ ، وينظر له « دراسات في القصة والمسرح » القاهرة ١٩٥٧ .وانتبه اليها كذلك عبدالحميد جودة السحار في مقدمته لهمزات الشياطين ، القاهرة ١٩٤٦ .

(٢) وهناك ضرب آخر من القصص هـو الـ Recit ولك ان تسميه « القص » أو « القصة » بفتح الصاد ، ذلك لانه لايلتزم قواعد القصة ، انه عرض وسرد ، ان فيه من القصيرة شيئاً ومن الطويلة شيئاً

ونعود هنا ، لنقول ان هذا القصص لايمكن أن يستغني عن الخيال أبـدا ، ولا ولن تجد قصة ناجحة من دون خيال ، ولكنه الخيـال الذي يؤلف بين أجزاء الحقيقة ، والذي يخدعك عن نفسك فيريك حقا ماترى وتقرأ ـ وما هو في كل اجزائه بذلك .

على ان كلمة Roman هـذه لم تكن في الاصل على هـذا المفهوم ذى الصلة القوية بالجد والواقع والنفس والمجتمع ... انما نشأت ـ اول مانشأت في مدلولهـا القصصي ـ في أحضان الحكايات (١) .

وهكـذا تتداخل الاشكال ويصعب التمييز بينهـا ، ولايكفي الطول ولا القصر دليلا في الحكم على النوع ، ان زديگ فولتير (٢) لايمكن ان تكون قصة طويلة أو قصيرة انما هى Conte من طراز الاقصوصة وانك لترى فيها جفافا وخيالا ذكيا ، وتحس ان المؤلف يسحب كما يريد خيوط ـ قراقوزه » ويحل عقده كما يشاء (٣) « كأن لم تكن هناك حكومة » .

دون ان يكون قصة بالمعنى الرسمى ، ولئن كانت آثاره بعيدة فان الحديث منه يتصل بالواقع وفيه تحليل نفسي ، ومن الناس من يستعذبه ويدعو له ويعده من أرقى الالوان . ولعلك قرأت لاندره جيد « الباب الضيق » أو « مدرسة الزوجات » ـ وكلتاهما من مترجمات الكاتب المصرى . وقد قيل ان جيد لم يكتب ـ على كـثرة ما كتب ـ الا قصة واحـدة هي « مزيفو العملة » أما الباقي وهو كثير وعديد فقص . ومن الـ Recit ومنه في العربية : الايام وعلى هامش السيرة وزهرة العمر ...

(١) ينظر ـ مثلا Vincent .

(٢) ترجمها طـه حسين في العدد ٢٣ (اغطس ١٩٤٧) من المجلد ٦ من مجلة « الكاتب المصري » .

(٣) ينظر بلانيان في مقدمتـه على اقاصيص مريمه طبعـة هاشت ، ص ٨ .

كما ان الطول الخارق الذي تتمتع به « بائسو فيكتور هيگو » لم يجعل منها قصة طويلة أو قصيرة ـ انما هى اقصوصة طويلة أيضا . ولهذا رأيت من الكتاب الانكليز من يذكر « القصة القصيرة الطويلة

Long Short Story ويذكر من أمثلتها

The Turn of the Screw by Henry James وقد بلغت ٤٠٫٠٠٠ كلمة ويذكر Stevenson's Dr . Jekylle and Mr. Hyde

ويذكر The man without a country

وقد بذلت الجهود وما زالت تبذل في سبيل تحديد هذه المسميات Recit ‘ Roman ‘ Nouvelle ‘ Conte وما يقابلها في اللغات الاخرى وقد بلغتك محاولة « پو » كما تكلم موبسان على الـ Roman (١) ولا تكاد تجد قاموسا حديثا او كتابا في تاريخ الادب يغفل هذه المحاولة وربما كانت محاولة أندره موروا أحدث هذه المحاولات ، وعلى ماهو عليه موروا في النقد والقصص ، لم يستطع ان يهتدي في « حواره » الى تحديد واضح يدل على ان الفروق واضحة في نفسه (٢) .

في كثير من هذه المحاولات شيء من العبث ، لان التحديد غير ممكن ، وانك ماتكاد تفتح كتابا يبحث في فن القصة حتى يطالعك بـ «من الصعب تحديد القصة »(٣) . والمحاولات هي اعمال نقاد اكثر منها أعمال منشئين أو قارئين لان المهم في الامر هو الاجادة . وليكن بعد

---

(١) في مقدمة قصته Pierre et Jean وذلك في ايلول ١٨٨٥ .

(٢) ١٨ تموز ١٩٥٧ من « مجلة Les Nouvelles » Litteriates وفي العربية حاول محمود تيمور التحديد وذلك في مقاله « فن القصص » ينظر كتابه « فن القصص » ط ٢ القاهرة ١٩٤٨ او كتابه « دراسات في القصة والمسرح » ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

(٣) Jean Pouillon — Temps et Roman , Paris (Gallimard) 1946 .

ذلك ، الحجم ما يكون ، وليكن الطابع الغالب الجد أو الهزل أو الخيال ... أو ... مايكون . ولهذه الاجادة شروط عديدة يمليها النقاد في العرض والعقدة والحل ، وفي التسلسل بالاحداث وفي رسم الاشخاص والمناظر ، وفي التحليل النفسي وفي صلة الحادثة برغبات القارىء القريبة والبعيدة ومدى اعرابها عن مشاعر انسانية عامة ... ثم في اللغة والاسلوب ، وهم يقدمون للقراء ولمن يعجبهم ان يكونوا قصاصين «وصفة» طويلة من الادوية : أولا ـ ثانيا ـ ثالثا ـ الخ ويطلبون اليهم ان يشربوا هذا في الصباح ، قبل الفطور وذاك بعد الغداء بنصف ساعة ، أما الاقراص فقبل النوم بدقيقتين فقط » .

ونحن لا ننكر جدوى هذه الوصفات ، ولكننا ننكر على الناس ، ولاسيما على الناشئين من العراقيين ، هذه العناية الزائدة التي يخصون بها شيئاً خارجا عن طبيعة الاشياء . وننكر عليهم انهم يقرأونها للتبجح المزيف وللخلط بين الوسيلة والغاية ولا تجدهم يقرأونها للعلم بالشىء والاستفادة من الممكن . انهم ما زالوا ـ أو مازال الكثير منهم ـ يعتقدون ان درس النقد الادبى بعلم الطالب كيف يكون قصاصا ـ مثلا !

القصة ـ شأن كل لون انشائى فنى ـ تقوم على موهبة خاصة لدى المرء في السرد والوصف والملاحظة ... والخلق والتحليل والتخيل .. وأول مايقوّم هذه الموهبة قراءتك للآثار القصصية الخالدة ، ثم محاولتك الكتابة ، وهنا تتكشف لك نفسك وتكتشف نفسك وتميز شخصيتك وأصالتك وتعلم ان للقصة القصيرة فنا ـ أو سرا ان شئت ، له صلته بالبناء وطريقة السرد ولو كانت من غير فن ومزايا خاصة جوّد فيها ـ كل ناعق ولحسبنا الكثير مما نقرأ على انه قصص ، قصصا ـ وهيهات .

انما نريد ان نقول ان من أوهام الشباب ايضا تفضيلهم القصة الطويلة على القصيرة ، وان الكاتب منهم مايكاد يشق طريقا في القصة القصيرة حتى يبدأ يحلم بالطويلة ، وقد يزج نفسه فيما لا يجيد وما لا يتهيأ له . وليس هذا الوهم وهما عراقيا حسب انما هو وهم أوربي ايضا وطالما ذمه النقاد الفرنسيون ـ مثلا .

لا ، ليس المهم ان تكتب قصيرة أو طويله انما المهم ـ كما هو المعقول ـ ان تجيد ، أو انك تكتشف نفسك فتعمل على دعم مجالى شخصيتك ومنافذ تفوقك . وأعجب منك ذلك الذي زاول القصة وتقدم فيها تقدما ملحوظا ، ولكنه لم يلبث حتى جرفه تيار خطأ صور اليه ان النقد أفضل من القصة وأنه ذو المكانه الاولى في الادب ، لان الناقد هو الموجه والقائد ، أما القصاص فهو الموجه (بفتح الجيم) والتابع وهكذا ضيع صاحبنا المشيتين ـ كما الغراب . أرجو ان تكون أعرف بنفسك من سواك وأكثر ثقه بها فيما تريد وتدبر ولاتهمك بعد ذلك « المودات » التي تشيع على أساس وعلى غير أساس . ان القصة مهمة ، والشعر مهم والنقد مهم ايضا ، ولكل صاحب . فدونك واياك .

ان للقصة الطويلة أعلاماً في مغارب الارض ومشارقها ولك ان تذكر دستوفسكى وديكنز وستندال وبلزاك ... الخ . وتستطيع ان تعد العشرة والعشرات في كل أمة ، فكم هم الكبار في القصة القصيرة ؟ مهما « تساهلت وتساهلنا » لم نستطع ان نزيد على اصابع اليد : تشيكوف في ، او على رأس هذه النخبة المختارة فقد تهيأ لهذا الرجل من المواهب مالم يتهيأ لسواه ، انك ما تكاد تقرأ له الصفحة والصفحتين حتى تستعظمه اذ تجد نفسك ازاء جبار يعرف كيف يخلق من توافه الاحداث اليومية وتوافه الخلق البشري آثارا رائعة يعجب بها كل قارىء أيا كان جنسه وأية كانت نحلته .

ومن الاسرار الظاهرة لتفوقه : مفهومه لبناء القصة ، ومهارته في العرض وقدرته على اختيار الموقف الضيق ذي الدلالة الواسعة والطابع الاجتماعي والاثر النفسي مما يجد فيه القاريء شيئاً من نفسه وقرابة لها ، فيبقى أثر هذه الصفحات القصار التي تقرأها يلازمك أشهراً ثم سنين ولا ولن تنساه . ان كل صفحة غذاء العمر الطويل . ومن اسرار النجاح ، قرب الكاتب من قلوب القراء وعطفه على آلام الآخرين وحبه لهم (١) ثم مايثيره في نفس القاريء من عطف وعجب من النفس البشرية (٢) .

ان أدب تشيكوف نبض حي من الحياة ، تحركه كل الدماء التي تجري في شرايينها وأوردتها ، حتى قال الكاتب الكاثوليكى دانيل روب بأنه لم يكن معنيا ببلوغ الحقيقة لما تنعكس على المرآة ، انما كان همه أن

---

(١) تنظر مقالة Virginia Woolf عن القصة الحديثه في كتاب English Critical Essays selectad by Phyllis M. Jones, Oxford university prsse, وقد اختار المقاله ونقلها الى العربية رشاد رشدى في كتابه « مختارات من النقد الادبى المعاصر ، القاهرة (مكتبة الانجلو المصرية) . كما نقلها يوسف عبد المسيح ثروة في كتابه « فن الادب » ، دار الكاتب العربي ، بيروت . ومما يذكر انها كتبت مقالتها هذه عام ١٩٢٥ .

(٢) مادة « القصة القصيرة » في :

Oxford Junior Encyclopeadja, vol. XII, 1954

بعرضها كما هي (١) . بل ان القصاص نفسه « كان ... يقول للكتاب الناشئين : لايجوز للكاتب ان يجلس بين أربعة جدران ، وأن يستل المواضيع من ذاته ، بل عليه ان يرى الحياة والناس ويلمسهما ، وعليه ان يستمع الى احاديث القوم كما هى ، لا كما يتخيلها ، وان يسعى دائما الى الاسفار والاحتكاك بمختلف العناصر والشعوب ، ونصح الكاتب مرة أحدهم بقوله : سافر الى اليابان ... سافر الى استراليا ... أجل تخط حدود بلادك الى اوربا حتى اذا عدت شعرت بأنك تقف على تربة آسيوية ! .. وبعد ذلك ارجع الى منزلك ... وانت تحمل الشيء الكثير من المواد والمعلومات ، بل الكثير من القصص ! .. ونصيحتي اليك ألا تجلس في القطار الذي تسافر فيه الا في عربات الدرجة الثالثة (٢) ... » .

واذا اضطربت القيم وتلاطمت التيارات عن يمين وشمال وراح اصحاب الآراء والنظريات والفلسفات يملون على الادباء ان يفعلوا كذا ، ويقولوا كذ .. وقف تشيكوف ثابتا يمتحن الموقف ولا يستجيب لغير نفسه فلم يقبل كل شائعة ولم يتبع كل ذائعة (٣) . والفن مانبع في نفسك

---

(١) مما يفهم من المقدمة آلتى كتبها (Daniel Rops عام ١٩٤٦ لمجموعة ضمت ستاً من قصصه بعنوان Le Moine Noir وقد ترجمها الى الفرنسية Gabriel Arout وصدرت في باريس عن مطابع Flore .

(٢) عن ص ٣٢-٣٣ من الكتاب الذي ألفه نجاتي صدقي عن الاديب ونشرته دار المعارف بمصر عام ١٩٤٧ في العدد الـ ٥٠ من سلسلة اقرأ .

(٣) قرأت مثل هذا في كتاب عقد على الاديب الفته بالفرنسية كاتبة لايحضرني اسمها .

بفعل الحياة ولم يكن استجابة للأمر والنهى والطمع الرخيص بالشهرة وارضاء القاريء أو الناقد ؛ وما ينبع عن الحياة يبقى حيا حتى بعد زوال المظهر الذي أوحاه ، ويرى الخلف في هذا المظهر الذى أجاد السلف وصفه متعة هى متعتنا بالتاريخ القديم تراه بعينك ، ثم ان هذا الذي توحيه الحياة ينطوي حتما على عناصر الوجود وجوهر الشيء ، وهذه هى هي على اختلاف الزمان والمكان .

ان حياة هذا الاديب على قصرها (١٨٦٠ـ١٩٠٤) مليئة بالتجارب التي عاناها في نفسه وفي مجتمعه بين الفقر والامراض والآلام النفسية دون ان يجره شيء من ذلك الى اللؤم واخلاق اللؤماء ، انما ظل كريماً طيباً يحب الطيبين . واذا كانت الكآبة من الصفات التي تغلب على قصصه ، واذا كانت هذه الكآبة تقرب أحيانا من اليأس ، فانك لتلمح بأن هذه الكآبة مما يهذب الطبع وينبه الضمائر من غفوتها أو غفلتها ، ونلاحظ ـ كما لاحظ دانيل روب ان « يأسه ليس مغلوقا على نفسه او مستقطبا على هوة ذاته ، ولكنه مفتوح عن شىء أكثر تأسيا ومتجه نحو هدف » .

واذا علمت انه كان طبيبا يداوي الناس عرفت كيف ان الموهبة الصادقة تشق طريقها ،وعرفت كيف انها تستغل كل شيء في سبيل ظهورها ونبوغها . واذا علمت ان القصة القصيرة لم تكن محترمة يوم بدأ يكتبها ، عرفت كيف تتحدى الموهبة الصادقة المألوف وتفرض نفسها على الانسان والتاريخ . حدث في خريف سنة ١٩٠٢ ان زاره في بيته ـ وهو مريض ـ جماعة من الادباء فكان مما قاله لهم : « انكم محظوظون ياكتاب اليوم ، فالناس يخلعون عليكم آيات الثناء على ما تقدمونه لهم من قصص قصيرة . أما أنا فقد مربى زمن كان الناس فيه ينهالون عليّ بالشتائهم لانى أكتب

القصة ! ، . لأنهم كانوا يعتقدون أن الكاتب لا يكون موضع الاحترام والاعتراف بالجميل إلا اذا وضع رواية كبيرة ! . . غير انني بينت عقم هذه الفكرة وخرقت الحائط بجبيني من أجل القصص القصيرة (١) » .

وهكذا كانت آثار تشيكوف هي المثل الأعلى للقصة القصيرة أما سـواها فقد ظلت حكايات أو بقايا حكايات - اقاصيص - ان شئت . ولهذا رأيتني احدثك عنه إذ لا مفر من ذكره ، وكل حديث عن القصة القصيرة لايعنى به كان ضرباً من العبث واضاعة الوقت (٢) .

اقرأه في أية لغة تعرفها ، الانكليزية ، الفرنسية ، الالمانية . . . وحتى العربية (٣) ، ولا شك في انك ستواصل ثم يتكون لديك المفهوم الصحيح للقصة القصيرة الحديثة الناجحة ثم حاول الكتابة وستجد نفسك وتجد منهجك الخاص .

إن هذا الرجل الذي أبدع هـذا الابداع في القصص القصيرة ، والقصيرة جداً ، لم يحاول أن يكتب قصة طويلة شأن معاصريه ، وانه حين حاول أن يخرج عن العدد المحدود ، المحدود من الصفحات . . . الى العشرات لم ينجح كما يجب ، وربما جاءت قصته شبه الطويلة أشبه بمجموعة من قصص قصار - أقرأت له « القاعة رقم ٦ » - مثلا ؟

---

(١) نجاتي صدقي في العدد الـ ٥٠ من اقرأ ص ٤٤-٤٥ .

(٢) العبارة مستوحاة من كلمة Virgenla Woolf .

(٣) ترجمت مجلة « الرواية » التي كان يصدرها الزيات عدداً من قصصه . وألحق نجاتى صدقي طائفة من القصص في العـدد الـ ٥٠ من اقرأ ، وشرعت دار اليقظة العربية بترجمة أعماله الكاملة وأصدرت الجزء الاول والجزء الثانى .

ولم يكن تشيكوف في ذلك بدعا ، فمن قبله كتب موپسان أكثر من قصة طويلة (لعلها ثمان) ولكن هل قرأت له « حياة » مثلا ؟ انها لفيف مفروق من عدة حكايات ، ويظهر أن شيئاً من هذا الذي يلاحظه قارىء موپسان اليوم لاحظه قارئه أمس ، وربما آذى موپسان ذلك وأثاره ، ولعله كان الباعث لثورته على النقاد : « لست الوحيد الذي وجه اليه نفس النقد ونفس السبب كلما ظهر له كتاب جديد . . . ان أكبر عيوب هذا الكتاب هو انه ليس قصة بالمعنى الصحيح . . . واستطيع أن أرد عليهم بالحجة عينها : « ان أكبر عيوب الكاتب الذي يشرفني بالحكم عليّ هو أنه ليس ناقداً (١) » .

كانت لـگي دموپسان دولة ، وما زالت قائمة خارج فرنسة ، وكان من أماني تشيكوف أن يكتب مثل موپسان ، ولكنه لحسن حظه لم يكن موپسان ثانياً ، إذن لأصابه ما بدأ يصيب موپسان من اعياء واملال وانصراف النفس عنه وعن فنه الذي يغلب عليه الاصطناع والافتعال ، وتعمد غرابة الاحداث وغرابة الاطوار وعناصر المفاجأة ومغريات الشهوة وألعاب الذهن . وقلما عاش لموپسان أثر في نفس قارئه . إنك تشعر وأنت تقرأ موپسان أنه مشدود إلى عصره وإلى مكان بعينه وأنه لا يملك القوة التي يغزو بها كل نفس وكل زمان ومكان .

ومن عجيب مايراه دارس موپسان أن قصص الرجل مقروءة عند الأجانب أكثر مما هي مقروءة عند الفرنسيين انفسهم . وفي الوقت الذي احتفلت امريكا بمناسبة مرور مئة عام على ولادة موپسان ، لم يعن الفرنسيون

---

(١) من مقدمة Jean et Pierre '

بذلك وقد أبدى كثير من نقادهم استغرابه لعناية العالم بموبسان وربما وجد بينهم من سخر منه ومن فنه وأنكر عليه عناصر البقاء والخلود .

ويظهر ان الفرنسيين يقرأون قصص موبسان الطويلة اكثر من قراءتهم أقاصيصه . ويعلل بعضهم هذه الظاهرة - ازاء موبسان أو ازاء القصة القصيرة اطلاقا - بأن القصة القصيرة لاتنسجم ومزاج القارىء الفرنسي . ولايعنى هذا - على أى حال - ان الفرنسيين لم يكتبوا القصة القصيرة - أو لايكتبون . وبالامكان عد العشرة والعشرات من الاسماء ، ولكن على غير جدوى ، لان الذي يكتب يذهب مع الريح ، ولانك قلما تجد كاتبا كبيرا يزاولها على انها فنه الاول . وقد وضعوا اخيرا جائزة للقصة القصيرة وقد نالها جان جاك گوتيه ولكنك تفتح كتابه وتقرأ مقدمته فتعلم انه بدأ الكتابة مبكرا وان هذه القصص من آثار شبابه وانه كتبها لان الحكايات القصار لا تستدعي جهدا كبيرا متصلا (١) .

وحاول آخرون ممن عرف بالقصة الطويلة ان يكتبوا القصيرة ، ومن هؤلاء ستندال ، ولكن قصصه القصيرة ليست شيئاً ، ولم يستطع ان يعلو بها درجة مناسبة ، ولو لم تكن هذه القصص من عمل مؤلف « الاحمر والاسود » لما سمع بها أحد ولما عنى بها أحد . وقريب من أمر ستندال أمر « بلزاك » ومن الصعب ان تبلغ أقاصيص فلوبير الثلاث - مهما وجدت من معجبين - مبلغ مدام بوفارى - مثلا .

وقد تنبه الى هذه الظاهرة كاتب مقالة القصة القصيرة في دائرة المعارف البريطانية (ط ١٦) ، ولكنه ذكر ان Scott's wandering Willie's Tales and Dickens ' Achils ' Dream of a Star

---

(١) Jean Jacques Gautier — Vous Aurey de mes Nouvelles, Paris, Julliard, 1957.

أمثلة بارزة على الشذوذ لهذه القاعدة . ثم ذكر عـددا من الادبـاء من أساتذة القصة القصيرة لم يكتبوا طويلة : پو ، موپسان ، برت هيارت ، جى . دبليو كايل ، أو هنرى .

وقال كاتب « القصة القصيرة » في دائرة معارف اكسفورد : لايوجد في القصة القصيرة كاتب انكليزي لهمن التفوق ماللاستاذي الفن العظيمين: موپسان وتشيكوف ، انما يوجد عدد كبير من القصص القصيرة في مختلف الاشكال مثـل حكايات كبلنگ وكانون دويل ، اج . جى . ويلز وكاترين مانسفلد وكوبـارد ؛ وقال انك لاتكاد تجد كاتبـا للقصة الطويلة في المئة الاخيرة لم يكتب كذلك قصصا قصيرة ، ومن اشهر هؤلاء الاعلام الذين برزوا في النوعين : كونراد ، روبرت لوسى ، ستيفنسن ، هنرى جيمس ، جيمس جويس ، دى . اج . لورنس ،

ان مثل هذا الكاتب مثل ذلك الاستاذ الفرنسي الذي اعترف ان ليس في أدبه مثل شكسبير فتألم فاستدرك وقال : ولكننا نستطيع ان نجمع من هذا الاديب الفرنسي وذاك ما يساوى شكسبير ـ وكلا الكاتبين على حظ من العبث .

وقد علل پول موران (١) تأخـــر القصة الانكليزية القصـيرة عن الطويلة بأمور منها ان الانگليز يحبون السعة ولايحبون ان يقرأوا مـابين السطور ، وانهم بطيئون في التفكير وفي الفهم ، وأنهم ـ أخيرا ـ لايعنون

---

(١) Paul Morand في المقدمة التي كتبها لـ Union Jack وهى مجموعة من القصص الانكليزية القصيرة صدرت مترجمة الى الفرنسية عن Gallimard في سلسلة « بعث القصة القصيرة » عام ١٩٣٦ ، ط ٣ .

كثيرا بالكيفية التي ينتهى بها أثر أدبى ، وبالمزايا الشكلية لهذا الاثر أو بشدة الأسر .

وحين أشار پول موران هذا ، الى بعث القصة القصيرة في انكلترا منذ نهاية القرن التاسع عشر ذكر ان الذين اسهموا في هذا البعث لم يكونوا انكليزا خلصا : فهنرى جيمس فرانكو ـ اميركى ، وآر . الى ستيفنس فرانكو ـ اكوسى وكونراد انكليزي ـ سلافى ، وكبلنج انكليزى ـ هندى . ويكاد يجرنا پول موران الى بحث « القصة القصيره » ونفسيات الشعوب ولكننا لانريد ان تدخل في هذا النقاش لانه طويل .

ونحن اذ نتحدث عن ندرة القصة القصيرة عند الانكليز او غيرهم انما نعنى ندرة الجيد والخالد ، أما اذا قصدنا الى الكمية ، فما كتب عند جميع الامم ـ وما يكتب ، كثير وكثير جدا ، وليس من المعقول ان يعدم مايكتب قراءا ، انما الملاحظ ان هذا الذى يكتب يقرأ مرة واحدة ويرمى كما ترمى الجريدة اليومية ، فكأن الغاية الاولى منه التسلية العابرة ؛ تسلية للمؤلف لانه لايكتب ما يكتب الا عندما يتعب من عمله الاول وهو يؤلف القصة الطويلة أو المسرحية أو القصيدة ؛ وتسلية للقارىء لانه لايقرأ مايقرأ الا في الفرص القليلة التي تتهيأ له خلال عمله المتصل وذلك في اوقات الطعام أو الانتقال والسفر ، ومعلوم ان الانسان غير مستعد لان يقرأ قصة طويلة تتطلب انتباها متصلا مستمرا في مثل هذه الاحوال ، انما يحتاج الى وحدات قصيرة ـ تنتهى عندما تنتهى فرصة غدائه او عندما تصل به السياره الى المحطة التي يسكن فيها .

ومايكتب هكذا ولهذا ، يشجع على مزاولة القصة كل امرىء وامرأة من كان ومن كانت ولا سيما المبتدىء والمبتدئة ، وما كان هذا حاله فقد

عناصر الدوام والبقاء . وأصبحت الجرائد والمجلات عاملا جديدا في هذه السرعة وفي هذه الكثرة ، ويهم الجريدة ان تملأ صفحاتها بكل سبب ولو أداها ذلك الى تبنى حجة تشجيع الشباب وتقوية الاقلام الناشئة وتنمية المواهب الغضة ، والقارىء اليومي يقرأ كل شيء - ولا تخلو قصة من طرافة يومية تعبر عندما يعبر اليوم ، ولايهمه الفن أبدا ، انما المهم الحادثة ولتأت بعد ذلك على هيئة تقرير يقدمه « شرطى » الى « مركزه » .

لقد اصبحت القصة القصيرة بابا دائميا في الجرائد والمجلات حتى ان « بعض معاهد الصحافة الاميركية والاوربية تقوم بتدريس فن كتابة القصة القصيرة الى جانب تدريسها فن كتابة المقال الصحفي وغيره من الكتابات الصحفيه (١) . وليس من الغلو الشديد ماروي عن سومرت موم - وهو الذي بدأ محاولاته في القصة القصيرة منذ ١٩٢٦ - من انه يرى ان الفضل الاول في انتشار الاقاصيص يعود الى المجلات اولا وأخيرا» وأنه يقول « ما من نوع من أنواع الفنون ينتج مالم يكن هناك طلب له . فلو ان المجلات لم تنشر الاقاصيص لما كانت الاقاصيص تكتب (٢) » .

وصحيح ان الصحافة وماتقتضي من افتعال وعجلة و « طلب وعرض » تفسد الفن في بعض جوانبه ، ولكنها تكون حافزا للكتابة ولتصيد الموضوعات المناسبة، وسببا لتوكيد الصفات الفنية لكاتب من الكتاب - فاذا

---

(١) جميل الحسنى في مقدمة الكتاب الذي ترجمه عام ١٩٥٦ في سلسلة الـ ١٠٠٠ كتاب بعنوان « مختارات من القصص الانكليزية القصيرة » .

(٢) عن عبد الحميد جودة السحار في مقدمته التي صدر بها مجموعته « همزات الشياطين » .

لقيت موهبة وثقة بالنفس قدمت للعالم قاصا كبيرا ، ألم تكن آثار موبسان وتشيكوف من ثمرات الجرائد والمجلات .

وهكذا نرى أثر الصحافة في القصة القصيرة سلباً وايجابا ، ونرى مكان القصة القصيرة من نمط حياة العصر المعقدة فنرى بذلك مظهرا من مظاهر اهتمام المعاصرين بها . ومظهر آخر من مظاهر هذا الاهتمام هو هذه المجاميع من المختارات : « قصص من موبسان » ... مختارات من القصص العالمي ... « ٢٠ قصة من الادب الامريكي » .... الخ . ومظهر آخر هو هذا الاهتمام بالحكايات الشعبية ، ولا يمكنك ان تدخل مكتبة في الغرب دون ان ترى كتبا وسلاسل بعنوان « حكايات اغريقية .. فارسية .. مغربية ... الخ (١) . كما انك تجد كتبا اخرى خصص مؤلفوها شطرا من حياتهم لجمع المتناثر هنا وهناك من الحكايات الشفهية. ومن أحدث هذه المحاولات ما فعله في فرنسا Henri Pourrat في مجلداته الجادة بعنوان « كنز الحكايات » .

ان في هذه الحكايات كنوزا ثمينة ، لان فيها المظهر الاول للفكر الانساني ، وفيها المظهر الاول للانسان الفنان ، وما أبدعه الانسان الاول عن فطرة وصدق يحفظ الخطوط السائدة للنفس الانسانية ويحتفظ بعناصر البقاء ، ثم ان فيه عنصرا لانستطيع اليوم ان نتوفر عليه ألا وهو عنصر البساطة والسذاجة ، ولانظن القرن العشرين بحياته المعقدة بمستطيع ذلك ولا

---

(١) وبدأ العرب يفعلون مثل هذا ،وقد مر معنا عدد من المجاميع المترجمة ، ولنذكر هنا سلسلة « قصص مختاره » التي تصدرها « دار بيروت » فكانت فيها قصص مختاره من الادب الاسكنديناقى ، الفرنسي ، الاسباني ، الصيني ... الخ .

تظنه بمستغن عنه لانه يجد فيه مخلصا من ضيق ماهو فيه ، وتسلية يخلو بها - وجها لوجه ، ازاء جده الاول .

تؤنس هـذه الحكايات - أول مـا تؤنس - الاطفال ، ولهذا كانت موردا عذبا لدور النشر الحديثة تنهل منها وتعب من دون حسيب أو رقيب ولمن عساها تدفع حقوق التأليف ؟ ان أفضل ما تقدمه عوضا عن هذا الواجب هو هذه العناية الفائقة بالاخراج والتزيين والطبع ... مما يجد فيه الاطفال متعة وغذاءا - وفائدة .

ويخطىء من يظن ان الحكايات للاطفال فقط ، لانك مهمـا بلغت من العقل والتعقل ، نلتذ بقراءتها وتجد فيها البذرة الاولى للعقل الفلسفى عند الانسان - ان كنت تنشد العقل ، وتجد فيها المتعة الساذجة والخيال الساذج - ان كنت تنشد ذلك وتريد الهرب من تعقيد القـرن العشرين وعوامل قلقه (١) .

وتهب الريـاح

وتعبر الى الشرق العربي فنقرأ ونترجم ونكتب القصة - لاول مرة كما كتبها الغربيون أو من تأثر بهم الغربيون (٢) . وتكون فينا المحاولة تلو المحاولة ، ويظهر بيننا الرائد اثر الرائد وقد اشتهر في القصة القصيرة تيمور وبرع يوسف ادريس ومـا زلنـا في هذا الدور وان بـدا طويلا ،

---

(١) ولعلنـا نتنبه فنعمل شيئا ممـا عمله الغـربيون ، فنحفظ بذلك تراثا انسانيا ونهيىء لاطفالنا وشيوخنا ضروبا من المتعة والفائدة . ويكفى ان تكون لقصصنا نفحات من « ألف ليلة وليلة » ...

(٢) ينظر اسماعيل أدهم في كتابه « توفيق الحكيم » وعبد العزيز عبد المجيد في The Modern Arabic Short Story ومحمد يوسف نجم في « القصة في الادب العربي » القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ١٧٢ مثلا .

وليست المسألة مسألة وقت أو محاولات ... وخطوات الى الامام فقط ، انما هى مسألة تهيؤ الموهبة المناسبة لهذا اللون من ألوان الفن ، اما في القصة القصيرة فمحاولاتنا أكثر ، وقد هال الدكتور طه حسين اقبالنا على القصة فقال : « القصص فن أدبى قيم ممتع ... ولكنه فن من فنون الادب وليس هو الادب كله ، فما بال شبابنا يغرون بهذا الفن دون غيره من الفنون . هذه ظاهرة تحتاج الى شىء من الدرس والتفسير ... » (١)

وعالج العراقيون القصة ، وولعوا بالقصيرة منها ، وكان لهم بين الحين والحين شىء يقرأ ، ولكنه بداية البداية . والمؤسف في هذا الباب هو ان الذين زاولوا هذا الضرب - على كثرتهم - لم يبدأوه كما يجب، او بمعنى أدق لم ينهوه كما يجب . ذلك أنهم بين مراهق مغرور ما أسرع ما يتهاوى ؛ وشيخ جامد لم تواته المطاوعة الفنية ؛ و « مصلح صغير » يحمل هذا المخلوق الضعيف مالا يطيق من نظريات وآراء غريبة عن طبيعة الحوادث وغريبة عن « تربية » الكاتبين وأمزجتهم وطراز معاشهم ؛ وبين مقلدين أعجبوا بهذا أو ذاك من أساليب كتاب الغرب فراحوا يذيبون شخصياتهم وهم يمسخون . وبدأ آخرون بداية حسنة ثم غيروا رأيهم في اللون الفكرى الذي « يجب » ان يعرفوا به .

اننا لانريد ان نتشاءم ، ولاسيما بعد ان قرأنا اكثر من قصة جيدة لايمكن ان تكون قد جاءت عفوا دون مؤهلات فطرية ومقومات مكتسبة، أقرأت « عهد جديد » و « مجرمون طيبون » و « غثيان » (٢) انما الذي نرجوه مخلصين ان يكثر هؤلاء الكتاب من مطالعة الآثار القصصية العالمية

---

(١) من مقدمة لكتاب « ألوان من القصة المصرية » ، القاهرة (دار النديم) ١٩٥٦ .

(٢) احدى قصص مجموعة « نشيد الأرض » لعبد الملك نوري .

وان يزيدوا من تجاربهم ويوسعوا من أفق حياتهم ، وأن يؤمنوا بقيمة ماهم فيه من قراءة وكتابة دون ان ينسوا أنهم انما يكتبون باللغة العربية وان لهذه اللغة حقوقهـا عليهم ... حتى اذا عرفوا ذلك وعرفوا صلاحهم ساروا على هدى ذاتهم غير ملتفتين الى هذا أو ذاك ، وعلى غير محابـاة أو خوف او تقليد . اننا نعتز بشبابنا المبدع ويشرفنا ان تكون لنا منهم مجموعة طيبة نباهي بها الامم ونقدمهم ليدخلوا في تاريخ الادب العـــالمي ويحتلوا بقصصهم مكانا من كتب المختارات . (١)

المعلم الجديد ـ كانون اول ١٩٥٧

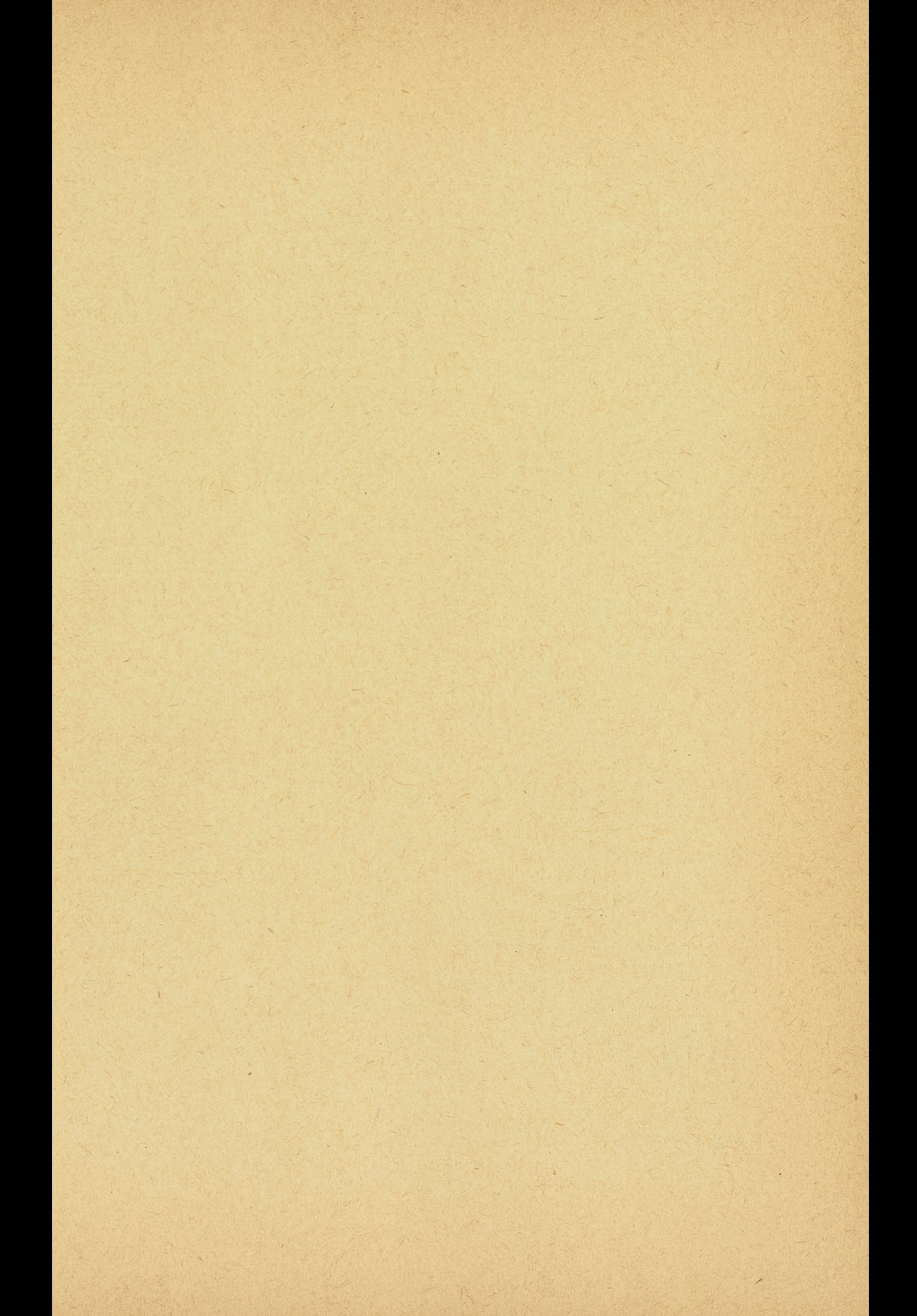
---

(١) مما يذكر للالمام بالمهم من فن القصة الطويلة ، التلخيص الذي عملته مجلة الآداب البيروتية في عددها الخاص بالقصة (كانون الثاني ١٩٥٤) للكتاب الذي ألفته الكاتبة البلجيكية Nelly Romau ونشر بالفرنسية منذ سنوات بعنوان Physicologie du Roman (فيزيولوجية القصة) .

ووردت المراجع الانكليزية المهمة للقصة القصيرة في ذيل مادة Short - Story من الطبعتين الاخيرتين لدائرة المعارف البريطانية ومن « قاموس المصطلحات الادبية » .

(۲)

شعر حدیث ومعاصر



محاولة لدراسة

اللوحة في « الشوقيات »

لم تكن الدراسات التي صدرت عن شوقي قليلة ، وقد ساد هذه الدراسات الطابع التاريخي ، فهنا حياته بين ميلاده ووفاته ، وهنا بيئته ودمه ، وصلته بساسة زمانه ، وهنا مقابلة بينه وبين حافظ ، ومقابلة بينه وبين المتنبي ، وهناك وطنيته وعقيدته ، وهناك اغراضه في الرثاء والغزل والوصف والمديح ، الى آخره .

وقد الممت بشيء من هذا وذاك ، والممت بشيء من شعر شوقي ، وكلما بعد عهدي به .. قويت في نفسي خاطرة ، خاطرة خلاصتها ان التاريخ في الدراسات الشوقية غلب الفن وان ما حول النص منها اغرق النص .. وليس التاريخ فنا وليس الشعر تاريخا .

ويتباعد العهد ، وتقوى الخاطرة ، وتتوضح وتتبين : ان صفة شوقي الغالبة هي التصوير ، فهو رسام ، وهو يعمل بالريشة اكثر مما يكتب بالقلم ، ولا يقف هذا عند غرض الوصف ، ولو كان ذلك ، لما كان صفه غالبة ، انما هو شأنه في اغلب اغراضه .

ثم تمر على وفاة شوقي ست وعشرون سنة ، وتفكر مصر في تخليد ذكراه ، وتطلب الي المشاركة ويحدد للتحضير ساعات محدودة ، لا تكاد تكفي لمحكوم عليه لان يدافع عن نفسه ، ذلك اننا لم نخبر بالمشاركة الا

قبل المهرجان باقل من اسبوع ، وكان علينا ان نهيىء في هذه المدة الوجيزة الف شيء وشيء ، وفي زحمة هذه الاشياء .. وزحمة ذلك الوقت ... عاودتني خاطرتي القديمة ؛ فعدت الى الشوقيات ، ورأيت - فيما رأيت :

ان غير قليل من صور شوقي قد اوهنته الايام ، وافقدته شيئاً من روائه ، وان شوقي كان يستعين بالمبالغة التي يتذوقها عصره ، فتشغله عن الصور نفسها ، اولا بأس - بعد ذلك لديه - ان تكون نتيجة للتعجب الارادي القصدي ، وان من هذه الصور ما اكتنفته النثرية ، فتقطع في سلك كلماتها تيار الوحي الصادق . وان وصف الطبيعة - ان احتل مكانا من الديوان - فانه ليس على درجة عالية . فقد غلب عليه الجفاف ، وساورته النثرية ، وان كثيرا من لوحاته التي حاول ان يجمع على سطحها اكثر من منظر واحد ، اقرب الى الكليشة والفوتوغراف منها باللوحة ، اي انها لم تعن كثيرا بالاختيار ، وتراكمت فيها الاحصاءات ، ولم يميز فيها بين ما يؤخذ وما يترك في التفصيلات . هذا ما بدا لي ، ولكن الكلام عليه يخرج قليلاً عن مجال المهرجانات . ثم انه - ان كان صحيحا ، لا يحول دون دراسة الصورة عند شوقي ولا يحول دون العثور على صور تستجاد وتستملح مما يبرر الدراسة ، ويقف الناقد والقارىء على آثار نبيلة ، فيها براعة ، وفيها قوة ... وجدة وابتكار ، ... وتطرب الحاسة الفنية ، وتبعثها على الاعجاب بالاثر ، وعلى الاعجاب بالشاعر .

اجل ، ان الصفة الغالبة في شعر شوقي هي التصوير . وكان هم النقاد القدامى ينحصر بالجزء الصغير من الصورة مما ينطوي عليه البيت الواحد . وكأن أثر هؤلاء النقاد ظل قائما في دراستنا الحديثة ، فما رأينا

عناية كافية بالصورة وباللوحة ـ وهما اوسع من التشبيه والاستعارة . ولا يعدم البلاغي ان يجد عند شوقي امثلة كثيرة . على مفردات بحثه ، بل انه ليستطيع ان يجد امثله ناجحة واكثر من ناجحة : ألم يكن شوقي هو القائل : ـ

لله انت فما رأيت على الصفا هذا الجلال ولا على الاوتاد

والقائل :

هذا فضاء تلم الريح خاشعة به ويغشى عليه الدهر محتشما

والقائل :

فأعرض عن قواده الجند شاردا وعلمه قواده كيف يهرب
يكاد الثرى من تحتهم يلج الثرى وبقضم بعض الارض بعضا ويقضب

والقائل :

أقام على الشفاه بها غريبا ومر على القلوب فما اقاما

والقائل :

جرى وصفق يلقانا بها بردى كما تلقاك دون الخلد رضوان

والقائل :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه بالخلد نفسي

والقائل :

والحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

لقد قال شوقي كل هذه الروائع ، ونترك للبلاغيين من أهل البيان والمعاني ... امر العناية بها .. ونسير ، فما كانت غرضنا الاول ـ مهما تدل هذه الجزيئات على المخيلة

ان غرضنا الاول هو البحث عن اللوحة ،او بمعنى ادق ، عن اللوحة المختارة ـ اي الصورة التي لاتقف عند الجزء ، وانما تستقصي الاطراف

وتلتفت الى دقائق التفصيلات ، عارضة وحدة - او وحدات صغيرة - رآها الشاعر حقيقة نابضة في مخيلته ، ويراها القارىء وحدة مستكملة الاعضاء ، منسجمة التلاوين ، فتثير فيه شعورا يشبه الشعور الذي يبعثه « الرسام » على النظام والتجويد ، وتوحي اليه أشياء اخرى يضيفها عليها من نفسه ومن ظروفه ، ويقترب الاثنان كلما اقتربت المخيلة ، وكلما تقاربت الظروف النفسية .

ونستعرض حياة الشاعر ، ونستعرض شعره ، ونبحث عن اطوار النعيم ، واثار حفلات الرقص والقصف ، وانعكاسات البلاط .. ونبحث في الذي نظمه ليسجل هذا الطور في حينه ، فلا نجده موفقا . وتسير في معرضه ، فلا يستوقفك منه شيء ذو بال ، لانك لا ترى رواء ولا تحس ريا ، انما هو وصف ، ووضع الاسود الى جانب الابيض ، فتمر مر الكرام ، وتسير ، فتجتذبك صور أخرى هي غير تلك الصور ، او انها تلك ، او شيء منها ، عندما اصبحت ماضيا .. وباتت ذكريات . فحفظ منها الزمن الاقوى الذي ادخر عاطفة زادها الموت حياة ، وجعل لها نفاذا من وراء اللفظ واشعاعا من خلف الالوان .. وظلالا لدى الاطار .

وكلنا يعلم ان شوقي عاش مدة في باريس ، وكانت له فيها اوطار واوطار . وكان غاب بولونيا من مسارح تلك الاطوار . ولكن شوقي لم يحدثنا عن الغاب ايام الغاب . ولم يصور لنا الاوطار ايام الاوطار والشباب ، عهد الشباب ، والهوى .. عهد الهوى .. لا . فقد مر الزمان ، ولاذت الاحداث في زاوية من زوايا النسيان .. ثم « يرى »

الشاعر الغاب ، فيستيقظ الوجدان ، ويخفق القلب ، ولولا ذاك ، لما بلغتنا عن ذلك الغاب على لسانه رواية ، ولما عرفنا ان له من قلبه مكانا ـ هذا المكان الذي يجلوه بقوله :

هلا ذكرت زمان كنا ... والزمان كما نريد
نطوى اليك دجى الليا ... لي ، والدجى عنا يذود
فنقول عندك ما نقول ... ، وليس غيرك من يعيد
في كل ركن وقفة ... وبكل زاوية قعود
نسقي ونسقى والهوى ... ما بين اعيننا وليد
فمن القلوب تمائم ... ومن الجنوب له مهود
حتى اذا دعت النوى ... فتبدد الشمل النضيد
بتنا وممـا بيننا ... بحر ودون البحر بيد

أيام حلوة ، صافية ، زاهية ، مؤاتية تتخللها خطوط عنيفة من الهوى ، وهادئة من الرضى . ولكنها لم تصل الينا كما هي ، وكما كانت ، انما وصلت ذكرى ، ذكرى يكتنفها سواد الحسرات فيقلل من روائها وبهائها . وقد يكون هذا اكثر تأثيرا في نفوسنا ـ ولكن الذي وقع وقع ، وهو ان الشاعر لم يصور الشباب في شبابه ، فيبدو وضاء وضاحا ويقف المشاهد ازاء هذة اللوحة ، فيصيبه من حاضر الرسام شظايا ، ومن كآبته كآبة . ولو وقف ازاءها يوم كانت حاضرا لغمره المرح والفرح ، وربما الغبط والحسد . وتجتذبنا اللوحة ، فنجدها أكثر تأثيرا من مشهد فها هو ذا الرسام « ازاء مصدر وحيه » . وها هوذا يرجع الى ماضيه شيئاً فشيئاً ، حتى ينقطع عما حوله تمام الانقطاع . وها هو ذا الماضي حاضر .. حي بين رواح ومجيىء ، وقيام وقعود وهوى وصبابة .

ونعود من جديد ، ونعيد النظر بعين الممتحن المتفحص ، اكثر من عين المتأثر المأخوذ . فنرى الرسام ، انما نجح اول مانجح ، فيما صور من اوطار قلب ، محب ، كانت له في « الغاب » ايام سعد وسعادة ، وما زالت هذه المشاهد عميقه في نفسه ... ولكنه عرضها عرض شاعر عربي لايبدو انه تأثر بالشعر الغربي وبالرسام الغربي . اما حبيبته فلم نعرف عنها شيئاً ، ولم نتبين سماتها ، وانك لا تستطيع حتى ان تقول انها فرنسية .

ويحاول ان يعني « بالوسط » الذي كانت تجري فيه مثل هذه الاحداث ، فلا يطاوعه تيار الوحي كثيرا ، ولا يسايره في خطوطه ، وقد يفارقه في منتصف الخط ، فيظل النصف الثاني « مظلما » مثل « والرياح به هجود » ومثل « والناس نامت والوجود » او يفارقه في الخط كله فيأتي ناشزا ، ومثل :

فنبيت في الايناس يغبطنا بها النجم الوحيد
والغصن يسجد في الفضاء وحبذا منه السجود

وليست هذة الاحيائية التي سكبها على الطبيعة ، احيائية الرومانتيكيين انما هي احيائية البلاغيين العرب في امثلتهم في الاستعارة المكنية ـ وشتان .

ولو سار شوقي في احيائيته على نهج : « نطوي... فنقول ... » ، لكان للوحة شأن آخر ، لان المهم في اللوحة ، ما وراء خطوطها من قوة وحياة .

ثم ان الاطار الذي تعرض داخله مهم ايضا ، ويشترط في هذا

الاطار ان يكون جزءا لايتجزأ من الصورة ، وان يكون له من الحياة مالها ، وعليه من الظلال ما عليها ، ولكن ، اين غاب بولونيا وهو مسرح تلك الاوطار ومسراها ؟ تبحث عنه ... فلا تجد له اثرا البتة . اين « البحيرتان » ؟ اين الاحبة في الزوارق .. وبين حنايا الشجر .. متعانقين ، ولدى مسارب الدروب ... متخاصرين ، وأين البواسق واين الزحمة ... واين اين . تقول انه لا يريد ان يرسم منظرا « واقعيا » فليكن ذلك ، ولكنه لم يرسم شيئاً من غاب بولونيا ، ولعله رسم اشياء غريبة عن الغاب ... استعارها له ، من بساتين مصر مثلا . ولئن كان ذاك ... وليكن ، .. فلم يقصر الشاعر في رسم اوطار القلب ، كما بقيت « قائمة بين الضلوع » .

تلك وقفته في غاب بولونيا وله وقفة اخرى .. في زحلة (٢) . ويتساءل المرء ، هذه هي زحلة ؟ ويجيب كل من رآها : لا ... ثم أين هو شوقي وراء الكلمات والسطور ؟ لاتجد منه شيئاً . انما هي مبالغات تكاد تكون تعليمية ، فهى اوصاف عامة ، جاهزة ، فان كان الشاعر قد وصف الوادي قبل ان يراه .. فان الابيات مقبولة في مكانها ، وان كان قد اراد ان يرسم مايرى ماثلا امامه ، ففي الابيات مصداق لما قلناه من انه لا يجيد رسم المناظر الطبيعية التي تقع عليها عينه ، وانه لا يستطيع ان يرسم الحاضر .

ولكن الذى يستوقف المشاهد من « زحلة » شيء غير زحلة ، تستوقفه ذكريات الشاعر ، اي حاضره الذي كان ماضيا .

---

(٢) الشوقيات ٢ : ١٧٧ ـ ١٨٠

شيعت احلامي بقلب باكــــي ولممت من طرق الملاح شباكي
ورجعت ادراج الشباب ووردهـ امشي مكانهما على الاشواك
وبجانبي واه كأن خفـوقه - لما تلفت جهشة المتباكي
شاكي السلاح اذا خلا بضلوعه فاذا أهيب به فليس بشاكي
قـد راعه انـي طويت حبائلي من بعد طول تناول وفكاك
ويح ابن جني : كل غاية لذة بعد الشباب عزيزة الادراك
لم تبـق منا يـا فؤاد بقيــة لفتوة او فضلـــة لعـــراك
كنا اذا صفقت نستبق الهوى ونشد شد العصبة الفتـــاك
واليوم تبعث فيّ حين تهزني مايبعث الناقوس في النساك

هـذه لوحة ، ولوحة جيدة ، تمثـل شيخا ، كان لشبابه في الغرام صولات وجولات ، ولقلبه معارك وانتصارات ، وقد تكون مبالغا فيهـا ، ولكنها هكـذا تبدو ، وهكذا يحسها ربها ،

وتمر الايـام ، ويمضي الشباب ، ويخلف هيكلا ، يضم داخله شيئا كان في يوم ما قلبا . ويحاول ان يغالط نفسه ، فيتعرض للمرأة . . . وهيهات ، فما لمرأة فيه طمع . وما عليه الا ان ينسحب ، حزينا كاسف البال ، يروح ويجيء في باطنه شيء يابس ، فقـد لباقته وطـاقته ولم تبق فيه الا اطياف ماض تقض حاضره . ومـا اشد الانسجام في لوحة التقى فيها الهيكل .. الباهت بهذه الالياف اليابسة ، التقيـا وكان رابطهما الماضي ، بل ذكرى الماضي الماضـــي ، بـل الاسى عليه ، والاسى على ذكراه . ويودع الهيكل صاحبه الذي يسميه قلبـــا على سبيل التجوز ، ويعترف بالحقيقة المرة ، ان لم تبق لهما بقية لفتوة ، او فضلة لعراك .

كل شيء منسجم في هـذه اللوحة ، والحسرة تنعكس من ثنايـاهـا وهذه الحسرة الصادقة هي التي وهبتها هذه القوة ، وهذه الحياة ، وبعدت بهـا عن الرصف التعليمي . على ان تتذكر ان ليست لها اية صلة بزحلة ، وانها ثمرة من ثمار الماضي لم تقتطف في حينها

وتسير في القصيدة فترى لوحة اخرى ، هي لوحة « جارة الوادى » وفيها جودة دون ان تكون ذات صلة مباشرة بزحلة ، ولكن ، لها الصلة كلهـــا فيمـا نحن فيه من ان شوقي يجيد استعـادة المـاضي واستحضاره واحياءه :

لم ادر ما طيب العناق على الهوى   حتى ترفق ساعدي فطواك
وتعطلت لغة الكلام وخـاطبت   عينيّ في لغة الهوى عيناك
ومحوت كل لبانة من خاطري   ونسيت كل تعاتب وتشاكي
لا امس من عمر الزمان ولا غد   جمع الزمان فكان يوم لقاك

ولم تصل الينا هذه اللوحة بالوانها الحمر الشديدة الحمرة ، السود الشديدة السواد ، انمـا جاءت في ظـلال الحسرات ، واطلت من وراء الاسى ،

وصحيح ان الذكريات مهمة في دنيا الرسامين ، وغـير الرسامين ، والرومانتكيين خاصة . وانها رصيد غزير يأخـذ طريقه الى حاضرهم من حيث لا يشعرون ولكن من الرســـامين ، من اذا وقف ليرسم منظراً ، شغله الحاضر ، فعرضه بشكل يقرب من الشـكل الذي تراه انت ، دون ان تستطيع الاعراب عن رؤيتك ، ولم يـكن شوقي ـ كما رأينـا ـ من هؤلاء ، انه لايرسم حاضره أو بمعنى أدق ، انه لا يجيـد رسم حاضره

الا عندما يصبح ماضيا ، أو عندما يكون ذا صلة بالماضي ،

ولا تقف هذه الظاهرة ـ ظاهرة سيادة الماضي ، عند حياة شوقي الشخصية ، إنما تتعداها الى حياة مصر كلها . ، فقد قال كثيراً في حاضرها الذي عاشه . على اختلاف القول ، وعلى اختلاف الاحداث والأعلام ، ولكن اللوحات القيمة التي بقيت ماثلة ؛ هي لوحات من الماضي . ولعلك شهدت لوحة « انس الوجود » (١)

ايها المنتحي « بأسوان » دارا	كالثريا تريد ان تنقضا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع	لا تحاول من آية الدهر غضا
قف بتلك « القصور » في اليم غرقى	ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى اخفين في الماء بضا	سابحات به ، وابدين بضا
مشرفات على الزوال وكانت	مشرفات على الكواكب نهضا
شاب من حولها الزمان وشابت	وشباب الفنون مازال غضا . .

والشاعر في « انس الوجود » رسام يحاول ان يرسم ما يرى . أو أن يظهر للمشاهد بانه يرسم ما يرى ، فلقد احتوت اللوحة تلك القصور من مخلفات عهود سالفة بعيد ، ولكنها لم تحوها كما يبدو لعامة الناس : قصوراً متقاربة ، متلاصقة ، اغرقها النيل ، وقد اختفى جزء وظهر جزء لأن ذلك اغراق في الواقع ، وليس من الفن في شيء ، وهو تعليم وجغرافية وتاريخ ، والرسام غير المعلم . . وصحيح انه يعرض ما يرى ، وما يراه الناس ، ولكنه يعرض اعجابه ايضاً ، وقد فعل ذلك شوقي ؛ فقد نقل اعجابه الى المشاهدين ، وجعلهم يرون في تلك القصور البيض اكثر مما كانوا يرون ، وجعلهم يرونها احياء ، مذعورة . ومصدر اعجاب

---

(٢) الشوقيات ٢ : ٥٦ـ٥٨

شوقي هو التاريخ ، وكون المنظر تاريخيا ، وان هذه القصور - على بعد الزمان بها - ما زالت حية حاضرة ، وكان للاعجاب شريك آخر في اثارة الشاعر ، هو الاسي على ما تعانيه هذه القصور من عوامل التلف .

وما كان بين شوقي وبين النجاح التام في كل اجزاء اللوحة الا السيطرة التامة على اصباغه ، فلقد اندس بينها ما يمكن ان يكدر الانسجام ، ولا ادري لم اختار شوقي « الضاد » قافية ، واكبر الظن انه اختارها اصطناعا ، ليدل على « روزفلت » بلغة الضاد . ومع هذا تظل « انس الوجود » رائعة يرى القارىء فيها - على البعد - ما رأى شوقي ويتأثر بما تأثر به شوقي .

هذا الماضي - الماضي المصري - يظهر أكثر ما يظهر ، ويبدو أوضح ما يبدو ، عندما يقف شوقي ليصور ابا الهول (٤) ، فلا يصور التمثال نفسه ، وانما يصور التمثال ، الاثر والاثار التي يتركها في الاخرين . ثم لا يلبث هذا « الاب » ان يثير شتى الاسئلة ، ذات الصلة بشوقي ، آنذاك ، فلقد بدا متشائما ، وبدا ضجرا ، حائرا .. وبدا طالبا للعبرة :

ابا الهول ويحك لا يستقل مع الدهر شيء ولا يحتقر
تهزأت دهرا بديك الصباح فنقر عينيك فيما نقر
اسال البياض وسل السواد واوغل منقاره في الحفر
فعدت كأنك ذو المحبسين ، قطيع القيام ، سليب البصر
كأن الرمال على جانبيك ، وبين يديك ، ذنوب البشر

فعرض صورة لذلك الجبار المتشامخ الذي سخر من الزمن ، وسخر

---

(٤) الشوقيات ١ : ١٥٨ - ١٧٠

من الدهر ثم لم يلبث ان استسلم فشاهت خلقته ، وغارت قوته ، ومسخ عنفوانه .

واللوحة تريك ابا الهول مجسما : فهذا جبروته ، وهذا البياض وهذا السواد .. وهذه الرمال على جانبيه .

ولكن ، لا تعتقد انك رايت ابا الهول خلال هذه الصوره ، لانها صورة شوقي اكثر منها صورة ابي الهول ، وهي تختلف عن رؤيتك اياه قبل ان تقرأ هذه الابيات . اما وقد قرأتها ، فان اول ما ستعمله حين تتطلع في تمثال ابي الهول انك تطيل النظر الى عيونه فتبحث عن السواد والبياض ، وعن آثار المنقار .

ان شوقي يرسم ما في نفسه ، وما يوحيه فيها ابو الهول ، وما يسكبه هو عليه .

ولا غرو فهو شاعر يطاوع مقتضيات الشعر الغنائي في فطرته الأولى . واثر موحيات ابى الهول في نفس الشاعر متنوعة الصفحات . ففي كل لحظة صورة لا تتصل كثيراً بالصورة السابقة .

بسطت ذراعيك من آدم   ووليت وجهك شطر الزمر
تطل على عالم يهل   وتوفى على عالم يحتضر
فعين الى من بدا للوجو   د ، واخرى مشيعة من عبر
فحدث فقد يهتدى بالحديث   وخبر فقد يؤتسي بالخبر ..

وهكذا يسكب شوقي ما في نفسه على التمثال ، دون ان يحاول ان يجلو له صورة واقعية . والملاحظ ان شوقي لا يجيد كثيرا اذا اراد ان يرسم الشيء كما هو امامه ، واذا اجاد ، فلا يطول نفسه ، واذا طال

مع الاجادة فاعلم انه لا يرسم اشياء وقعت ، وانما ، اشياء تصورها . فليست اللوحة عنده عرضا للعرض ، انما هي عاطفة شوقي التي تطل من وراء المرئيات ، عاطفته ، او قل حزنه من الدهر ، والمه من فعلاته .

وعلى هذا لايصح ان يتخذ شوقي في الجيد من شعره مصدراً للتاريخ ، لانه انما يتحدث عن بنات تخيله ، او عن الماضي كما صورته اليه كلمة واحدة وردت في تاريخ ، او كما صورته بقية عاشت بعد اهلها .

نفهم من كل هذا ، ان شوقي في جياد لوحاته ، لايحلق اذا اراد ان يرسم الاشياء كما هي وكما تبدو ازاءه وازاء الآخرين . ومن هذا انه لا يجيد اذا اراد ان يصور الحاضر والقريب ، حتى اذا اصبح الحاضر ماضيا ، والقريب بعيدا اجاد واحسن ووهب الصورة حياة وقوة يهبها من نفسه وشخصه بما .

هذا شأنه في حياته الخاصة ، وقد رأينا بولونيا وزحله ، وهو شأنه مع التاريخ ، وقد وقفنا عند ابي الهول وانس الوجود . واذن ، فالجياد من لوحاته التاريخية لا تمثل التاريخ وانما تمثل شوقي ، او التاريخ كما رآه شوقي في شكواه وتشاؤمه من الحياة وتفكيره في مصيرها ، فتعكس هذه الشكوى على الرائي ، وتعمل على ان تثير فيه انطباعات متشابهة .

وشوقي في مجمل هذه اللوحات اقرب الى الشقاء منه الى النعيم ، واقرب الى الحزن منه الى المرح ، مما يدل على انه في اعماقه غير ما يريد ان يبدو للناس ، وغير ما اراد الناس ان يروا فيه ، بعد ان علموا صلته الشديدة بالبلاطات .

هذا ما تمليه علينا جياد اللوحات .. وللمرء ان يذكر في تعليل هذه الظاهرة ـ ظاهرة التأثر بالماضي ، وغلبة هذا التأثر عند الاجادة في الكلام على الحاضر ـ اقول للمرء ان يذكر اكثر من سبب . وبامكانه ان يرد ما تعلق منها بحياته الخاصة ، الى ان الشاعر لم يستطع ان ينصرف كله الى تصويرها ايام وقوعها ، لانه كان يخشى القالة ، ويفكر بنقد الآخرين وسخطهم على سلوكه الشخصي .. حتى اذا بعد الزمن ، وباتت ـ هي ـ ذكرى ، وبات ـ هو ـ شيخاً ، انصرف اليها كله ، يعرضها ويعرض اعنف لحظاتها ، وهو يعتقد ان مثل ذلك الماضي لا يمكن ان يسيء اليه والى حاضره .

اما ماتعلق منها بماضي مصر فبامكان المرء ان يرده الى ماهو شائع ذائع من ظروف شوقي ، شوقي الذي نشأ بلاطيا وظلت البلاطية جزءاً من شخصيته ونفسه مهما تختلف به شؤون الحياة ، وشوقي الذي عاش في مصر في زمن بدأت تكون فيه للشعب كلمة ، وكلمة ذات بال . يريد الشاعر ان يرضي هذا ، ويريد ان يرضي ذاك ، والتوفيق امر غير ممكن لرجل لم تتعدد شخصيته ولم تزدوج في مثل هذه المواقف ـ في الاقل .

ولهذا ، فانه ، حين يصف البلاط يعلم في نفسه انه يغضب الطرف الاخر وحينما يصف الشعب يحذر من وقوع العكس ، فلا يستطيع ان ينصرف كله الى طرف ويهبه كل ذاته .

اما الماضي فهو جنة ، وهو سند ينصرف اليه وهو يعلم انه يرضي بذلك كبرياء الشعب ، وكبرياء البلاط ، كما يرضي نفسه ايضاً ، لأن

الماضي الذي عرضه شوقي أو الذي جود في عرضه هو امر ذاتي ، لايكاد يزيد نصيبه من الموضوعية على عدد قليل من المواد الخام .

وعلى هذا ، يمكن القول انه لو مـد الله في عمر شوقي او لو انه عاش في عصر جمهوري ، توحدت فيه حاجات الشعب وحاجات الحكومة وتوحدت فيه اهداف الشعب واهداف الحكومة ، وتوحدت فيه امجـــاد الشعب وامجـاد الحكومة .. اقول لو عاش شوقي مثل هذا العهد المبارك لكان ممكنا ان يجلوه في لوحات جياد لايعوق ريشته - وهي تخط وتلون وتظلل - خوف من امر خارج عن طبيعة الصورة .

ان هـذا يومك يا شوقي ، وبامتنـا حاجة الى موهبتك ولغتك .. ولوحاتك .. ورحمة الله عليك .

القى في مهرجان شوقي بالقاهرة

الآداب١٩٥٨

البركان [1]

إذا ذكرت الثورة العراقية ، وذكر الشعر ، ذكر البصير . ولا غرو ، لقد كان شاعرها ، ومؤجج حماس أبنائها ، ومسجل حركاتها وسكناتها . ولحقه من الأذى والسجن والنفي مايلحق كلّ وطني يستثير همم ابناء قومه ، ويسعى لاستقلال بلاده ، ويناصب السلطات المغتصبة العداء .

وقد استمع أبناء الجيل الماضي الى البصير في المحافل والنوادي والمساجد ، وقرأوا له في الجرائد والمجلات والمجاميع الصغيرة ، فأعجبوا به ، وحفظوا له ، وتناقلوا نوادره وتتبعوا اخباره ، واحلوه المنزلة السامية واسبغوا عليه الألقاب الجليلة وفاء واعترافا واكباراً فهو «معري العراق» «وشاعر الشعب» «والشاعر الوطني» . وكان خبر نفيه حدثاً في تاريخ العراق وحسبه انه كان مادة في البيان الذي أصدره المعتمد السامي البريطاني .

واتتقل إلينا شيء من ذلك الاعجاب ، فللبصير في نفس كل وطني احترام واجلال ، وبلغنا شيء من ذلك الشعر ، فأنشدنا ونحن في غمرة الحماسة : «وطني والحق سينجده» ، ورددنا : «اطلبي مجدك يا أرض

---

(١) ديوان شعر للدكتور محمد مهدي البصير ، صدر ملحقاً للمجلد الثاني والعشرين لمجلة المعلم الجديد . بغداد ، مطبعة المعارف ، اواخر تموز ١٩٥٩ .

العراق » (ص٦٥) ، واستظهرنا : « أن ضاق يا وطني عليّ قضاكا » (ص٥١) .

وكنا نطمع أن نرى ذلك الشعر مجموعاً في ديوان ، يرجع إليه الأديب ، ويفيد منه المؤرخ .

وقد أدّى صاحبه ما عليه إذ جمعه وبوّبه وقدّم لقصائده ، وحفظه في مخطوطة جعلها في متناول يده ، ولكن أكثر من حائل كان يقف دون ؛ طبعها ، حتى اذا كانت ثورة الرابع عشر من تموز ، زال كثير من تلك الحوائل ، بل ان الثورة الجديدة كانت دافعاً للعناية بالثورة الأولى وبآثارها ، وألقت على العراقيين واجب البحث عن التراث الوطني .

وكان طبيعياً ان ينشط استاذنا الدكتور البصير الى طبع ديوانه ، ولما لم يكن يطمع من وراء ذلك في مال ، رأى أن يقدمه هدية لمجلة « المعلم الجديد » لتقدمه هي هدية لقرائها الكثيرين ، في عامها الثانى والعشرين .

وهكذا صدر البركان

وفي مقدمته يقول المؤلف : « اطلقت على هذا الديوان اسم « البركان » ، لأنه يمثل جهادي المتواضع في سبيل العرب عامة والعراقيين خاصة ، ويرمز الى نشاطي الحزبي المحدود الذي كنت أمارسه سراً وعلانية ، مدة تقرب من خمسة عشر عاماً . . .

. . . وأعترف أن بعض قصائد هذا الديوان ومقطوعاته نظم على عجل ، ولاسيما في أيام الثورة ، يوم كان لزاماً عليّ أن انشد مساء كل

خميس . . . قصيدة سياسية جديدة تهز المشاعر وتثير الخـواطر على الانتداب وما يستتبع من مصائب وويلات . وتذكر الناس بمـا كان للعروبة والاسـلام في سـالف الأيام من مجـد باهـر وملك زاهر .

والواقع أني كنت أستعيض بالخطبة عن القصيدة أحياناً ، ولكن الجمهور كان أشد ميلا الى الشعر ، وأكثر اقبالاً عليه ، وكان لابد لي من اشباع ميله وارضاء رغبته قدر المستطاع ، هذا عدا المناسبات الأخرى التي كان يطلب إليّ فيها ان اقول شيئاً من الشعر يقل مرة ويكثر مرة . . .

ولهذه الأسباب المختلفة والمتعددة رأيت ان اعيد النظر في طائفة من قصائد هذا المجموع ومقطوعاته لأحذف منها ما ينبغي حذفه وأصلح منها ما ينبغي إصلاحه . وقد فعلت كل ذلك مـع الاحتفاظ التام بالمباديء والأفكار التي كنت انادي بها آنذاك . . . »

ولا شك في أن المؤرخ يطمع أن يرى القصائد كما هى ، وكمـا قيلت وأعلنت ، لتكون أدق في الدلالة ، واصدق في الشهادة . إلا ان مالك الشعر نفسه أراد غير ذلك ، أراد أن يخرج على الناس بالشكل الذي يريد أن يروه عليه ، وما على المؤرخين ـ بعد ذلك ـ إلاّ ان يتعبوا أنفسهم ويرجعوا إلى صحافة الفترة التي يؤرخـون لهـا ، ليجدوا ضالتهم .

والمقدمة على إيجازهـا تبين أشياء كثيرة ! وهى اذ تحدد المضمون وما ينطوى عليه من الأفكار والأغراض والمعاني وحتى العواطف الوطنية ،

تكاد تحدد الشكل : فهى تقرر أسلوب الديوان الأخباري التقريري، وتلقى ضوءا على لهجته الخطابية ، ولاغرو ، فالبصير ملتـــزم ، بقصد من وراء النظم الى تعليم الوطنيـــة وتربية الناس عليها أكـــثر من أى شيء آخر .

وكان هذا الأسلوب الطابع السائد في عصره ، فلم تكن الطواعية هى التى تفيض وتتفجر - أولاً . وانما الارادة هى التي تتحكم وتنظم . ولم تكن الصياغـــة هي الرائد الأول ، انمـا المعاني والأغراض والافادة المباشرة فالســـطور واضحــة تعرب عن نفسها لكل قاريء سامع واذا شفعت بمقدمات تأريخية تبين اسباب النظم ودواعيه زال عنهـا كل لبس وغموض .

وهذا - بالطبع - لايمنـع من ان يقـع القاريء على مقطعات غذاهـا الحماس بما يجعلها تتعـــدى الظرف الذي قيلت فيـــه ، وقـــد تستعين - كذلك - بطرافة الحادثة · وســـرد قصصى تقبـــل في اثنائه النثرية .

ونحن اليوم .. نقرأ هذا الشعر .. ونقرأ البركان .. فنجد الخطوط السائدة في الفترة الأولى من النضال الوطني ، نجد مفاهيم الفترة ومشكلاتها ، ونجد الاتحاديين والحلفاء . . والوطنيين والخونة، والاستعمار والاستقلال ، والشرق والغرب .. والمعاهدات .. والمراوغات .. والحرب والسلام .. ونجد المقدمات الأولى لعدد مما هو سائر بيننا اليوم في مثل هذه المصطلحات ... نجد، فنعلم كيف كانت ثورة « العشرين » بداية

صالحة للانتفاضات والثورات التالية لها . ويبهجنا ان نرى ان أبناءنا ـ وهم في عهدهم المبكر في النضال ـ قد تنبهوا إلى أشياء كثيرة تعلى من أقدارهم وأقدارنا .

وقد يستغرب الكثيرون من ابناء اليوم الذين يظنون ان « السلام » والدعوة الى السلام من مخترعاتهم ، ان يفتحوا « البركان » فيقرأوا أول مايقرأون :

ماللسلام مقوض الأركان ماذا أقام قيامة الانسان ؟ !

ثم يسمعون البصير يقول :

أنا لا أحب سوى السلام أوالردى وان جرّ حب السلم للاذعان

ويسمعونه يتساءل عن الحرب وأسبابها ، وعن الفزع واليأس ، وعن هؤلاء الشباب الذين يتساقطون صرعى .. يتساءل تساؤل المنكر المستنكر مما يدل على تمكن الدعوة من فكر صاحبها وعمقها في نفسه !

أيفعل كل هـذا فاعلوه لاحراز السيادة والثراء ؟ !
أليس لهم سوى هذا سبيل إلى ما يشتهون من العلاء
ألا هدمت يد الحدثان عزاً يشاد على رقاب الأبرياء
ولابلغت مآربها نفوس ظوامىء للدموع وللدماء

والدعوة للسلم لاتعني ـ بأية حال ـ وقد أشار إلى ذلك البصير أيضا ـ الخضوع والخنوع و « الاذعان » ... لا ... اذا لجّ المستعمر في ضلاله ، وألح في حبائله ، نهض الشاعر الثائر يستنهض قومه إلى الحرب ـ ولاخلاص من الانجليز وحياهم إلاّ بالحرب :

والله ما ضربوا الاّ على وتر ... وانما الفرق كل الفرق بالنغم
لكن رحى الحرب قد دارت لتطحنهم ... وهـذه فرصة ياشرق فاغتنم
ان كنت لاتهتدي من نارها بسنى ... فسوف تطوي الحشا منها على ضرم
إن وطدوا السلم سدآ في بلادهم ... فقد تمزق في سبل الدّم العرم

* * *

واذا كان البركان سجلا للوطنية والدعوة اليها ، فانه لم يغفل ما تتعرض له مثل هذه الوطنية في كل زمان ومكان من أذى على يد أبناء البلد انفسهم .

ومن غرائب ما حفظ لنا البركان ، هو ما ألمعت اليه قصيدة « صوت الشعب » (ص٣٠) « من قيام بعض وجهاء « الحلة » بحمل سكانها على توقيع عرائض سياسية يطلب فيها تعيين السر برسي كوكس ملكا على العراق ، على ان يكون تحت وصاية انجلترا » - والخبر وحده غاية في سخرية الاقدار ، وسخافة العقول .

وتشتد الخصومة بين الشاعر وبين انصار الاحتلال البريطاني ودعاة الرجعية في الحلة ، فينهض مفتخراً (ص ٣٩) :

.. تقول رجال إنما هو شاعر ... فماذا الذي توحى إليه رغائبه ؟!
ولا وأبي ، لا يحفظ الشعب مجده ... وشاعره جهلا يضاع وكاتبه
وما أنا من يزجى القريض بضاعة ... فتلزمه مدح الكريم مواهبه
بلى كم نطقت الشعر فصلا اقوله ... فيكبره من حنكته تجاربه
وأطلعت في أفق النهى منه حكمة ... فلم يتقدم صادق الفجر كاذبه
وعندي أياد للزمان شكرتها ... وإن عركت بالغمز عودي نوائبه
فأبلغ ما يروى الرّواة لشاعر ... من الشعر ما أملت عليه مصائبه
لى الله كم قارعت دهري فيثني ... وأنيابه مفلولة ومخالبه
كأنيّ في احداثه طود لجة ... تبدد شمل الموج منها مناكبه

وتشتد الخصومة ، فيفخر الشاعر متألماً ، فيدل على انه يجيد الفخر وإن كره ، ويحسه عاطفة وان برىء الى الله منه عقلا .

إن مقدمات من هـذا النوع تجرّ حتما إلى « اعماق السجون » ويعزّي الشاعر نفسه (ص٣٨) ولا ينال السجن منه ، ولا يبلغ به اعداء البلاد مرامهم (ص٧٩) :

قالوا سجنت لرأي كنت تعلنه فاكتم ، فحسبك مالاقيت من غصص
فقلت هيهات : سجني لا يغيرني إن الهزار ليشدو وهو في القفص

ولم يكتم الهزار ، ولم يسكت ، وانما ظل يتأمل حالة بلاده ، ويفكر بالحلول وبالاصلاح ، ويدعو الى التضامن والأخوة العربية الكردية ، والسنية الشيعية ، ويبث الأمل ، ويندد بالغرب ويهدده بصحوة الشرق ، دون أن ينسى أن يسخر من علمه الضار الذي يدله على الحروب وتدمير الربوع وقتل الابرياء (ص٨٩) :

إيه يا غرب كم تذرعت بالعلم الى نيل غاية نكراء
كم شننت الحروب تتلو حروباً وشفعت الارزاء بالارزاء

* * *

كم ربوع باتت وقد سمتها الخسف قبورا فسيحة الأرجاء

ودون أن ينسى السخرية من « ولسن » وخلفاء « ولسن » من ضعفاء واقوياء :

قلت للحق هل وجدت نصيرا قال : اعداي كلهم نصرائي
قلت : قد شدّ « ولسن » لك أزرا قال : إنى بليت بالضعفاء

* * *

قلت : ماذا تقول فيمن يليه قال : تجديد خيبة لرجائي

ويخرج من السجن ، وينفى ، ويعود . . . دون أن يكتم او يسكت .

ويختم الديوان بقصيدة « عهود أم قيود » ! انشدها الشاعر في حفلة افتتاح الحزب الوطني العراقي في ايلول سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وألف :

كم قطعنا باسم العراق عهودا   لم تكن في يديه إلا قيودا

وفيها يخاطب المفاوضين في عقد المعاهدات مع انجلترا ، ويضحك « عليهم » ويسخر منهم ومن عقولهم وضمائرهم : (ص١٢٣) :

. . أتقولون إنها أكرهتنا   فحملنا ما لا نراه سديدا
شكر الله سعيكم ، خبرونا   كم بذلتم في كبحها مجهودا
حدّثونا على البساطة يا قو   م وخلوا الابهام والتعقيدا
أي شيء قالت اريد فهاتوا   فرفضتم وقلتم لن نريدا

* * *

. . وينتهي الديوان ويطمع القاريء المعاصر أن يستزيد من التأريخ الحديث لشعبه ونضاله ، ومن اخبار سرّائه وضرّائه ، ومن سير المخلصين والخائنين . . ولكن الطمع لايستبد بالقاريء كثيراً ، فقد نص الشاعر في المقدّمة على انه منذ سنة ١٩٣٠ انصرف نهائياً عن السياسة والأحزاب .

على ان « البركان » ليس كلّ شعر البصير ، إن هناك ديواناً آخر ما زال مخطوطاً هو « زبد الأمواج » يحتوي على أغلب انواع الشعر المعروفة .

نرجو ان نراه مطبوعاً ، كما نرجو ان نرى دواوين « الثورة » الأخرى من شعر معاصرى » البركان » مما لم يتح له أن يطبع بعد .

كانت لنا أيام

عمر النص ، شاب من خيرة الشعراء المعاصرين ، اكتملت له جوانب الشخصية ، وتهيأت سبل المعرفة ، واستقامت طرائق العيش : تمكن من العربية وأعجب ببحتريها وألف روائعها وله قرابة بجميل بثينة - قد ينكرها . وأجاد الفرنسية وتأثر بقلريها - دون ان ينسى حظه من الانكليزية وله صلة بالرومانتيكية - قد ينكرها ، وزاد على الادب الدكتوراه في الحقوق . وهو إذ - ينظم - يثق بنفسه وبفنه ، ويعمل بتؤدة وصمت ، وينقح ويهذب ، تمده موهبة أصيلة . . . يرسم بها صوراً جديدة هي صور رآها أو تخيلها ؛ ويعرض للنفس الانسانية خلجات جديدة ، هي خلجاته التي عاناها وأعرب عنها باخلاص . ولا يعني التجديد عنده الخروج المطلق على عمود الشعر العربي والانغماس في العبث السهل .

طبع ديوانه « كانت لنا أيام » في بلدته دمشق عام ١٩٥٠ ومر من دون صخب أو لجب ، والديوان قصيدة واحدة في ثماني وعشرين قصيدة تسجل حادثة واحدة : هي تاريخ قلب كريم أحب فسدت « ليلى » عليه كل سبيل :

وكنت اذا لاحت تبلت من الهوى وكدت من البرح الممض تصدع

وكان نصيبه منها مواعيد غائمة وآمالا بخيلة . . . يوسعها ويوسعها حتى يبني على أساسها القصور ويعلق الجنائن . . . فيزهو بحبه هذا الذي ، ملأ حياته ، وبعث عزمته ، وأنار قصده » .

وما هي حتى بات هذا الحب مهدداً ، واضطرب الفتى ، ولم يجد غير قلبه ملاذاً يسائله عن الغد الاسود ، ولم يكن قلبه بأقل حيرة منه . « فلم بانت ؟ ولم أزف النوى ؟ » .

أأجفى بلا ذنب وأترك في العرا   يروعني قر وتنثر زعزع

كان في عز الأمل وغلوائه ، مما ضاعف عليه وقع الفراق ، الفراق الذي سماه « وداعا » كمن يريد أن يغالط نفسه أو يغالط الآخرين . وكانت « ليلى » تفكر ، فاستسلمت للحاكمين ، ولعلها لم تمانع كثيراً فانضوى قلبها تحت أكناف زوج ، واستنام لوازع العرف دون أن يبدي ما يشعر بعزلة شديدة . ولعلها حظرت على الرجل الأول حتى الانين ،

كان ذلك آخريات عام ١٩٤٦ أو في تاريخ يرمز اليه بهذا العام ، كان وكانت عاصفة صاخبة . . .

لا تثر نقمتي ففي كل عرق   ثورة تغتلي ولفح شظايا

ثم نشد الخلاص والسكينة :

جن الظلام وأقفر الدرب   فالى م تدلج أيها القلب

ويتطلع فتحول الدموع دون النجوم :

وأنا الذي زرع النجو   م وقال يا نفس احصدي
شط الخيال ! فلم أجد   غير الدموع على يدي

ثم هدأ وتدبر :

من حلم نبني فيا ليتنا   لم نعرف الحلم ولم نبنه

ولم يمت الحلم ، ولكنه بات جرحاً عميقاً يسيل شعراً حزيناً . . ، مسكيناً . . . تتجدد عليه الغلائل السود .

وهكذا ولد « كانت لنا أيام » مضرجاً . . . في مهد الأسى واليأس ، فلما نطق لم يتكلم عن « الايام » . . ، وإنما عن أعقابها وما خلفت من آلام وحسرات ، ومن أطياف وأشباح ، ومن أخيلة

قد تعلله وصور قد تعزيه ، ومن أمان خائبه وأناث حائرة :

لا تراعي ! تلك دنياي التي مات سناها
وأمحت ألوانها الغر ورثت صفحتاها !
تلك دنياي التي أبدعت بالأمس رؤاها
وسألت النور لا يبرح ، ما عاش ، فضاها
تلك دنياي التي عشت على وهم رقاها
خنقتها يقظة الجرح وسالت في دماها
فاذا بالحلم المبدع قد جف وشاها . . .

نعم ، لقد ملأت الذكرى « الديوان » وشاعت في أرجائه ، ولكنها ذكرى فقط ، أو انها ذكرى الذكرى لانها لا تتكلم على حادث ولا تروي حدثاً ، انها تحمل الصدى ، أما الاصل ، فقد احتفظ به الشاعر لنفسه ، حذراً واعتزازاً ـ ونعما فعل ، والصدى هو المهم ، وهو الذي يهمس فينا ، ثم هو النهج الارقى .

وعمر هذه الذكريات ثلاث سنوات .

ومهما حاول صاحبها الكتمان ـ كتمان « المنى الغافيات » ، استحال عليه ذلك ! ومهما حاول النسيان ـ نسيان « الاحلام المخفقة » غلبه الوجد ، فالتجربة عنيفة ، والجرح عميق ، والشاعرية خصبة ، والدواعي كثيرة ، وفي كل مكان ، فقد يرى « ليلى » حقيقة وهي ما زالت حية تقطن مكانا ما في الشام ، وقد يذكّره بها كل شيء ، هذه الورقة الذابلة ـ مثلاً ، الورقة التي رآها شاحبة فوق التراب ، فحنا عليها وآسى ، لأنه وجد نفسه في عروقها ، ورأي دموعه في عيونها :

أود لو تنبض هذي الشفاه وتستقي ماءك من أدمعي
أود لو اسكب فيك الحياه ويغتذي ضلعك من اضلعي

✡ ✡ ✡

يا ورقتي لم يبق الا الصدى يئن في الافق فهل تسمعين

* * *

والعمر وهم والاماني سراب فكيف تبكين على خضرتك

وما بكت الورقة ولكن عمر بكى ، قالها كمن يعزي نفسه ! وهيهات !

هيهات أن ينسى ، وهناك . . . أفياؤها ؛

انها دارها : فقف أيها القلب . . ، وناد المواجع المكنونة

* * *

عدت ليلاي ! فاقطفي الزنبق الغض وبثي على الطريق غصونه

اي نعم . . . ان كل شيء يعيدها اليه :

كلما غمغم النسيم تذكر ت . . فخلت النداء في آذاني

ثم هناك . . . هناك الاطياف :

طلعت فأورق فيّ الشباب وهدهدت اضلاعى المرهقة

ولم تطلع هي ، ولكن خيالها . . . طلع لسبب . . . قد يكون تافهاً ، وقد يكون لغير سبب . . . طلع فاذا كل شيء جديد ، وكأنها أمامه ، هي نفسها عينها . . . يتوسل اليها ويبثها ، ويخبرها عن البرحاء وعن آثار اسمها في خاطره وفمه وفؤاده :

ولو انني اسطعت بعث الحياة وجدت بأنفاسي الريقة

وجئت اليك أشق الغيوم وأصدح بالغنوة المشرقة

وتختلط عليه الامور ، ويلتبس الوجود بالعدم :

أأنا يا ليل ! أم هذا خيال الذكريات

يبعث الأمس الذى مر ، ويذكى خفقاتي !

والمنى البيض على كفيّ أشلاء رفات

ينقل الدهر عليها خطوات حذرات

كلما مر بها . . . مر بخوف وأناة
نازفاً فـــوق بقـاياها أضاليل حياتي !

وما أسرع ما تتخاذل عروق هـذا الذي أراد أن ينسى ، وأراد أن يصدح بالغنوة المشرقة . . . فكم يحرص ، وكم يخاف :

أخاف من السنين تفل بأسى   وتوهن مرتي وتشل زندي
وأفرق ، أن سلوت ، ذهاب حلم   وقفت عليه أشواقي وودي !

تريدها أن تبقى . . لأنها كل ما بقى لك في الوجود ، ولأنك قد وقفت على هذا الحلم اشواقك ورسمت بدمعك معالمه :

وما الكون ان أنا أنسيتها   وما انا . . . ان كنت لا اذكـر

ثم ماذا ؟

لقد آدك الحمل . . ودنت الشيخوخة المبكرة تهددك بالوحشـــة وتنذرك بخريف العمر ، وما لك من سند غير الذكريات :

دعي لي الذكريات ! فكيف أحيا   اذا أفل الشباب وكنت وحدي !

عندما يعيش الانسان مع الذكريات ، فكأنه يعيش مع انسان . . . يحادثه ويحاوره فلا يشعر بالوحدة - والوحدة ضرب من الفناء . ويكاد الشعور بالهرم يبعث صاحبه على البحث عن « ليلى » جديدة ، ولكن الوهم الاول سيظل حقيقته الكبرى ،

وإنا للديوان الثاني لمنتظرون (١) .

المعلم الجديد - حزيران ١٩٥٨

---

(١) كتبت هذه الكلمه في صيف سنة ١٩٥٦

وأنت تقرأ (هواجس نفس)

كانت مجلة « المعلم الجديد قد رحبت بقصيدة « هواجس نفس » التي بعث بها السيد عبد الله خضر المهدى فنشرتها في عددها الاول من مجلدها التاسع عشر (شباط ١٩٥٦) ، لما لمست فيها من شاعرية وفن ... وجدة مع تمكن من القديم : ـ

سجى الليل الاعواء بعيد   ورقاص ساعتى الساهر ...

ثم أصالة وثقة بالنفس وبراعة في مزج الفكر بالعاطفة بحيث تتحد في تأملات لايثقلها العقل : ـ

سأضحك مني وأطوى الانين   وأنصب صدرى لريح العدم ..

وتتلو الصورة منها الاخرى منبثقة من دنيا نفس تحتشد فيها الهواجس ، وقلب لايستقر به القرار .

تبحث هذه النفس عن الحقيقة أو عن الخير ـ ان شئت ، لانها قد تبلغ السر أو تكاد ولكنها لاتلبث حتى تنفر كمن يخشى ان تكون الاشباح واقعا و « وحشة القبر » وجودا ـ وفي الدنيا « ربيع » قد « ينثر ألوانه » الزاهية على المغالق الموحشة ، ونور قد يدق أبواب هذه الموحشات و « جنح الليل معتكر » ...

هواجس هذا الشاعر من نفسه ، وهي الرسيسة في مكونات شخصيته ، وهي التي تهبه هذه القصائد ذات الستائر الرمادية . وبعد ان يطول التوجس ويستوى الوجود والعدم تبدأ هذه النفس تبحث لها عن مخرج أجدى ، وذلك من حقها ، فهي مازالت شابة ، وليس « الهوى العدو » بمستطيع ان يسد كل المنافذ ، وبحث النفس عن المخارج

طبيعى وانها لواجدة في العقل المجرب أيدا وسندا ومنهضا وحاديا : ـ

هبوبا هبوبا مع العاصفات ... مع الجاثمات رحاب الفضاء
وحشدا لهذى المنى الظامئات ... ونشرا جديدا لهذا اللواء
وسحا مع الديم الهاميات ... ليورق عزمى ويحيا الرجا
ويأخذ عنى نشيد الحياة ... مقيم النجوم وسيارهاء

لقد ألفت هذه النفس هذه النجوم ولكنها تريد ان تطلع عليها اليوم بثوب جديد تتخلله الاشعة ، ويحتويه الوميض ، وأخذت هذه النجوم عن تلك النفس أناشيد عديدة ولكنها ستأخذ ، منذ الآن ، أناشيد الحياة أناشيد العزم والرجاء ...

هكذا يخيل للشاعر وهكذا يخيل للقارىء ، فيستريحان ويطربان الى هذا المرسى الجميل الذي بلغاه بعد طول الاين والنكد ، فيهنىء احدهما الآخر متمنيا طول الاقامة وطيبها ـ وهيهات ... فما هو الا خيال اسهم العقل البطر في عمله ، لان الهواجس هى الغالبة وهى الاصل ، أما الاستقرار فطارىء يندس كلما نامت النواطير فاذا « بالهواجس » التي تنشرها « المعلم الجديد » اليوم ، اخت الهواجس التى نشرتها أمس ، وقد نمت وترعرعت وتميزت سماتها وبدت اسبابها وقد ساء هذه النفس ان « تحيا طليقة حياة الاسير » و « للحق في الناس شتى الصور » وآلمها ان ترى « تساقط أيامها الذابلات » فأنفت ان تستنيم الوهم وسخرت من العقل حتى جرته الى ساحتها : ـ

ولست من السائمات البقر ... عدمن النهى او عدمن البصر
سواء عليها طريق النجاة ... ودرب تولاه جزارها

جرته واقنعته حتى تطوع فتولى القيادة : ـ « عفا الله عنى لقد رابنى » ثم لم يلبث ان انضوى هو نفسه تحت اللواء ، وقد رأينا العامل في هذه العودة ، توقد حس غريب الصورة « وأيسر همى أنى بشر »

ولاول مـرة نرى « البشر » مكان « الشاعر » ويكاد يلتبس الامر لولا « الحجر والبقر » : ـ

شربت من الوهم حتى ارتويت ونلت من الهم حتى اكتفيت
ولاويت دهرى حتى التويت فما أنـا حى وما أنا ميت
وتجنى القرود ورودا رأيت ومجناي شوك ، فماذا جنيت !

ما جدوى التميز اذا كانت هذه « البشرية » عشواء تجنى ورودها القرود !

وفي هـذه « الورود » يمكن ان نلمح سببا لحزن الشاعر ، ومن وراء هذه الورود يمكن ان نتصور العامل الشخصى للنظم والتظلم ... وفي القرود أيد لما نلمح وسند لما نتصور ، ومن خلق القرود ، أنها تستطيع ان تتسلق وتصل ، ومن خلقها وخلق اعوانها « الحقد الموغر الشرير » الرخيص : ـ

... يسير وأيامه تقصر يؤم على الدرب أهل القبور
ودنياه من حقده أصغر وقد ضاق عنه مداها القصير ..

ولم يطل الشاعر وقوفه عند « الورود » و « القرود » وكأنه يريد ان يحتفظ بالتفصيلات لنفسه او ان يدخرها لفرصة اخرى ـ وحسنا فعل ، ولنرحل معه ... وقد عمم الخاص وذلك من بعض شؤون الطبيعة الانسانية ، فكيف بها وقد وجدت في حاضر المجتمعات وماضيها ما يؤيدها ويقويهـا : ـ

... وما الذئب في غلس يرتمى باغدر من لا بسين البرود
ومن عاث في الزمن الاقدم يعيث بهذا الزمان الجديد

ان في هذه « الخطوب » الجسام وما يكتنفها من « سعير الطباع » و «مهازل الايام» مايكفى وحده ان يكون سببا في بعث النفوس المرهفة

على التشاؤم ، ولم يرد شاعرنا ان يتكلم على لسان الدنيا ولم يدع إلى صلاح سبل العيش فما هى الا وقفة قصـــيرة ارتدى على أثرها « الصوف » وانطوى مـع السابقين الذين لواهم الدهر « فـابتعدوا عن بنى آدم » ، متغربين عن « زحام العبيد » ، ان نفوسهم لاتقوى على هذا الخصام التـافه لاتطيق ان تتشبث بـالابهة الزائفـة ، وكم تتمنى ان تكون من « الآبدات » « رعين الضحى آمن جارها » ... انطوى وانطووا محتفظين بشرفهم وصفائهم ونقائهم ... لقد زهدوا في الدنيا وعافوا مواردها : ـ

كما اغتربت في الخضم البعيد　　　بزرق المحيطات أحدى الجزر

توحش فيها النبات المديـــد　　　وغسله في السماء القمـــر

فما أحلى العزلة وما أطيب هذا النبات المتوحش، ما أبدعه صباحاً! وما أبدعه مساءا. ان المرء ليحس بسيادة وانه ليحب كل شيء في جزيرته ـ احدى الجزر ، يحبه ويحنو عليه ويحرص عليـه من ان تمتـد اليه « الزائفات » ... ، وتدنسه أوضار المدن .

ولم يلجأ « المهدى » في تصوفه الى الربط والصوامع، ولم ؟ وهناك « جانب الشط » ... الطبيعة ابهى وأطيب ... وهى مثار ذكريـات عذاب ... ومبعث آمال جدد : ـ

.. وأصعد في الشرق نجم حبيب　　فعدت وبى نشوات عذاب ..

وفي مثل هذا مـا يعيده الى الحيـاة ناسيا او مسامحـا . أتراه يقيم على الامل ؟ نرجو ان نرى الجواب في « المعلم الجديد » أو في « الديوان العتيد » ... وأهم من ذاك ان نرى شاعرنا يسير من حسن الى أحسن وله من حسه المرهف وتجربته وثقافته ... وثقته الصامته ... خـــير معين ...

قصائد من القلب

هذا شاعر يضرب في ديوانه الاول(١) على وترين ضرباً هادئا يكاد يكون همساً ؛ وتكاد الملامسة تقع على الملامسة والوتر يلتصق بالوتر : حب كل الناس ، الغناء من اجل الجميع ، من اجل اليوم وفجر الغد ، وبسبب ما يعترى البلاد وما يجب ان لا يكون . . وما يجب ان يكون . . .

اصدقائي . .

عندما تورق في الأرض دمائي ،

زهرات لون حي ،

لون قلبي

عطرها البحر ،

وطعم الخبز ،

امواج الضياء

فاضفروا منها اكاليل لشعبي (ص٥)

وقد تكون المعاني معروفة والصور مألوفة ، قد تكون ، ولكن الروح التي تطل من ورائها جديرة بالاحترام ، والتواضع الذي تومىء اليه حقيق بالسمو . . والاصغاء .

انه شاعر ذو رسالة يعمل على انقاذ شعبه من الشقاء وعلى اعداده لمستقبل سعيد . .

---

(١) الجبوري (سلمان) ـ قصائد من القلب، بغداد (مطبعه اتحاد الادباء العراقبين) ١٩٦٢ .

ان لم اهب للناس

اعصابي وحرفي . .

إن لم اهبها

يا جماهير ازدريني

* * *

شعبنا المنسى في صمت الجنوب

حرفنا يفتح قلبه

حرفنا يفتح دربه

ثم . .

حب بعينه ، لم نتبينه ولم نعرفه ، ولم يرد الشاعر ان يبينه ويصرح به فكأنه شيء خاص به لا شأن للناس به ، وما شأن الناس بمن كانت ؟ ومن تكون ؟ ومن هي ؟ . . يقول انها جنوبية فهل هى كذلك ؟

المهم انها اعقبت في النفس اسى ومسحة حزن . وانها تركت شاعرها يعاني الوحدة ، وانه ليرسل صوته دون جواب - ودون طمع بجواب :

عينان . .

ودمعتان تحبوان . . باتئاد ، .

ووجها الحزين شاحب ،

رماد

يريد ان يقول والصراع

يدب في خطوطه ، فيسحق الثوان

ويربط اللسان

يريد ان يقولها . . وداع ! . .
ويسحق الضمير والفؤاد

* * *

أليس كل الناس يعشقون ؟
ويشعلون قلبهم شموع ؟
صغيرة ، تنير درب حبهم ،
ونــار
أليس كل الناس يجهلون
ما قيمة الفراق والدموع ؟
إذن لماذا أحمل الغرام
براحتي دونما حياه
كجثة باردة . . رماد ؟ . .
اكان كل ذلك الوداد
كما اراه ،
ـ دونما حياة ـ
براحتي بارداً . . ركام ؟ . .

* * *

اقيم في فؤادي الحزين
هياكلا تصنعها يدان
تمجدان ساعة الوداع ،
والدموع . .
وتكيان في خشوع :
عينان
ودمعتان تحبوان . . باتئاد . .

ووجهها الحزين شاحب ،

رمـاد

ويجري في عروق القصيدة نسغ من الحياة ، هو مـــدار التجربة التي عاناها وسيب الدمع الذى سكبه لدى وداع حبيبة محبة ، فكان حداً فاصلا في وجوده ، وجود شاعر لم يكن من الحقد بحيث يصب على الوداع لعناته ، انما كان واياه على نمط يمكن ان نصفه بالراقي ، فقد جعـــله لونا من مجد ، وهذا اكثر من طريف ، ورمز الى ان العلاقة كانت اكبر من جسد وان قلبه اوسع من عضل وخلقه اهدأ مما يعقب العاصفة ، أو انه يبدو كذلك ، اما في سره فيقتات على الم ويأس :

الارض في عينيك كالحة حزينه

وخطاك تفترس التراب . . بلا انتهاء

كالبحر تعبره سفينة

ظلت تجوب مرافيء الاحزان . . مطفأة الشراع

كثيراً ما سمى الناقدون هـــذا رومانتيكية ، ولكن هـــذه الكلمة فقدت كثيراً من دلالاتها واجترتها الالسن حتى عادت حروفاً جـــوفاء ملطخة بشوائب وغرائب ـ فلن اقولها .

والشاعر في حبيبه صادق غير مدع ، ولا يهمه ان يصـــدقه الناس ولا يريد ان يتيه عليهم . فكأن الامر طبيعي ولا داعي للبرهنة والاختيال .

ومن كان كذلك لم يبالغ في آلامـه وآماله الوطنيـــة ولم يغل في حديثه عن لوعته في حبه .

انما يزجي الكلام ســـهلا مشرقاً ، ناصعاً تزينه صـــورة هناك

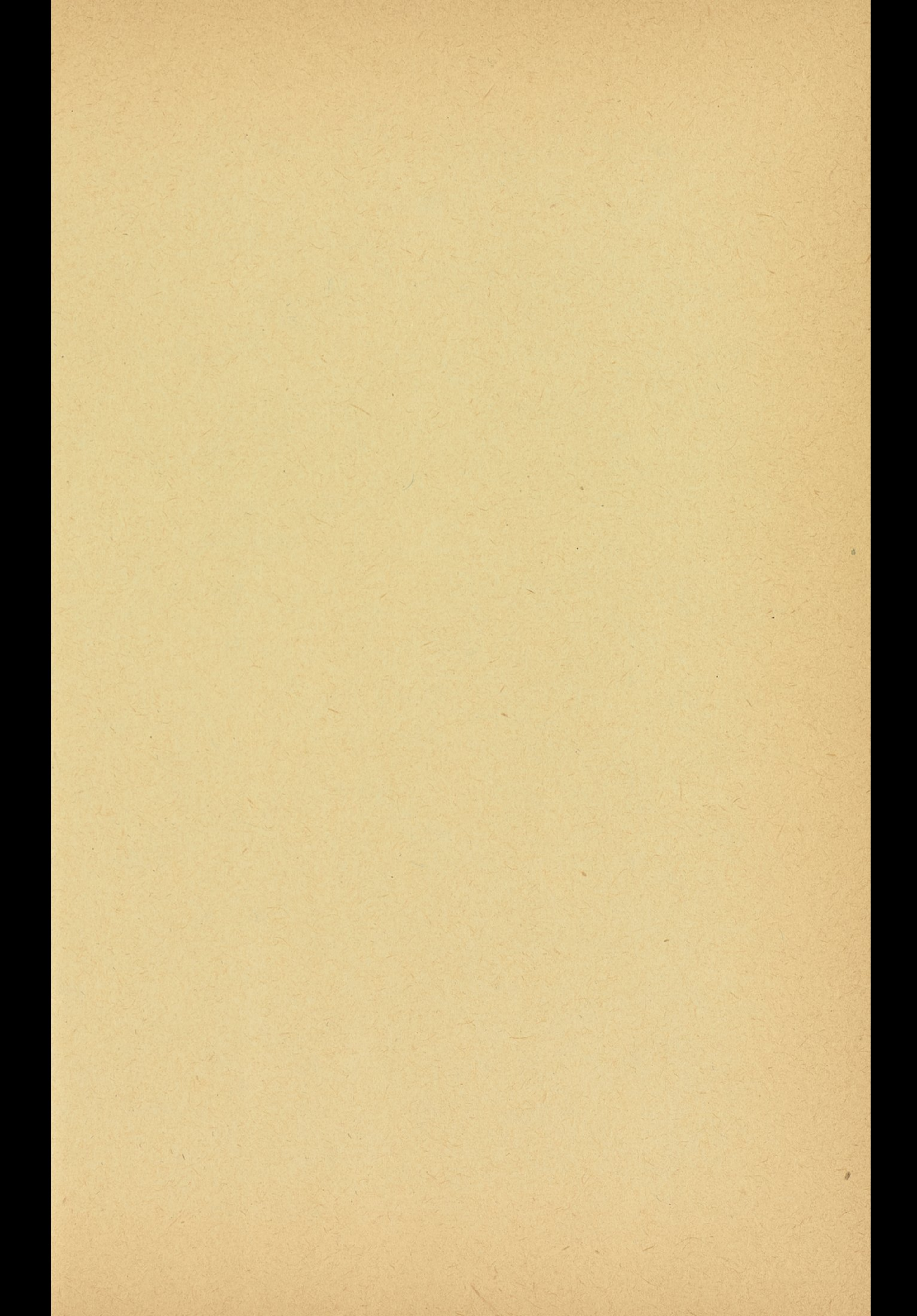
واستعارة هناك باناة وتؤدة ، وايقاع وهمس ، وغير قليل من الترف - ومن كان كذلك نزه اسلوبه عن الجفاف وابتعد به عن الخطابة ، وارتفع عن الشعارات . أنه امرؤ يحترم نفسه ويحترم فنه واذا رأيت بين الحين والحين شيئاً من النثرية ، وشيئاً من السطحية ، ومتابعة لسعدي أو لبدر... أو اشياء اخرى من هذا القبيل فلأن هذا هو الديوان الاول .

والمفروض بالديوان الثاني ان يكون اكثر عمقاً واكثر اصالة واوصل بالقلب وابقى في النفس .

هذا هو المفروض والمنتظر وان كان الشاعر لم يدل - في قصائده - بين ١٩٥٨ ، ١٩٦٢ على تطور كبير .

فلننتظر التطور في الديوان المقبل ، فان الموهبة التي خلقت - قصائد من القلب - ليست سحابة صيف .

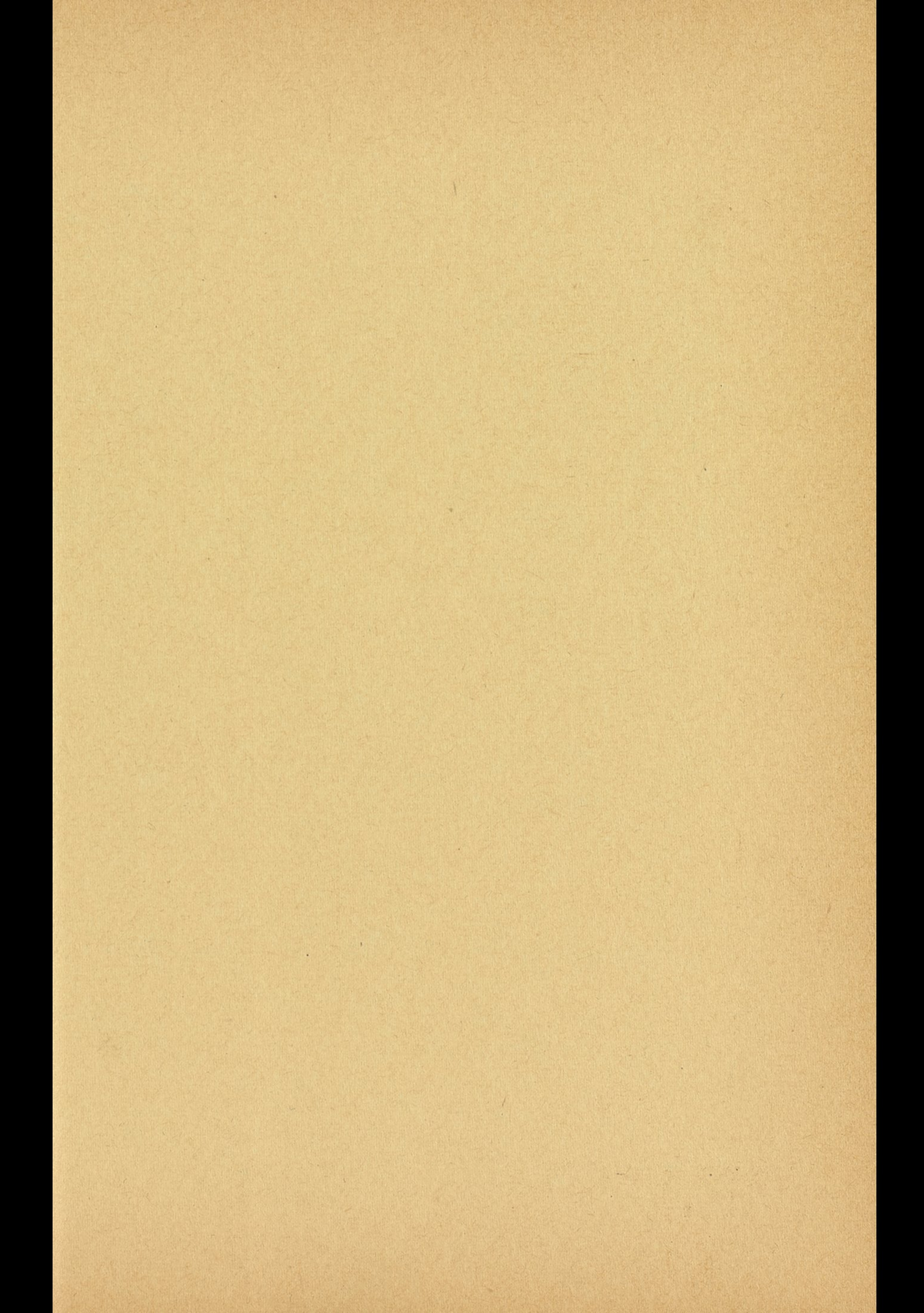
صوت الاحرار - ١٩ حزيران ١٩٦٢



(٣)

تعريف بكتب ..

نخبة



محاضرات في النقد الادبي

تأليف الدكتورة سهير القلماوي القاهرة (مطبعة دارالهنا) ١٩٥٥

كان من حسنات معهد الدراسات العليا بالجامعة العربية أن دعا أستاذة فاضلة لتحاضر في موضوع - رغم - خطره المتزايد وبسبب هذا الخطر المتزايد - كاد يصبح لعبة بيد فلان وفلان . وقد أتم المعهد فضله فنشر هذه المحاضرات ضمن سلسلته التي احتلت مكانها من المكتبة العربية .

لقد أفاد المعهد وأفدنا من هذه الكراسة ذات الموضوعات الخمسة (النقد الادبي الحديث ص ٥ - ١٣ ، الناقد ص ١٤ - ٣١ ، المؤلف ص ٣٢-٥٣، النص ص ٥٤ - ٧١ ، القيم والميزان ص ٧٢ - ٨٥) التي عرضت بوضوح واشراق وتؤدة خلاصة لتدريس غير قصير ، وزبدة لمطالعات نابهة في أكثر من لغة ، وعلى اكثر من صعيد . ولا غرو فما كانت الدكتورة الفاضلة دخيلة على الموضوع ، ولا جديدة عهد به ، وكان بامكانها أن تؤلف مذ عام ١٩٤٧ وقبله ... تؤلف ... وتطبع ... وتعيد الطبع - لو شاءت . والقلماوي قديرة فيما تكتب ، لانها - كما يقول أهل التربية الحديثة - أستاذة نامية ، لا تقف عند عدد محدود من الكتب والاراء تعيد فيه وتبدي ، انها تتابع تطور النقد الادبي في كل مراحلة - خيرها وشرها ، نجح أم لم ينجح ، قديما وحديثا . وهي اذ تقرأ الغرب لاتنسى تراث العرب والاسلام ، وقد نبهت (ص ٥١ ، ٦٢) لدراسة الوحي والكلمات المتشابهة من زوايا غفل عنها كثير من الباحثين - حتى الذين تجردوا للتأليف في تطور النقد الادبي عند العرب .

من أول ما عنيت به الدكتورة القلماوي في كتابها ، هو تمهيد الطريق وتحديد الموضوع ، و « ان النقد الادبي كثيرا مايختلط بـ ... تاريخ الادب» واننا نجهل المدلول الدقيق للنقد وهو يعالج النص والنصوص ، ونجهل صلته بعد ذلك بالادب المقارن . واذا ما اتضحت السـبل ـ أو كادت . حدثتنا عن مهمة الناقد (ص ١٤ ـ ١٨) بين التحليل والحكم . ولكن من هو الناقد ؟ الجمهور أم المحترفون (ص ١٩ ـ ٢٣) ؟ وكثيرا ما دعا الكاتبون ـ وتوفيق الحكيم منهم ـ الناقد لان يتجرد عن الهوى (ص ٢٧ ـ ٢٨) ولهم حق في ذلك ، ولكن الاستاذة سهير تؤمن بأنك « اذا أردت أن تطاع ، فمر بما يستطاع » وتقول : « أنستطيع أن نطالب الناقد ألا يتقيد بذوقه الخاص ؟ ... » ان « كل ما يمكن أن نطالب به الناقد ... هو أن يتجرد عن الهوى الذي تمليه عليه أشياء أجنبية عن الفن ... » وفي هذه الاقوال حكمة ، وخبرة بطبيعة الاشياء . وخلاصة لمناقشات طويلة .

والمؤلف ، مؤلف النص الادبي ، من الموضوعات التي أكثر النقد الادبي الكلام فيها ، وغايته الاولى في ذلك التعرف على النص وجدته ، ولكن الذي حدث أن خرجت هذه الدراسات الى ميادين أخرى كالتاريخ وعلم النفس وربما الطب أيضا (ص ٣٢) . ولولا الحذر الذي يغلب على المحاضرة الفاضلة للاحظت أن هذه « الغاية » استحالت أحيانا شططا وبلادة وأصبحت غاية بنفسها لا تتذكر السبب الذي وجدت من أجله (تنظر ص ٣٦ ـ ٣٧) .

وقد تصدى للكلام على العوامل المؤثرة في الفنان ، سنت بيف الذي يعزو العامل الاول الى احداث حياة الشـاعر الخاصة ، وتين صاحب « الزمان والمكان والجنس » ، وقد كتب هذان العلمان كثيرا وكتب عنهما كثيرا ولقيت نظرياتهما ـ فيما لقيت ـ من التفنيد ، في فرنسا في غير فرنسا ، وقد

سمعنا بشيء من ذلك ولكن الدكتورة سهير تريد أن تثبت في كتابها « الرد على الرد » فتقول « لاتين ولا سنت بيف كانا من هذه السذاجة بشيء ص ٤٢ » وأخشى أن تكون سورة الدفاع قد حملتها بعيدا . ثم تترك سنت بيف وتين وتستعرض آراء جوردان - الكاتب المعاصر - عن أثر « النظام » ، النظام الثقافي كله لعصر من العصور في النص الادبى . وقد لاحظت — ولاحظنا — أن في هذه النظرية كثيراً من الغموض والابهام .

ومما تقتضيه دراسة الاديب المنشىء ، « محاولة » معرفة « عملية الابداع الفنى ص ٤٦ » وصلة الوحي بها ، وعرض لبعض البحوث المهمة فيه مثل كتاب الآنسة هاردنج وتعرض للفرق بين قصد الشاعر وقصد القصيدة : أقول « محاولة » ، لان هذا « العلم » من هذا الميدان يبقى محاولة مهما بلغ من العمر أو يبلغ . وليس غريباً أن نقرأ في ختام هذا الفصل (ص ٥٣) انه « مهما تكن قيمة هذا الكلام الذي يقوله الشعراء عن أنفسهم ومهما يتقاص الميدان أمام البحث العلمي ، فالذي لا شك فيه أن مناطق أو مراحل هذه العملية لا يمكن الا أن تظل غامضة ، لانها لابد أن تعتمد على شيء شاذ عبقري هو السر الفني .. » .

اذن لنتركه نحن ونتكلم على النص ، روح النقد وجوهره ، وليس عجيباً أن يسير النقد الحديث « نحو تمجيد النص الادبي وحصر الجهود حوله حتى أصبح النص شيئاً شبه مقدس . . . يستأثر بكل انتباه الناقد ودراسته » ولا سيما بعد الذي أفسدته « النظريات الاجتماعية والنفسية والتاريخية » مما أدى الى صيحة فلوبير وغير فلوبير (ص ٤٤) . وموضوع دراسة النص واسع جداً ، وقد عنيت السيدة المؤلفة بنقاط مهمة ، عالجتها من زوايا قل أن ينظر منها عندنا ، فقد تكلمت في « الاداة » (ص ٥٤ —

٦٦) : فالكلمة صوت ، والكلمة لا توجد مفردة ، واذن فالموسيقى والاوزان والايقاع الداخلي من أسس النص . هذه الاداة صوت له دلاله ، فما دخل هذه الدلالة بالايحاء الموسيقى ؟ وما هو الخيال الصوتي الذي يدعو اليه اليوت ؟ وما علاقة الجرس بالمعنى ؟ ثم شيء عن الدلاله في الحقيقة والمجاز والكلمة المركبة والتشبيه والخيال ، ومن النقاد الكبار من عرف الفن الادبى بأنه « لغة الخيال » ، « ولا ننسى أبداً ، أننا في دراسة الخيال لا نعني بالصورة من حيث هي . . . وانما . . . الطـاقة الايحائية . . . ص ٦٥ » . وخلاصة القول في الاداة هي أن « ميدان الشاعر ليس هو اللفظ من حيث انه صوت أو أصوات أصطلح على على معناها ؛ وانما مجالاته في تركيب هذه الاصوت بحيث تنسجم وتتوافق انسجاماً وتوافقاً لا يأتي من طبيعة اللفظ ولا يخضع لقواعد (الا العامل الشامل منها) . كما أن مجالاته في ارتباطات هذه المعاني بعد ترك هذا الذي اصطلح عليه ، جانباً ، لانه لا مجال لابداع الفن فيه ص ٦٥ » .

ان لدراسة النص هذه صلة « بالانواع الادبية » (ص ٦٦ ـ ٧١) وقد مست المؤلفة هذه الصلة مساً خفيفاً وسريعاً ، وتساءلت عن مدى تحكم النوع بالمضمون أى تحكم الشكل بالمادة الفنية ، وعن أشياء أخرى لم تلبث أن عرضت اثرها تقسيم أرسطو الشعر الى غناء وملاحم ومسرحيات وما لقيته هذه التقسيمات من سلطان حينا وتمرد حينا آخر ، ولئن وجد من الغربيين من درس الانواع الادبية حسب نظرية داروين فان ذلك مما يصعب تطبيقه في الادب العربي .

يسود طابع السرعة هذا ، في الفصل الاخير من الكتاب الذي عالج « القيم والميزان » وعرض لما كان بين ارسطو وافلاطون ثم . . . الميزان الرومانسي ثم الميزان الخلقي ثم الجمالي الذي يعتمد أصحابه « على النص

مجرداً الى حد بعيد من حال المؤلف النفسية وحال الناقد النفسية ما أمكن » انهم « يدرسون النص من حيث الكشف عن مواطن الجمال فيه التي تنطبق على المقاييس الجمالية الصرفة : الانسجام ، التوافق ، الترابط ثم الاخيلة والصور ثم الالفاظ والموسيقى » . ولا شك في أن هذا كلام يكتنفه الغموض وربما ازداد غموضاً وفوضى » كلما بولغ في توضيحه وفلسفته . وكما حال ضيق الوقت (ص ٨٤) عن تبيين المذهب الجمالي ، فقد حال دون الكلام على عودة النقد الحديث الى الميزان الخلقي .

ينتهي الكتاب ، الكتاب الجامعي ، وكنا ننتظر أن ينطوي على قائمة تفصيلية بالمصادر التى اعتمدتها المؤلفة ، وائن ذكر الكثير من هذه الكتب خلال البحث فانها وردت مقتضبة وغير مصحوبة بالحرف اللاتيني الذي يعين على البحث عنها أو مراجعتها أو تلفظها ـ على الاقل ، فكيف يبحث مثلا ، طالب لم يسمع بـ Richards اذا رآه على شكل رتشارد وما زلنا مختلفين في كتابة الـ Ch ، ومثل ذلك قل في « جيون » و « ركاردو » . ثم أن أحد الطلبة قرأ رأى اليوت في « الخيال الصوتي ص ٩٥ » وأعجب به وأراد أن يستقصيه فأين يجده ؟ أفي مجلة أم في جريدة أم كتاب ؟ ان المؤلفة تعلم جيدا أنه لم يتهيأ لتلاميذنا وقرائنا الوقوف على كل هذه الاسماء من قبل ، وان ذكرها في الكتاب على الشكل العابر ، لا يؤدي الغاية المتوخاة في بعث طلابنا على البحث والرجوع الى الاصل ، ان ما نقوله لهم بلغتنا العربية لا يعدوا أن يكون تمهيدا ـ هو قليل جدا من كثير جدا ، ولابد من التسلح بلغة أجنبية لمن أراد أن ينهل من المنبع . ان هذه اللغة الاجنبية ـ ولنستطرد

قليلا - تعلمه أن الكثير مما تمشدق به - من آراء يعتبرها شخصية ويتصورها مبتكرة ... لا يزيد على أن يكون آراء شباب . ان الالمام بثمار الغرب يوفر عليه كثيرا من الغرور وكثيرا من الأتعاب .

اننا لم نطالب الدكتورة المحترمة أن تكون صاحبة نظرية أو نظريات في النقد الادبي ، وهي أجل من ان تدعي ذلك ، ولكنها أجادت الفهم وأحسنت التفهيم وتلك أهم واجبات من يتصدى الموضوع من الموضوعات التعليمية . ان السيدة القلماوي محاضرة ومدرسة وليست فيلسوفة ، وغاية التدريس - رضينا أم أبينا - أن تقدم المعارف بوضوح واتساق يدلان على تمكنك من فهمها وسهرك على حذقها ، وهذا ما توفر بنجاح في الكتاب الذي نحن بصدده . واذا جهل الطلاب والمدرسون هذه الحقيقة فانهم يصبحون - في لحظات - فلاسفة كبارا ويكفي أن يردد الواحد منهم عددا من الآراء التي لا يعيها والمصطلحات التي لا يفقهها والاسماء التي لا يعلمها . وهنا يصبح النقد الادبي - كما هو اليوم - خطرا على الفكر وآفة في الضمير . أجل ، ولكن ذلك لا يمنع أبدا - كما فعلت الاستاذة المؤلفة فعلقت - وهي تستعرض آراء الآخرين تعليقا شخصيا هو ثمرة تتبعها الخاص . وقد عرفنا مثلا أنها من انصار النص . ولم يظهر هذا الحماس في الفصل الذي عقدته عليه حسب ، انما لمسناه هنا وهناك على مختلف الصفحات الاخرى ، ومن الصعب فصل مواضيع النقد الادبي (ص ٧) . وعندى أن « نصيتها » تبدوا على أو ضحها فيما عرضته المدفاع عن سنت بيف وتين (ص ٤٠ - ٤١) . ولكنها ، كأغلب ، « النصيين » ، خصت ما حول النص بأكبر عدد من الصفحات - وهي تعلم يقينا أن ذلك لم يكن في صميم النقد وانما هي محاولات ... فاشلة . ثم انها . كأغلب النصيين تبرر (ص ٨٤) هذا الجهد المبذول بأنه « فشل لابد منه ولعله فشل خير

من النجاح » ! وقد قالت المحاضرة مرة (ص ٦ وهي الصفحة الاولى من الكتاب) : « لنبدأ بالكلام عن نص معين ... ولناخذ مثلا قصيدة حافظ ... ، رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... ! » ومن سمع قولها وانتظر دراسة نصية للقصيدة ، كان مخطئا في انتظاره . وكم من فرصة مثلها عرضت ، فمرت وكأن لم تكن . ان الذي يلوح لي - على كل حال - أن الطابع النظرى الفلسفي هو العنصر السائد في تكوين السيدة الفاضلة وبناء عقليتها .

وفي الكتاب بعد ذلك هنات هنات ، مرد أكثرها الطباعة أو ضيق الوقت ، ومن تلك ، نسبة « السيد » (ص ١٧) لموليير ، والمؤلفة تعلم (ص ٢٢) أنها لكورني ثم هناك اضطراب في نظام الفوارز (ص ٣٣ ، ٤٨) وكتابة همزة ان (٧ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٦٥ ؛ ١٤ ، ٢٩ ، ٥٠ ، ١٨ ، ٥٢) وهمزة القطع (ص ١٨) . أما الجمع بين قد ولا (ص ٤٨) وبين أل واسم التفضيل ومن (ص ٤٨ ، ٦٥) وما الى ذلك مثل « هاما ص ٣٦ » فما لايقبله الصرفيون واللغويون . وربما جرت طبيعة أسلوب المحاضرات وجر التأثر بالعبارة الاجنبية الى شيء يتصوره القارىء تناقضا « ص ٤٨ هاردنج والوحي » وغموضا « ص ٦٥ » والى شيء من الوهن في تركيب عدد من الجمل مثل « ولكننا لاشك نسأل سؤالا جوهريا ... ص ٣٣ » ومثل « ولكن أحداث حياة الشاعر ما دامت يمكن أن تكون ... ص ٣٥ » ومثل « وقد يتكلم عن هذا ثانويا في باب الاخراج اذا تكلم عنه أصلا ... ص ٨٢ » « اذن فالموضوع ليس يدخل ... ٨٢ » .

ان هذه الملاحظات الا « تواقة » بالاضافة الى ما للكتاب من قيمة والى ما لاسلوبه من سلامة ووضوح والى ما نعرفه في الاستاذة الكريمة من فضل . كم نتمنى لو استطاع معهد الدراسات العليا أن يصل الدعوة بالدعوة

فيحفز الدكتورة القلماوي الى جزء ثان تفصل فيه ما أوجزته من نقاط كالاداة مثلا وتزيد عليه فصولا أخرى ضرورية لاستكمال جوانب البحث .

وكم نرجو من المؤلفة - المحاضرة أن تبر بوعدها «ص ٧٨ ، ٨٥ » فتخرج لنا كتابها العتيد في القيم والميزان . وكم نأمل أن يكون كتابها « المحاكاة» الذي أصدرته عام ١٩٥٣ ، الحلقة الاولى من سلسلة طويلة وعميقة في « فن الادب » . الا ان الدكتورة سهير القلماوي من خير من ألف باللغة العربية في الموضوعات الغربية للنقد الادبي . واذ نقول « من خير » فانما نفكر - أول ما نفكر - بالدكتور محمد مندور صاحب الآثار التي يطمأن الى سلامتها في هذا الباب (١) .

الاستاذ ١٩٥٦

---

(١) اجتذب « معهد الدراسات » الدكتور مندرو وأعاده الى النقد الادبي بعد غياب سياسي ، وكان من آثاره « محاضرات في الادب ومذاهبه » - القاهرة ١٩٥٥ . واذا كان طرق موضوع المذاهب - قبل ذلك في كتابه « في الادب والنقد » الذي طبع عام ١٩٤٩ ، واعيد طبعه عام ١٩٥٥ . فان في كلامه الجديد افادات واضافات ، وأما كلامه على « الادب » فهو فصل كنا ننتظره ، وطالما افتقدناه في كتبه السابقة لانه تمهيد طبيعي للنقد وهو بهذا متمم لكتاب الدكتورة القلماوي . ولعل الدكتور مندوراً يذكر - عند اعادة طبع كتبه - ثبتا بالمراجع التي اعتمدها .

الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي

تأليف الدكتور يوسف خليف ـ دار المعارف ، مكتبة الدراسات الأدبية ٨ / القاهرة ١٩٥٩

منذ سنوات والباحثون يشعرون بضرورة دراسة الادب العربي ، والمجتمع العربي ، والتاريخ العربي على غير النهج المألوف ، وبغير الروح التي أصبحت جامدة لا تحيد عن خط محدود . فأرادوا أن يوسعوا دائرة البحث لتعنى بما لم يعن به التاريخ ، وبمن عاشوا في زاوية وماتوا في زاويتهم مع عظم دلالة وجودهم .

فليس من المعقول مثلا ، أن يكون العصر الجاهلي ، شيوخ القبائل ، وشيوخ الشعراء . . فلابد من ان يكون من الناس من كان يمون المجتمع ويقيم أوده ، ولابد من أن تكون هناك مجموعات لم يكن ليؤبه بها ، لكنها ، مع ذلك ، جديرة بالبحث والدراسة ، حرية بالعناية والاهتمام .

وكان الصعاليك مما لفت نظر هؤلاء الباحثين ، في الزوايا عن موضوعات اكثر جدة ، واكثر انصافاً ، واكثر شعبية ، وظلوا يحومون حولهم . . . وزاد عدد الذين هموا بدراستهم ، وداعبتهم الاحلام بالكشف الجديد الذي يرضى روح العصر الجديد . .

ولكن البحث في الصعاليك وأمثالهم يلزم صاحبه أشياء كثيرة ، أقلها الصبر والجد ، والاناة في التنقيب في المصادر المتناثرة عن هذا الخبر أو ذاك ، وعن البيت والبيتين . [لان التاريخ ــ كما أصبح معلوماً ــ لم يكتب كما

يجب ، وان الكتب التي وصلت الينا كتب خلفاء وسلاطين ، ولم تعن بغير الحاكمين الا عرضاً ، وان الشعر الذي عني الناس بحفظه هو الشعر الذي قيل في مدح هذا الخليفة وذاك الوزير ، اما شعر طائفة نبذها المجتمع فانتقمت لنفسها بالشكل الذي سمح لها زمنها أن تنتقم به ، فلم يكن معقولا ان يرعى او يحفظ .

اذن ، كيف الكلام على الصعاليك ! ويبدو انه لابد من الكلام على الصعلكة والصعاليك !! كيف ؟ وكيف ؟

من الناس ، من استسهل — على عادته — الموقف ، واكتفى بسطر وسطرين فكون حديثاً طنانا رنانا ، لا تعرف اوله من آخره ، ولا صدقه من كذبه ، ومنهم من استغل ركض الناس وراء العنوانات فألف فصولا لا ماء فيها ولا نبات . والمسألة أخطر من ذلك !

وليس من العدل أن نتحدث عن شيء ، ونؤلف في شيء ، دون أن يكون لنا الجلد على جمع المواد الاولية من كل مصدر ومرجع ، ومن بين كل شارد ووارد ، ومطبوع ومخطوط .

والا ، فليس من الصعب أن تطيل الحديث الخيالي ، وليس من الصعب أن تطيل الكلام في اشتراكية الصعاليك ، وان تزيد على ذلك فتنسب اليهم كل ما تريد ، وكل ما توحى اليك النظريات في الايجاب والسلب .

المهم اذن ، أن نتحدث عن علم ، وأن نتجرد — في الاقل — الى جمع المعلومات ، وليس هذا بالامر السهل في مسألة الصعاليك .
ولهذا ..

كانت أهم المحاولات ، وأضخمها ، هي احدثها ، اى المحاولة التى

قام بها الدكتور يوسف خليف في كتابه الذي صدر حديثاً بعنوان « الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي » .

وقد بدأ الرجل كما يجب ان يبدأ . . .

وأخبرنا في مقدمته أنه مفتون بالعصر الجاهلي ، وأنه حين فكر في دراسة العصر الجاهلي لم يحاول أن يقف منه موقفاً عاماً شاملا . . وانما حاول أن يتخير جانبا من جوانبه .

ففعل ، وأختار « الشعراء الصعاليك » .

ثم عرض منهجه في البحث وهو سليم كل السلامة وقد زان متانة الخطة فيه ، الاتزان والحذر والتواضع .

ثم بدأ يستقصي ، ويستقرى ويستنتج :

« والصعلوك » هو الفقير الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة ، ولا اعتماد على شيء أو أحد يتكىء عليه أو يتكل عليه ليشق طريقه فيها . .

فالمسألة . . . ليست فقراً فحسب ، ولكنها : فقر يغلق أبواب الحياة في وجه صاحبه ، ويسد مسالكها . . . « في ركابه الجوع » و « شعوراً حاداً بالفقر » .

ينظر هؤلاء الفقراء الجياع ، المحتقرون في مجتمعهم ، المنبوذون من اخوانهم في الانسانية ، الى الحياة ليشقوا لهم طريقاً في زحمتها ، وقد جردوا من كل الوسائل المشروعة ، فلا يجدون امامهم الا أمرين : اما أن يقبلوا هذه الحياة الذليلة المهينة التي يحيونها على هامش المجتمع ، في أطرافه البعيدة ، خلف أدبار البيوت يخدمون الاغنياء أو ينتظرون فضل ثرائهم ، أو يستجدونهم في ذلة واستكانة ، واما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة

كريمة أبية ، يفرضون فيها انفسهم على مجتمعهم ، وينتزعون لقمة العيش من أيدي من حرموهم منها ، دون أن يبالوا في سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعة أم غير مشروعة ، فالحق للقوة ، والغاية تبرر الوسيلة .

« وقد سلك الصاليك السبيلين ، أو بعبارة أدق ، انقسموا في هذين السبيلين الى طائفتين : طائفة قبلت ذلك الوضع الاجتماعي الذليل ، وطائفة رفضت ذلك الوضع ، وأبت ان تعيش الحياة الساقطة التافهة المهينة ، ووجدت في القوة ، قوة النفس والجسد ، وسيلة تشق بها طريقها في الحياة .

وفي شعر عروة بن الورد موازنة طريفة بين الطائفتين :

لحا الله صعلوكا اذا جن ليلـه	مصافي المشاش ، آلفا كل مجزر
يعد الغنى من دهره كل ليلـه	أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشـــاء ثم يصبح طاويا	يحت الحصى عن جنبه المتعفر
قليل التماس الزاد الا لنفسـه	اذا هو أمسى كالعريش المجور
يعين نســاء الحى ما يستعنه	فيمسى طليحا كالبعير المحســر
ولكن صعلوكا صحيفة وجهه	تضوء شهاب القابس المتنور
مطلا على اعـــدائه يزجرونه	بســاحتهم زجر المنيح المشهر
فان بعدوا لا يامنون اقترابـه	تشـــوف أهل الغائب المتنظر
فذلك ان يلق المنية يلقها	حميداً ، وان يستغن يوماً فأجدر

وليست الصعلكة امرأ من غير تعلل .

انما هي ظاهرة اجتماعية يفسرها « التضاد الجغرافي » لجزيرة العرب ، والنظام السائد القائم على الايمان بالوحدة القبلية وبجنسيتها والعامل الاقتصادي الذي نتج عن طرق التجارة ، والتناقض الطبقي .

وهكذا ينتهي الباب الاول بعد ان استغرق حوالي مئة وخمسين صفحة لا غنى عنها .

وينفتح الباب الثاني ، ويتناول فيما يتناول موضوعات شعر الصعاليك. وفي هذه الموضوعات : أحاديث المغامرات ، والمراقب ، والتوعد والتهديد ، والاسلحة ، والرفاق والفرار ، وسرعة العدو ، الغزوات على الخيل ، وطبيعي ان يتضمن شعر الصعاليك آراءهم الاجتماعية والاقتصادية ، والتعليلات التي تمليها عليهم ظروفهم لتفسير حياتهم وتسبيب صفاتها ..

فقد رسم السليك صورة انسانية مؤثرة لما تلاقيه خالاته الاماء السود من الضيم والهوان ، وهو عاجز لفقره عن أن يعمل من اجلهن شيئاً .

أشاب الرأس أني كل يوم   أرى لى خالـة وسط الرحال
يشق علي أن يلقين ضيماً   ويعجز عن تخلصهن مالى

والخطة العملية في فلسفتهم : الغزو والاغارة :

متى تطلب المال الممنع بالقنا   تعش ماجداً أو تخترمك المخارم

« ومن الطبيعي أن تكون طبقة المالة اكثر طبقات مجتمعهم تعرضاً لغزواتهم فبينما كان تأبط شراً يفضل اصحاب المواشي ، واصحاب المزارع الخصبة ، وأصحاب النوق الحوامل ، كان « الأعلم » يقصد الثك السمان المترفين ، ضعاف القلوب :

أيسخط غزونا رجل سمين   تكننه الستارة والكنيف
ولو رفعت ثوبك في خروق   تروعك في مهالكها الشدوف
تخاف لزام عادية ثعول   كما يتفجر الحوض اللقيف
اذن لذكرت حالك غير عصر   وافسد صنعها فيك الوجيف

« وقد رسم بذلك صورة ساخرة طريفة ، لرجل مترف ، وجهت اليه امرأته برها وعنايتها حتى سمنته فأصبح من صنعها ، ولكنه مع ذلك

- ولذلك - ضعيف القلب ، لو اخترق صحراء لفزعته شخوصها ، ولحسب كل شخص فيها فارساً ، لانه خائف من اولئك الصعاليك المتربصين به وبأمثاله في ارجائها ، الذين اذا رأوه انصبوا عليه كما تتفجر المياه من حوض متهدم يحاول صاحبه اصلاحه دون جدوى ، وعندئذ تضطرب نفسه ، وينهار كيانه ، ويفر هاربا ، ويذهب صنع امرأته فيه سدى » (ص ٢٣٧) .

صورة ساخرة طريفة لصيد سمين .

وبعد أن يستوعب الاستاذ المؤلف الحديث عن موضوعات شعر الصعاليك هذه ، ويخصص لها اكثر من سبعين صفحة ، ينتقل كما يقتضى منهج البحث العلمي ، فيخصص ما يقرب من ذلك لدراسة الظواهر الفنية ، فيقف عند كل ظاهرة وقفة مناسبة تجلوها وتؤيدها بالشواهد وبما يجلو الشواهد نفسها .

ثم يعقب ذلك بدراسة خاصة لانموذجين مختلفين من الصعاليك : عروة بن الورد الذي يمثل شخصية الصعلوك الانساني ، والشنفرى الذي يمثل شخصية الصعلوك المتمرد .

وينهى الكتاب - كما يجب - بخاتمة تركزه وتلخصه .

وبعد ..

فكتاب « الشعراء الصعاليك » سفر قيم ، بذل فيه مؤلفه الفاضل شطرا حميدا من عمره بأناة وصبر فجاء ثمرة طيبة ، وأثرا محمودا .

وان المرء حين يريد أن يقدم هذا الكتاب الى القاريء لا يملك اكثر من هذه الخطوط الهزيلة التي رأيناها ، ولاشك في أن خير طريقة لمعرفته هى قراءته كاملا .

ولقد سد الاستاذ المؤلف - على الناقدين الباحثين عن المعائب الكبار السبل

التي اعتادوا النفاذ منها - بعلميته وموضوعيته ، وسدها بسلامة فكرته وسلامة منهجه ، ثم سدها بتواضع لا يتأتى الا للعالم ، وحسبك ان تسمعه يقول - بعد ذلك الجهد الجاهد - أن كل ما وصلت اليه من نتائج لا يمكن أن يكون الكلمه الاخيرة في الموضوع .

وبمثله ، ولمثله فليعمل العاملون .

المعلم الجديد - كانون ثاني - شباط ١٩٦٠

تكملة اكمال الاكمال

في الانساب والاسماء والالقاب

تأليف جمال الدين أبي حامد محمد بن علي المحمودي المعروف بابن الصابوني المتوفى سنة ٦٨٠ هـ. حققه وعلق عليه الدكتور مصطفى جواد . بغداد (مطبوعات المجمع العلمي العراقي) ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م

لا يستطيع ناقد أن يقول في تحقيق هذا الكتاب شيئاً غير المدح - المدح من كل صنف ولون ؛ ولا يجد حاقد على المحقق منفذا ، فلقد - والله - قلبته راضيا ، وقلبته ساخطا فما وجدتني الا معجبا ، ومادحا حامدا ، ومن اللؤم أن نبخس الناس أشياءهم ، ومن اللؤم القعود عن الثناء على المجيدين . وألح على كلمة « تحقيق » لانى أعلم أنها في نشر هذا الكتاب أهم من الكتاب نفسه ، ويكفيك أن الدكتور العلامة قد جعل من الكتيب الذي لا يزيد على (٥٠) ورقة ، مجلداً ضخماً بأكثر من (٥٠٠) صفحة . واذن فما كان اجدر أن يسمى « تكملة تكملة اكمال الاكمال » .

وليس الدكتور مصطفى جواد غريبا على أحد ، والناس يعرفونه ويعرفون مثابرته ونشاطه ، وتبحره في التاريخ وفقه اللغة العربية ، ولقد ساعد على ذلك - فيما ساعد - المذياع والمجلات الكثيرة والمجامع العلمية

والمؤتمرات والتعليقات والتعقيبات والتصحيحات وتقويم عوج المختصين ... و « الناصر » و « الفتوة » و « سلامة اللغة » ... و « الجامع المختصر » و « المختصر المحتاج اليه » و « الجامع الكبير » ... و « سيدات البلاط العباسي » و « المباحث اللغوية » ... و « بغداد قديماً وحديثاً » و « في اصول الادب والتاريخ » ... الخ ... الخ .

يعرف الناس الدكتور مصطفى جواد ، ويعرفون علمه وتبحره ، ولكنهم - على ذلك - سيدهشون اذا وقفوا على « تكملة اكمال الاكمال » ورأوا الحواشي والتعليقات والتصحيحات ... و « علم المؤتلف والمختلف » اي نعم ، ان استاذنا مختص بهذا العلم ، وهو فن جليل لايهيأ الا بالصبر والمثابرة والذاكرة والاخلاص في العمل والخبرة الطويلة ، والا ، كم هم الذين ينتبهون الى الخطأ في « الافشين حيدر بن كاووس » والى الخطأ في « علي بن أحمد القالي » وفي « الطبيب أبي الثناء محمود ... ابن دقيقة » ؟ من ؟ لقد أخطأ في الاول الشيخ الخضرى وفي الثاني الاستاذ احمد امين وفي الثالث الدكتور احمد عيسى المصري ... وصواب كل ذلك عند استاذنا الدكتور مصطفى جواد أو بمعنى أدق عند بحثه وعلمه . وهكذا نعلم أنهم : « خيذر » و « الفالي » و « ابن زقيقة » ، وهو يعتمد في ذلك عديداً من المصادر والنصوص ، ومن بينها هذا الكتاب الذي يحققه .

في هذا الكتاب ، يستدرك ابن الصابوني ، ويذيل على « اكمال الاكمال » الذي ألفه ابن نقطة المتوفى عام ٦٢٩ هـ في الانساب والاسماء والالقاب ، وقد رتب ابن الصابوني كتابه على حروف الهجاء ، وذكر في الاسطر المخصصة لكل علم : النسب والاساتذة والتلاميذ ، وأعار تاريخ الولادة والوفاة جانباً من عنايته ، وربما استشهد بالبيت أو الابيات اذا كان المترجم قد زاول الشعر ؛ الا أن همه الاول هو الحديث وأصحاب

الحديث .

وأعلام الكتاب ليست بمن يسهل الوصول اليها ، والالمام بشأنهم ، انك تقرأ الاسماء التي أوردها ابن الصابوني فلا تكاد تعرف من أمرها شيئاً ، ولا أدري كم هم المختصون الذين يستطيعون أن يدعوا العلم « ببعضهم » أو السماع بأسمائهم . ولكن استاذنا الدكتور مصطفى جواد عالم بالاعلام . وهاك رأس القائمة : « ابن أبيه ... الابذي ... أبي الاصبع ... بثينة ... ثنية ... البراد ... الخ الخ - ولا نطيل ، لانهم من هذا النوع وبما هو « أغرب » منه . وفيهم : « البادرائيون والبادردي ، وابن البخترى » - ولا نطيل . ولا يعرف هؤلاء غير الدكتور مصطفى جواد ، ولا أقول ابن الصابوني . اي نعم ، لان من يقف مخلصاً على الكتاب بشكله المطبوع يتأكد له أن الدكتور أعلم من ابن الصابوني وأدرى : فهو لايكتفي بأن يعقب على العلم المترجم ، أو يزيد ، أو يصحح ، انما يذكر قائمة من المصادر فيها المخطوط وفيها المطبوع النادر جداً ، ثم انه ليترجم « للاعلام » التى ترد عرضاً فيذكر لها النسب الكامل وتاريخ الميلاد والوفاة والمهم من ماجريات الاحداث ثم قائمة من المصادر الاساسية النادرة التي لا يعرف أن يجمعها غير الدكتور مصطفى جواد ، وحسب المرء أن يفتح الكتاب كيفما اتفق وينظر في اية صفحة ليرى كيف يبذ الفرع الاصل وتطول الحاشية المتن .

ان الدكتور عارف بالاسماء المجهولة وآلف لغريبها وغرائبها ، وعالم بضبطها ، وهاك أمثلة واسأل وسائل و « حزر » من يستطيع شكلها واعجامها ؟ من ؟ : - ابن الهنى ، ابن جشنس ، الباجباري الدنيسري ابن الكهدان ، البرزالي ، ابن كروس ، ابن بوش ، المزدقاني ، ابن موقا ، خزيفة ... ستيك ابنة عبد الغافر ... الخ الخ . وانظر لحواشي

كل اسم ، وعلى سبيل المثال : ابن بكمش ، ابن سودكين ، شهدة ...
الخ الخ - ثم انظر فهرس الاعلام لتعجب ...

ان اسما يأتي عرضا في خبر من الاخبار يضبطه الدكتور ويجهزه
بأكثر من نصف صفحة من المصادر والمعلومات ، ولك أن تنظر مثلا :
الختلي ، الجنابذي ، الرامشي ، ابن حمويه ، الامنازي ، بني زهمويه ،
الدغولي ، أبو الفضل منوجهر وابن الدجاجي ، ابن البلطي ... الخ الخ .
وفاطمة بنت سعد الخير والمبارك بن الشعار ... وبين هذه الاسماء من
تبلغ حاشيته الصفحتين وزيادة ، ولك أن تنظر على سبيل المثال : حاشية
أبي العلاء الحسن بن احمد (ص ١١٨) وحاشية العليمي (ص ١٧٨)
والكركي (ص ٢٧٦) .

وليست مسألة الحواشي مسألة حجمية أو عددية ، انما هي فن وعلم ،
لانك انما تترجم للاسماء المغمورة التي لا يمكن أن تمتد اليها يد عامة
القراء ، وانك تذكر من المصادر ما كان نادرا جداً مما لا يقع في متناول
كل يد . فليس من المعقول أن تترجم لعنترة العبسي أو لعمر بن الخطاب
أو لحسان بن ثابت ... لان ذلك أمر تافه ، وما أسهل أن تجعل كل
هامش كتاباً كاملا ، وهو بعد ذلك عمل أولى يقع فيه المبتدئون في علم
النشر . ان التعليق يجب أن يكون كما فعل الدكتور مصطفى جواد ،
وهذا ما لا يتهيأ بيسر ، لانه يعتمد استعداداً طويلا ، وقد يقول قائل ،
وما وجه الاعجاز في الحواشي : أعرف العلم في المخطوط ثم أعود الى
هذا أو ذلك من المصادر فأعلق وأطيل التعليق ! وهذا اعتراض يدل
على حمق شديد ، لان البراعة في العمل لا تكمن في المصادر المشهورة :
ابن خلكان والصفدي والكتبي ، لا ، ان هذه المشهورات لتضيع في خضم
ما يذكر الدكتور مصطفى جواد من كتب قلما عرفها أديب وقلما سمع

بها سامع ولئن حقق الدكتور هذا الكتاب في مدة محدودة ، لانه ثمرة لدرس طويل وبحث طويل ، كلما مر به علم من أعلام المخطوط تذكره وعرف ماضي بحوثه وطيات تقييداته فراجع واقتطف المناسب وعرف كيف ينتقل من التعليقة الى الوافي ، الى لسان الميزان ، الى النجوم الزاهرة ... الى روضات الجنات ، ومنها لضرورة ومناسبة الى الطبري ـ وانظر فهرس الكتب لتعجب .

ثم ان الدكتور يقف من هذه الكتب التي يرجع اليها موقف السيد العالم الذي يعي ما يأخذ وما يدع . ويصلح هذا ويقوم عوج ذاك ثم يضيف ويضفي .

ولنبدأ بالبداية ونسائل : كيف جاز للدكتور أن يقدم على نشر مخطوطة لا توجد منها الانسخة واحدة ، بينما ينصح أهل التوجيه بالاحجام عن عمل مثل هذا ، ولهم في ذلك حجة مقبولة هي صعوبة العمل واستحالة الضبط ، فكيف تصلح التصحيفات ـ مثلا ، وكيف تملأ الفراغات ، وكيف تحل الرموز ، وكيف ؟ وكيف ؟ وهذه مشكلات قائمة في كل مخطوطة ، وهي كثيرة في ـ تكملة اكمال الاكمال ـ ، ولكن عالما هو الدكتور مصطفى جواد يعرف كيف يذلل هذه الصعوبة ، وها أنت ذا تقرأ المطبوع واذا هو من السلامة وكأنه حقق على عشرات النسخ الواضحة الخط ، البينة النقط .

ثم ان استاذنا عمل ما هو أجل من ذلك ، فلقد أصلح من الاخطاء ما يمكن أن يعزى الى ابن الصابوني نفسه ، فقد جاء في (ص ٢١٥) : « والفقيه أبو القاسم محمد بن عبد الرحمن بن اسماعيل ... المعروف بأبي شامة » فعلق الدكتور : « قلنا اسمه عبد الرحمن ... » ثم ساق المصادر : « قال الصفدي ... وفي تذكرة الحفاظ ... وقد ترجم نفسه في ذيل

الروضتين ... » . وجاء في (ص ٢٧٥) : « منسوب الى قرية قريبة من بعقوبا يقال لها قباب » فيعلق الدكتور « الصواب » « قباب ليث » بالاضافة . قال ياقـــوت ... وفي مراصد الاطلاع ... وتاريخ العراق بين احتلالين ... » . وجاء في (ص ٢٧٥) : « ... والقنائي ... بفتح القاف ... المنسوب الى دير قنا » ويقول مصطفى جواد كذا ورد والصواب بضم القاف ، قال ياقوت ... وقال الشابشتي ... ومســـالك الابصار ... وجاء في (ص ٣٥٢) : « الامـام أبو المفاخر محمد ... النوقاني ... درس بالمدرسة النظامية ... » فيعلق الدكتور : « قال ابن الدبيثي ... وكان عنده طلب للمدرسة النظامية ... » انه كان يرغب في التدريس بنظامية بغداد الا انه لم ينله . وجاء في (ص ٩٥ ـ ٩٦) : « ... من أهل الحريم الطاهري » والدكتور هو الذي جعلها كذلك . لانها جاءت في المخطوطة : (الحريم الناصري) ، وكذلك فعل (ص ٣١٧) « باليزيدية » التي كانت في المخطوطة « اليزدية » وكذلك فعل (ص ٣٣١) اذ أصلح « المتيحي » « بالمتيجي » معتمداً مشتبه الذهبي وغيره ... الخ .

ولا شك في أن عدداً من هذه الاغلاط يعود الى جهل الناسخ ، ولكن ذلك لا يقلل من خطرها . والدكتور مصطفى جواد هو وحده يستطيع الانتباه اليها وتقويم زيغها .

وينبهنا ذكر « الحريم الطاهري » الى اثبات فضيلة اخرى لتكملة تكملة اكمال الاكمال ، هي ناحية الخطط والمحلات والاماكن الجغرافية ـ ولك أن ترجع الى فهرست الاماكن لتلم بأهمية هذا الباب ، واذا تذكرت أن الدكتور مصطفى جواد هو صاحب أحاديث بغداد قديماً وحديثاً ، تأكد لك أنه سيصل لك من هذا الكتاب ما انقطع ، ويربط الماضي بالحاضر . فهو لا يكتفي بأن يصحح ـ الحريم الطاهري ـ وانما يقول (ص ٩٥) انه

« كان على دجلة ، بين أرض الكاظمية الحالية وقصور وبساتين عبد الحسين الجلبي » .

وكذلك فعل في أماكن اخرى منها ما جاء في (ص ٣٤٣) : « توفي ... ودفن بمقبرة الخلال بباب الازج » ومقبرة الخلال التي ذكرها هي مقبرة عبد العزيز بن جعفر المعروف بغلام الخلال وتعرف اليوم بمقبرة - الخلاني - في جنوبي بغداد العتيقة .

واذا وردت على الصفحة (٥) كلمة - جامع القصر - قال : - ... في دار الخلافة العباسية التي كان حدها الاعلى شارع السموأل الحالي وحدها الاسفل محلة المربعة على الترجيح ... - واذا وردت - مقابر قريش - قال : وهي بلدة الكاظمية الحالية . واذا وردت - باب الطاق - قال (ص ٣٥١) : « ولما بدأت العمارة فيما حول مقابر الخيزران أي مقبرة الامام أبي حنيفة اتصلت العمارة بباب الطاق ، فهي اليوم أرض جنوبي الاعظمية الحالية » . أما « الاجمة » (ص ٦١) فلم يذكرها ياقوت في معجم البلدان ولا ابن عبد الحق ولا لسترنج - ويستفاد مما ذكره ياقوت في معجم الادباء - لا معجم البلدان : أن مقبرة الاجمة كانت متصلة بباب أبرز وباب أبرز هي محلة الفضل وحمام المالح والبارودية الحالية ، فتكون الاجمة في محلة خان اللاوند وما اليها [1] وهكذا يمكنك أن تطيل قائمة خطط بغداد ولك أن ترجع ثانية الى الفهرس . ولم يقف الامر عند بغداد ، ألم يقل ص ٣٧٣ ان البندينجين هي مندلي الحالية ... وتستطيع أن تفيد أموراً تتعلق بالشام ومصر .

وكما تمر - بالناشر - خطط ومواقع تمر به مفردات واصطلاحات حضارية ضاعت مع الزمان ، ومن هذه كلمة - المعلوم - فما معناها ؟ وهاكها مستعملة في جملة مفيدة (ص ٣٣٨ - ٧) « اذا سافرت فلا تنزل

---

(١) من المفيد ان نذكر انها وردت في ديون الابيوردي ١٨٧ ــ ١٨٨

رباطاً يكون له معلوم « ويفسرها الدكتور : » المعلوم هو ما يسمى اليوم بالتساهل - الراتب أو المرتب - وفصيحه الجراية وهي اجراء النقد على مريده مشاهرة ... قال ابن خلكان في ترجمة نصر الله ابن الاثير - فخيره صلاح الدين بين الاقامة في خدمته والانتقال الى ولده ويبقى المعلوم الذي قرره له باقياً عليه - . ويجمع المعلوم على - المعاليم - قال تاج الدين السبكي في طبقاته الكبرى - وقد أدرت فكرى وغلب على ظني أن نظام الملك أول من قدر المعاليم للطلبة » .

وللدكتور تعقيبات تاريخية أو لغوية على كلمات اخرى مثل صفعان ص ٣٥١ - وشادن أغصني بريقه - ص ٣٥٨ والدوشاني ص ٣٤٣ . وعلم الدكتور باللغة وبتطور استعمال المفردات على العصور معروف لا يجاريه فيه معاصر ولا يستطيع قارىء أن يجده في كتاب بعينه أو في قاموس ، انما هو خبرة وسهر طويل وذاكرة وتقييدات — وانظر فهرست - الفوائد والشوارد - (ص ٤٤٩ — ٤٥٠)

وأمر آخر لا يقل خطورة عن كل هذه الامور ، وفيه رد على اولئك الذين يستهينون بمسألة المصادر والاشارة اليها والاقتباس منها ، ويريهم - من جديد - ان هناك ما يسمى - علم المصادر - وان من مقتضيات هذا « العلم » المقدرة على اصلاح الخطأ في النص المقتبس من الوجهة التاريخية أو اللغوية أو - النشرية - في الوقت الذي يقف فيه سائر المحققين من شباب ومدعين موقف المؤمن ايماناً مطلقاً بما يقرأ من مصادر . والامثلة على اصلاح المصادر في - تكملة تكملة اكمال الاكمال - كثيرة ومفيدة جداً . ومن هذه الاخطاء ما وقع فيه الناشرون المعاصرون ، ومن أمثلته ما جاء بشأن الشريف النقيب النسابة محمد بن أبي البركات : - وترجمه العماد الاصبهاني الكاتب في خريدة مصر

(ج ١ ص ١١٧ ...) وقد ذكر طابعو الخريدة المذكورة الاساتذة أحمد أمين وشوقي ضيف واحسان عباس أن الصفدي ترجمه ونقلوا شيئاً من الترجمة وقالوا : ـ انظر فوات الوفيات طبع استانبول ج ٢ ص ٢٠٢ مع أن الكتاب هو الوافي بالوفيات لا فوات الوفيات ... وجاء في الخريدة المصرية ج ١ ص ١١٨ ماهذا نصه ـ وقرأت أيضاً بخطه في كتاب كتبه الى الامير عز الدين حارن (كذا) لما قصده بالشام ... وقال طابعو الخريدة تعليقاً على ـ حارن ـ : ـ هكذا بالأصل ولعلها الحارمي نسبة الى حارم احدى بلاد الشام أو لعلها خازن ـ . والصحيح أنها ـ جاولي ـ قاله أبو شامة ... وله ترجمة طويلة في لسان الميزان ج ٥ ص ٧٤ .

ومن تصحيحات الدكتور للناشرين ما جاء ص ٢٢٧ « ... وأبي عبدالله محمد بن ابراهيم المعروف بالكيزاني » اذ ذكر في الحاشية : « ... وقد تصحف نسبه في المرآة على الاستاذ كرنكو وجماعة حيدر آباد في المرآة (٨ : ٢٥٤) الى ـ الكتاني ـ وتصحف عليهم الجنوشاني المذكور في ترجمته الى ـ الحرشاني ـ وهو محمد بن الموفق وفي ـ ص ٤١٤ ـ ورد بالصورتين ولم يستطيعوا ترجيح احدهما على الاخرى .

والحقيقة أن مسألة التصحيف من أخطر مسائل النشر وهي تعيي ـ كما رأيت ـ العلماء الاعلام والمختصين المنصرفين الى النشر ، فضلا عن سواهم من المدعين الذين يستسلهون الامور ويعتقدون في انفسهم ما ليس فيها ولها ، وفضلا عن هؤلاء الشبان الذين خيل اليهم انهم علماء ـ وتلك بعض النزوات . أما استاذنا الدكتور مصطفى جواد فهو علامة في ـ علم التصحيف ـ وقد رأيت مكانه من ـ المؤتلف والمختلف ـ وتبحره في قضاياه ووقوفه على مظانه . وهناك أمثلة اخرى ص ٣٢٥ « ... أبي الكرم الشهرزوري ... قرأ عليه محمد بن هارون الحلي ... »

وقد تصحف في « غاية النهاية » ج ٢ ص ٣٨ « الحلي » الى « الحلبي » و « الجيلي » الى الجبلي . وهامش ص ٩٩ « ... جاولى ... وله ترجمة طويلة في لسان الميزان ج ٥ ص ٧٤ وقد جاء فيها من الخطأ في ضبط الاعلام أمر هائل كالجوالى بدلا من الجواني ... وبغية الدولة مكان ثقة الدولة ... الخ الخ » ومن هامش ص ٣١٥ تعلم أن من تصحيفات « ذيل طبقات الحنابلة » ان « ابن العصار » أصبح ـ ابن القصاب ـ و « المراتبي » بات « المزالى » ...

وقد يكون بعض هذه الاخطاء راجعا الى جهل الناسخين ، ولكن ذلك لايرفع المسؤولية عن الناشرين . فلئن قرأ ناشر في مخطوط لسان الميزان (ج ٣ ص ١٩ من المطبوع) ان وفاة حيص بيص كانت عام ٧٥٤ أقول حتى اذا عاد الخطأ الى الناسخ ، ان الناشر مسؤول ايضاً ولا سيما ان حيص بيص مشهور ، ترد ترجمته في كتب كثيرة يكفيك منها أن تطلع على الهامش الذي أثبته الدكتور في ذيل ص ٣٧١ ـ ٣٧٣، ومعلوم انه توفى عام ٥٧٤ .

ولا يصلح الدكتور مصطفى جواد التصحيف وأخطاء الناشرين فقط ، انما يصلح أوهام المؤلفين ويعقب عليهم ويستدرك لهم ، والامثلة على ذلك غيرخفية ، ولعلك رأيت منها ما جاء في هامش ص ٣١٥ بشأن أبي البقاء العكبرى المتوفى عام ٦١٦ من انه قد « طبع شرح ديوان المتنبي لعفيف الدين علي بن عدلان الموصلي منسوبا الى أبي البقاء المذكور غلطا . والظاهر أن الوهم في ذلك أقدم من عصر ابن معصوم المتوفى سنة ١١٢١ فقد ذكره في كتابه « أنوار الربيع في أنواع البديع ص٧٠٣» منسوبا الى أبي البقاء ، قال : « قال العكبري في شرحه : سمعت شيخي أبا الفتح يقول ... » . مع أن أبا الفتح هو نصرالله بن الاثير المتوفى

سنة ٦٣٧ ، فكيف يكون أبو البقاء قد درس على أبي الفتح بن الاثير ؟!
ولاستاذنا الدكتور عديد من البرهانات على خطأ نسبة الشرح الى العكبري ،
ولكنه لا يريد أن يستفيض في كل مسألة . وهو يعلم أن المسألة مسألة
تعليقات . وان ازاءه ملاحظات اخرى على مصادر اخرى . منها
ما جاء في هامش ص ٣٢١ حيث قال « وعلى ذكر أحمد بن الدبيثي
نقول ان ناسخ تاريخ الصفدي وابن العماد ذكرا وفاته في سنة ٥٥٨ ...
والصحيح أن أحمد بن الدبيثي توفي سنة ٦٢١ لا سنة ٥٥٨ فهذه السنة
الاخيرة ، تاريخ ولادته ، قال ابن الفوطي ... ذكره ابن النجار ... » .
ومنها أي من تعقيباته على المصادر واصلاحه لخلطها ما جاء ص ٩٩ ـ ١٠٠
بشأن الشريف النقيب النسابة محمد بن أبن أبي البركات « ... وقد وهم
الصفدي فقال : « لقب رشيد الدين ... ويعرف بالمازندراني » . وقد
اختلطت عليه بترجمة « رشيد الدين أبي جعفر محمد بن علي بن شهراشوب
المازندراني المتوفي سنة ٥٨٨ » وذلك عند نقل الصفدي من تاريخ الاسلام
للذهبي « نسخة باريس ١٥٨٢ الورقة ٣٨ » .

وهناك نوع آخر من العلم يعرفه استاذنا خيرا من غيره ، وهو من
صميم « علم المصادر » ذلك، أن لكل مصدر تاريخاً وأطوارا وأحوالا ، ولعلك
سمعت بملاحظاته عن جزء المحمدين من كتاب ارشاد الاريب المعروف
بمعجم الادباء ولعلك قرأت في هامش ص ٢١٧ من التكملة ما جاء
عن « عبد الغافر بن اسماعيل الفارسي » ... وترجمه ياقوت الحموي .
وفقدت ترجمته في الموجود المطبوع من معجم الادباء ، ونقل خلاصتها ابن
الفوطي في تلخيص معجم الالقاب ... »

ويظل الدكتور مصطفى جواد يتعقب المصادر ويستدرك عليها فان
مر في ص ٣٦٥ ابراهيم بن ترجم قال في هامشه : « لم يذكره الصفدي

في كتابه ـ نكت الهميان ـ مع انه شرطه ، وذكره المنذري في التكملة ونص على ضبط اسمه بالحروف ، ـ نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية ج ٢ و ٢١٩ » .

ولا ينسى أن يستدرك على المؤلفين المعاصرين فاذا مر في ص ٣٢٥ أبو الكرم الشهرزوري قال في الهامش (ولم يذكره محمد أمين زكي في مشاهير الكرد وكردستان) .

هذه المعرفة بالمصادر قديماً وحديثاً وبالاعلام قديماً وحديثاً وهذا الصبر وهذا العلم العتيد يجعلنا نسائل : لم لا ينشر الدكتور ما يعلم من مخطوطات مهمة ، ان عدداً من هذه المخطوطات يرد في حواشى الدكتور علي شكل يدل على وقوفه على أسراره وعلى خطورته للتاريخ والادب ، مثل اجزاء من تاريخ ابن الدبيثي وتاريخ ابن النجار ومثل « المحمدون من الشعراء » وطبقات ابن قاضي شهبة والتعليقة وتاريخ واسط ... .

نسائل ، لاننا نعلم أهمية هذه المخطوطات ولاننا نعلم سهولة تحقيقها على الدكتور مصطفى جواد وصعوبته واستحالته على من سواه ولاننا نعلم ان الدكتور لا يتأخر عن التحقيق ان تهيأت له ظروف النشر ، وانه لا يملك المال الكافي لنشرها على حسابه الخاص .

تلك أسئلة لم يبق لها مجال بعد أن أسس المجمع العلمي العراقي الذي أخذ على عاتقه ـ فيما أخذ ـ نشر المخطوطات النادرة ولا سيما ما كان خاصا بتاريخ العراق منها . ؛ وليس من اللياقة ان يطلب باحث عراقي الى مجمع دمشقي او قاهري او طهراني او انقري نشر تاريخ ابن الدبيثي او ابن النجار عن بغداد مدينة السلام ، كلا ، ولا نصرة العماد في تاريخ سلاجقة العراق ... الخ

وليست المسألة مسألة العراق وحده ، وانما هي مسـألة الحضارة الاسلامية كاملة ، لان علم استاذنا الدكتور مصطفى جواد لا يقف عند بغداد وانما هو عليم بتاريخ العرب في مختلف عصوره واقطاره ، هذا الى ان « بغداد » تكون اكبر أركان هذه الحضارة . وكم كان جديراً بدور النشر ، علمية كانت أو تجارية ، ان تستعين بالدكتور ، كم كان جديراً بدار الكتب المصرية أن تتذكره وهي تنشر ـ الاغاني ـ مثلا ، كم كان قمينا بدار المعارف أن تستنجد به وهي تنشر ـ ذخائر العرب ـ مثلا ... ثم ماذا فعلت الجامعة العربية ومعهد مخطوطاتها . وقد علمنا ان هيئة تعتزم نشر « انساب السمعاني » . أمن الممكن أن يطبع هذا الاثر قبل أن يراجعه استاذنا العلامة .

ثم ان من يقرأ « تكلمة اكمال الاكمال » وينظر الى المقدمة والحواشي يرى أن الدكتور مصطفى جواد أشبه بمن ضاق بعلمه فراح يترصد الفرص للتخفيف من ثقله وهكذا كانت التكملة منفساً ومنفذاً . وهكذا امكن تسميتها ـ تكملة تكملة اكمال الاكمال ـ .

المعلم الجديد ـ تموز ـ تشرين ١٩٥٨

الشعر في بغداد

حتى نهاية القرن الثالث الهجري

تأليف الدكتور أحمد عبد الستار الجواري ، مطابع دار الكشاف ، بيروت ١٩٥٦

من اسم الكتاب ، نلحظ أن المؤلف ينوي دراسة بيئة أدبية خاصة ، والنية حسنة ، ولا سيما بعد الذي لقيته الفترة التي يتناولها بالبحث . من « عنايات » مختلفات . وبعد تعدد مناهج البحث والدعوة الى الربط بين اللغة والحياة . على أنك مهما بالغت في تضييق مدى « بغداد » خلال تلك الفترة ، لا تستطيع أن تعزلها أو أن تحاول عزلها عن العالم الاسلامي . لقد كانت بيئة خاصة وعامة في آن واحد . وربما كانت مهمة من يؤرخ بغداد أشبه بمن يؤرخ باريس في القرن السابع عشر - مثلا . اى انه يكاد يؤرخ شعر اللغة كله ؛ دون أن يعلم .

وقد حرص المؤلف أن يمسك بالزمام . فانطلق حذراً من نقطة مطمئنة . وبدأ بالتاريخ والجغرافية يحدد الزمان والمكان : وكنا نود لو جاءت الصفحات العشرون بصفحتين أو ثلاث هي كافية لقاريء كتاب اسمه « الشعر ... » ولكاتب يريد أن يقول « إن بغداد كانت قبل المنصور قرية صغيرة هي بقية مدينة سامية أو سومرية قديمة العهد ... » وان المنصور ، اراد حين انشأها « ان يجمع بين صلته بأنصار الدعوة العباسية من الفرس » دون أن يكون بعيداً عن أهله وعشيرته ، وذوي

قرباه من العرب وقد كان « حفظ التوازن » هذا « طابعاً تتسم به بغداد » .

كنا نريد ان يستغل الفائض من تلك الصفحات العشرين لما هو أدخل في منهج البحث ، اعني : دراسة المصادر التي يعتمدها المؤلف ، مبيناً للقاريء الغث والسمين ، المطبوع والمخطوط ، الموجود والمفقود .

أما صورة الحياة الاجتماعية والعقلية التي رسمها المؤلف فضرورة في منهاج البحث الحديث ، وضرورة في كتاب يقوم على تبيان هذه الصور في الشعر - وقد أحسن المؤلف إذ اوجز .

ولم ينبثق هذا « الشعر » في بغداد انبثاقاً ، « والشعر في العراق - كالشعر الأموي - استمرار للشعر الجاهلي إلى حد بعيد » وفي العصر الأموي كانت بواكير للتجديد وكانت في جملتها آثاراً للتبدل الذي طرأ على الحياة العربية فوصلها بالأمم الأخرى ... وكان من أهم تلك الظواهر... مشاركة غير العرب في الشعر ... وتأثر الشعر بالحياة العقلية ... ومسايرته للحياة الحضرية ...

اذن فقد كان للشعر - طريق - سلكه حتى بلغ بغداد . والمنهج يقتضي الالمام بهذا الطريق ويقتضي تبيين صواه ، وقد فعل المؤلف . ولكن ، في الأربعين صفحة التي خصصها لذلك ، مواقف غير ضرورية جداً ، منها : مدلول الشعر ، ومنها هذه الموازنة بين الشعر العربي والشعر اليوناني ؛ كما أننا حين نتحدث عن سحيم ، أو نصيب ، لا تهمنا الا « تلك الطلائع التي تقدمت النهضه الفنية ، التي حمل لواءها المولدون في العراق » من العناية بالبديع ، والقصد الى التفنن ، وما الى ذلك .

تنتهي المقدمة بالصفحة التاسعة والسبعين ، ويبدأ الباب الثالث الذي كسر على - العوامل التي أثرت في الشعر - وأولها السياسي وهو ضعيف ،

وكان الشعر فيه يدور على العباسية ، والعلوية ، وقليل من الامويه . كان الشعر السياسي ضعيفاً جداً ، وهذا ما جعل الأمثلة معدودة لا تسمح لمناقش أن يناقشها أو يحللها . ولكن ، كان هناك مجال مسه المؤلف مساً خفيفاً ذلك هو الحروب في الشعر ، وكان من المناسب أن يعقد فصل خاص على « تاريخية الشعر العباسي » .

وثانيها ، العامل الاجتماعي « وقد دخل الاعاجم في الحياة العامة من أوسع أبوابها » ... وما كان بأمكان الجواري أن يأتي بجديد في الخطوط العامة والامثلة المعروفة ، وما كان بأمكانه ان ينجو من التكرار لأنه ملزم باستكمال جوانب الصورة التي يقتضيها كتابه « ويقابل الشعوبية الروح العربي » والتفات المؤلف إليه منتظر ، وقد عودنا سعة الأفق في بناء الخطة . كما عودنا حسه العربي . ولكنا كنا نطمح أن نطيل وقوفنا عند الشعر الذي قيل في معن بن زائدة وابي دلف وحميد الطوسي ومن إليهم .

وثالثها ؛ العامل الحضاري ؛ ولم يكن هذا في وصف مظاهر الترف والنعمة والمرح حسب . « فذاك المظهر الآني » اما الأثر الباقي فهو الأناقة في التعبير ، وهكذا كان البديع .

ورابعها : العامل العقلي ، وفيه آثار الكوفة في الرواية والبصرة في الدراية ، وفيه آثار العراق القديم وآثار اليونان القديمة ، وكان من آثاره القريبة : الشعر والتعليمي ودخول الفاظ الفلاسفة ومصطلحاتهم ؛ ومن آثاره البعيدة : هبوط أسلوبه وتحلله من قيوده الفنية ، وجنوحه الى التضحية بصوره التعبيرية الجميلة . ثم إن هناك ـ والمؤلف هو الذي يتكلم ـ ، ويقول : « ان هناك فرقاً لا ينكر بين التعبير عن الافكار التى تنشأ من الخبرات والتجارب الانسانية فتقلبها الحياة ظهراً

لبطن ، ثم تنفذ إلى نفس الشاعر نفوذ الماء الى الأرض الصلدة على مهل وروية وأناة ، فتغوص في قرارتها ولا تتبدد ؛ وبين الأفـــكار التي يستنبطها البحث في العلم والفلسفة ولا تزال تتجمع وتحتشد وتسرع في الحركة ، حتى يضيق بها الشعر المقيد ، ذو التقاليد الفنية الثابتة المستقرة ، ثم لا تلبث أن تحمله على قلب كيانه وتكسير قيوده ، حتى إذ فعل ذلك لم يجده شيئاً ، ولم تجد الأفكار نفسها ، فتعود تلتمس لها المجال الرحب الفسيح مجال النثر .

هذه آراء صائبة ، لم يدع الرجل ابتكارها ، ولكنها ترينا أن المؤلف الفاضل على صلة بالآراء النقدية .

ويبدأ الباب الرابع بتمهيد لبحث الشعر بين القديم والحديث ، وعوامله هي تلك العوامل الأربعة التي أثرت في الشـعر ، وقد جرى في ثلاثة اتجاهات : فهناك المجددون المندفعون في التحلل والمجون ، وهناك المجددون المعتدلون الذين - عنوا بالصورة التعبيرية ، مع المحافظة على المقاييس الفنية المألوفة في الشـــعر من جزالة العبارة ورصانة الاسلوب ومراعاة الاداء الفني - .

وفي الباب الخامس يفصل ما أحدثه المحدثون في الشعر : في الموضوع وفي الأسلوب . فمن الجديد في الموضوعـات ، ما حصل اذ اســتقل بمقطوعات قصـيرة و اصـبح فناً شعبياً عامياً في معانيه وفي أســلوبه ، يتناول الفرد ولا شـأن له بالأسـرة والقبيلة ؛ اما الجـديد في الحكمة والزهد فقد درسـه وكأنه يسير على طريقة الأعلام اذا اقتصر على ابى العتاهية ، ولكنه يعود الى طريقته ، في دراسة الشعر التعليمي . ثم يعود الى الطريقة العلمية في كلامه على الخمر وكأنه أحس بشـيء من ذلك ، فوسع دائرة البحث في - الغزل بالمذكر الذي « بلغ أشـدة عند الحسين

ابن الضحاك فأصبح يعبر عن عاطفة ... تشبه إلى حد ما عاطفة العذريين »

اما الجديد في الصورة والاسلوب فمنه محاولة التجديد في الأوزان ولكنها محاولة لم تكن على جانب كبير من الجد ومنه سهولة الاسلوب التي يبلغ معها مبلغ العامية ، ومنه ما كان من أمر البديع وما هو مشهور عن ابن هرمة وابن ميادة وبشار والعتابي ومسلم بن الوليد وابي تمام وابن المعتز .

وبعد فكتاب ـ الشعر في بغداد ـ يزينه جمال العرض ونقاء اللغة ومتانة الخطة ووضوح ينساق معه القاريء بيسر مع امتناع عن الانحياز بين الجديد والقديم .

اننا نطمع ان نرى طبعته الثانية اكثر عمقاً وأحفل بالشواهد الجديدة مع عناية بدراسة لغة الشعر ودلالتها وتطورها ، وقد عهدنا المؤلف نحويا ولغويا اكثر منه مؤرخ ادب .

اخبار البحتري

تأليف أبي بكر محمد بن يحيى الصولي (المتوفى سـنة ٣٣٥ هـ) .
تحقيق الدكتور صالح الاشتر . دمشق (مطبوعات المجمع العلمي العربي) ١٩٥٨ .

تقرأ في المقدمة : ان الصولي تلمذ على جلة علماء بغداد ، وكان يكتب ما يسمع منهم ، ويقيد ما يملونه حتى تجمعت له مكتبة كبيرة ... والف - فيما ألف - أخبار عدد من الشعراء كالفرزدق وابن هرمة والسيد الحميري والعباس بن الاحنف ، وأبي نواس وابي تمام ... كما جمع دووابن عدد من الشعراء ورتبها على حروف المعجم ... وأصبح في أوائل القرن الرابع اماما في اللغة والادب والعلوم الاخرى .

وللصولي مؤلفات كثيرة ، نشر منها اجزاء من كتاب الاوراق وأدب الكتاب ، وأخبار أبي تمام . (١)

ولا نجد في الكتب القديمة التي تتحدث عن مؤلفات الصولي ذكرا لكتاب أخبار البحتري لان هذا الكتاب في - حقيقته أخبار قدم بها الصولي لديوان البحتري الذي جمعه في مجلدين ورتبه على حروف المعجم وصحة نسبة هذه الاخبار الى أبي بكر محمد بن يحيى الصولي يؤكدها

---

(١) نشر « أخبار أبي تمام » وحققه : خليل محمود عسكر ومحمد عبدة عزام ونظير الاسلام الهندي ، القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٣٧ .

تأكيدا قاطعا وجود كثير من هذه الاخبار في كتب الادب ، بنصوصها معزوة الى الصولي ...

هـذا الكتاب اذاً في أصوله مقدمة للصولي ، قدم بها لديوان البحتري ، وهي منتزعة فعلا من أول الديوان ، وهي تنتهي بقول الصولي : ـ آخر أخبار البحتري . وهذا أول شعره ... ـ وقد « أخذنا عنوان الكتاب من هذه الجملة الاخيرة » .

ولقد زاد ايماننا بصحة هذه التسمية ما وجدناه من تشابه كلي في طريقة التأليف ومنهج العرض والتبويب ، بينه وبين كتاب الصولي ـ أخبار أبي تمام ـ ... ونحن أمام هذا التماثل الاكيد ننطلق الى أبعد مما ذكرناه ، فنحن نزعم ان كتاب أخبار أبي تمام هو في حقيقته وأصوله مقدمة للصولي قدم بها لديوان أبي تمام الذي جمعه ورتبه على حروف المعجم ...

تقع مقدمة الناشر التي اقتبسنا منها هذه الفقر في (٤٢) صفحة ، يليها الكتاب نفسه ويقع في (٩٠) صفحة وفيه : اتصال المؤلف بالبحتري ، ما جاء في تفضيل أبي تمام ، ما جاء في تفضيل البحتري ، أخبار البحتري مع المتوكل والفتح ابن خاقان ، أخبار البحتري مع الخلفاء بعد المتوكل ، أخبار البحتري مع الوزراء والكتاب ، واخبار متفرقة .

والكتاب على صغر حجمه كثير الفوائد ، وهو يعين على تفهم البحتري وعصره ، ويهم مؤرخي النقد الادبي عند العرب .

ثم ان المحقق الفاضل ، رغبة منه في أن تكون الصورة التي يرسمها الصولي في أخباره عن البحتري كاملة ، عمل ذيلا للكتاب جمع فيه من كتب الصولي الاخرى المطبوعة والمخطوطة ومن المصادر التي نقلت عنه ، تلك الاخبار التي لم يوردها في هذا الكتاب عن البحتري . وشغل هذا

الذيل حوالي (٤٨٠) صفحة تلتها فهارس مختلفة ونافعة .

وما بالجهد الذي بذله المحقق في المراجعة والمقابلة حاجة الى دليل . ولا يحتاج الاخلاص في البحث الى برهان . هذا الى أن النهج الذي اتبعه علمي وسليم جدا ... وأقل ما يدل عليه هو تمكن المحقق من النشر ورغبته فيه وولعه به وحبه له ... والخدمة الجليلة التي يمكن أن يقدمها في هذا الميدان لو أتبع هذا الكتاب بكتب اخرى ، ولاشك في أن المجمع العربي بدمشق يقدر مثل هذه « الموهبة » ويرعاها .

وللمحقق دراسة قيمة للبحتري نرجو أن ترى النور . كما نرجو أن نرى لديوان البحتري الطبعة العلمية التي يستحقها .

ان امامنا في التحقيق والبحث طريق طويل يجب ان نعد له العدة ونجند له الجهود لكي تبعث آثارنا على شكلها الاكمل الذي يهيء للدراسة العلمية الكاملة ويعد للاستنباط الصحيح .

شعر صفي الدين الحلي

تأليف جواد احمد علوش ، بغداد (مطبعة المعارف) ١٩٥٩

رسالة نال بها المؤلف الماجستير (بدرجة جيد جداً) من كلية الاداب بجامعة القاهرة عام ١٩٥٣ . وبعد - زيادة بسيطة وتنقيح يسير - نشرها في بغداد (وهو مدرس بكلية التربية) .

مهد الاستاذ علوش لبحثه بمدخل (ص ١١ - ٤٢) تناول فيه البيئة الطبيعية والحياة السياســية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والادبية في العصر (بين الحلة وماردين) مما يعد القاريء لمعرفة صفي الدين ويساعد على فهم شعره

ينفتح الباب الاول وهو يدرس سيرة الشاعر (٤٣ - ١٠٨) فيتحدث عن حياته و « صفي الدين سنبسي طائي ... ولد عام ٦٧٧ هـ في الحلة ... وبها نشأ وترعرع ... وكان محبوباً بين الناس... »

ومن يك مثلي كامل النفس يغتذي قليلاً معادية كثير المصاحب

وكان لأسرته الرئاسة في الحلة ، وكان خاله صدراً فيها ، وحين اختل الأمن في العراق قتل آل الفضل الصدر فعمل صفي الدين على الأخذ بثأر خاله وقامت معركة بين آله وبين اعدائه ، تلك هي وقعة الزوراء التي قال فيها قصيدته المشهورة :

سلي الرماح ...

وابدى فيها شجاعة فائقة . وظل اعداؤه يتحينون به الفرص ، مما حمله على مغادرة الحلة الى ماردين (عام ٧٠١) ليحتمي بكنف الملوك الاتقيين « ويظهر ان هذا العام اغزر اعوامه انتاجاً » .

وحين هدأ الصفي وزال خوفه عاد الى عمله المحبب وهو التجارة ، فعاد يجوب الأقطار ويرحل الى البلدان . وزار حماه ، واقام اقامات قصيرة في العراق (دون ان يقصد الى الحلة) ، وحج ، ثم قصد الى مصر ثم عاد الى ماردين فالعراق .

ومات في بغداد عام ٧٥٠ ودفن فيها (على خلاف طفيف في تاريخ وفاته) .

ويبحث الاستاذ علوش في الباب الأول هذا : اخلاق صفي الدين وثقافته وعقيدته الاسلامية وتشيعه .

اما الباب الثاني فمقصور على شعر الصفي . ويتميز الصفي في شعره باهتمامه بالمحسنات اللفظية كالجناس والطباق ... وبطغيان الروح الحماسية وبالمبالغة . اما اسلوبه فجزل رصين لا تزال فيه بلة من الفصاحة والرشاقة . وكثيراً ماترى في شعره ما تتطلبه الخطابة من العبارات الرنانة والتكرار . اما ألفاظه ففصيحة سهلة ، واما معانيه فطريفة .

وأهم غرض طرقه الصفي هو الحماسة ثم المديح (والمدائح النبوية) ، الرثاء ، الأخوانيات ، الغزل ، الخمريات ، الطرديات ، الوصف ... ونظم الصفي في الفنون المستحدثة وهي الموشح (وقد افتتن به افتتاناً عظيماً) ثم المسمطات والزجل والمواليا والكان وكان والقوما .

وذيل الاستاذ علوش الباب الثاني ببيان منزلة الصفي الأدبية : ولقد كان مبدعاً بالرغم من ان عصره لم يكن عصر ابداع ، وكانت منزلة الأدبية لا تقل عن منزلته الاجتماعية لأن شاعريته لم تكن عادية ،

فهو شاعر فحل ذو طبيعة مؤاتية سهلة وموهبة طيعة فطرية . وقد ذاع شعر الصفي في مختلف البلاد ، ووصل بين الشعراء المتقدمين ومن جاء بعده من أجيال .

هذا موجز لكتاب صفي الدين الحلي ، وهو لا يغني عن الكتاب أبدا . وان كان يشير الى سلامة منهج المؤلف وحسن تبويبه ، ويشير كذلك الى صعوبة طرق موضوع من هذا النوع من ذلك العصر .

ومن يرجع الى الكتاب نفسه ير أشياء كثيرة اخرى ، منها دقة البحث ، وجمال العرض والعبارة ، والاخلاص في العمل والزمن المبذول ، والجهد الذي اخرج الصعب سهلاً .

ويجب انه لا ننسى انه بحث بكر ، قدمه صاحبه بكثير من التواضع اذ قال : « ولا يمكن أن اعتبر هذا البحث قد استكمل من جميع الوجوه ... » هذا تواضع ، وان كانت هناك هنات فلاشك في انها هينات ، وان المعلومات التي جمعها وعرضها وناقشها وأجاد تبويبها وأحسن عرضها ثم الآراء والتعليقات والمناقشات المناسبة ، كل اولئك ليسد الباب بوجه من يتعرض له على غير علم بالمادة والمنهج .

الا ان (شعر صفي الدين الحلي) كتاب رصين نضيفه بفخر واعجاب الى سلسلة البحوث القيمة في المكتبة العراقية . ودليل جديد على ان (الشباب العراقي) يجيد ويبدع عندما يتهأ له الدافع على البحث ، يتحقق الجو المناسب .

وكم كنا نود ونحن نقدر للمؤلف جهده ان يبر بوعده الذي قطعه على نفسه اذ قال : « ... كنت ولا أزال أفكر ان هذا البحث ان هو الا باب استطيع ان ألج منه عالم البحث والدرس والجد » . ولقد ولجه كما يجب فليحدثنا بما جد له بعد ذلك مما يغني المكتبة العربية ويوفر على طالبي المعرفة كثيراً من الجهد والوقت .

تحية الى شاكر جابر مؤلف قصة

الايام المضيئة

هذا فنان يولد ، انه قصاص وتهنأ به القصة العراقية . .

وميلاد القصاص ليس سهلا ، انه حدث يبدأ به تاريخ انسان وتاريخ شعب . . وفكر وابداع .

والبلد الذي يعرف قدر الفنانين ، وقدر النابغين ، يعرف كيف يرعاهم بحيث تنمو البذرة وتتفتح الزهرة وتثمر الشجرة .

هذا في البلد الذي يقوم على وعي لمهمة الفن ورسالة الفنان . اما فيما سواه فيموت في كل يوم فنان ، تعصف به الرياح وهو اول وتدفعه الصواعق قبل ان يستقبل النور . . ولا ينجو ، ولا يقاوم الا القليل ممن كان له العناد الخارق والثقة المعجزة . . وهذا ما حدث للافذاذ من كبار الفنانين الذين قاوموا وثابروا فنجحوا وهذا ما نريده لادبينا الوليد .

ولقد اثبت وهو يطلع على الملأ انه يستطيع ان يصمد وان يحقق وجوده وان يتفجر هذاالوجود عن جمال ، واذن فليواصل سيره غير ابه بالمثبطات اومكترث بالاشواك . . وغير راج تشجيعاً او طالب ثواباً .

اخي شاكر :

لقد حاولت ، فنجحت . . والذين يحاولون كثيرون ، وكلنا نحاول ، حينا في القصة وطوراً في الشعر وتارة في النقد . . والمحاولة ـ وان

كانت لازمة ـ ليست صعبة ، لانها ممكنة وسهلة التناول . ولكن الذي ليس بامكان كل انسان هو ان تنجح المحاولة وان يجد المرء نفسه : وقد تهيأ هـذا لك وكان بامكانك ، فلقد نجحت على احسن ما يكون عليه نجاح في محاولة ، ولا اجاملك ، ولا داعي الى المجاملة ، اذا قلت لك انها كانت اكثر من محاولة . وارجو ان تكون قد وجدت نفسك ، ولقد كشفتها لنا ـ كما هي ـ طيبة عمقية نابغة ، تطيل التأمل وتحرص على خير الاخرين وتحلو لها التضحية .. وليس من المعقول ان تتضح لنا وتغمض عليك .

انك تطيل التأمل وتحاكم الاشياء بضميرك وتلتقط الالتفاتات بحسك ، وتجد في تثقيف عقلك وتصبر على الشدائد وتنظر الى المستقبل بتفاؤل وتثق بالانسان فتحله فوق كل جميل وتسهر من اجله ومن اجل سعادة المضطهدين ..

لا اشك في انك تعرف كل هذا في نفسك وتعرف اشياء اخرى اعمق وامتن حتى ليبدو لي انك لا تخلو من حيلة تدرك بها حيل الاخرين ولا من دهاء تستعين به على الدهاء .

تعرف ذلك .. ولا افجؤك اذا قلت لك : ان تلك الامور ، على جلالها ليست شيئاً كبيراً ، وانها ليست هي التي تحلك المنزلة الخاصة بين الناس ، فانها ان توفرت لك فقد توفرت لكثيرين غيرك ، وقد تتفوق عند بعضهم على ما هي عليه لدى شاكر جابر .

اجل ، انها ليس كل شيء لديك ، انها عظيمة ولكنها عوامل مساعدة ـ كما يقول اهل الكيمياء ـ اما الجوهر الفرد ، والصفة الاجمل ، والمزية التي دفعتني الى كتابة هذه الرسالة فأمر آخر يدركه كل من قرأ « الايام المضيئة » فأعجب ، ولم يحل حائل بينه وبين الثناء والاطراء وقول كلمة الحق ..

وفرح بميلاد قصاص عراقي جديد يمكن ان يكون كبيراً .. اذا ثابر وصمد وصابر .. وكتب ومزق ، ومزق وكتب .. ونشر ونشر ، فالاستمرار شـــرط اخر للنجاح ولوضوح الشخصية ولتوطيد الفن .. وحتى السمعة ، فلئن كانت المحاولة سـهلة ، فان نجاح المحاولة الاولى ليس صعباً جداً ، وليس نادراً جداً . . انما الصعب والنادر ان تستمر وتستمر فتصل الخبرة بالخبرة والنجاح بالنجاح وتثبت على ان المسألة ليست سحابة صيف وليست نزوة عابرة . .

وآمل ان تثبت وتواظب ولا اشك في ان « الايام المضيئة » التي طلعت بها علينا لم تكن اول ما كتبت انما هي ثمرة لخلق في الجد والاصرار فكانت ثمرة لاستمرار صامت .

ان مثل هذه الموهبة - ياشــاكر - ليست يسيرة تراها على قـارعة الطرقات او تعثر بها كل يوم ، انهـا شيء نادر وغال وعزيز ، وان كنت لا تعرفها جيدا ، ولا تقدرها حق قدرها فأرجوك ان تعيها وتغذيها وتنهض بها وان تتحمل في سبيلها الاتعاب والمشاق .

اوجه الخطاب اليك لانك المسؤول الاول ، ومن قرأ قصتك ورآك من خلالها وخلال ومضات من « محمود » وثق بك واعتمد عليك واوصاك بنفسك وحملك من المسؤولية ما انت اهل له .

انك لتقصر في نفسك وفي حق بلادك التي تحبها وحق الانسان الذي تحله فوق كل شيء وحق « وهاب » والبستاني وحمندوش . . وحتى « بهجت » ان تهاونت في الكتابة وتوانيت عن الانشاء .

واوجه الخطـاب اليك ثانية ، لاني لم اجد من اوصيه بك غيرك . . وكم كنت اود ان اجد . وما حيلتي .

عزيزي شاكر :

ان من كانت باكورته « الايام المضيئة » لجدير بان يثني ويثلث بما هو اجل واعظم فانت متمكن من الفن القصصي ، تعرف كيف تختار شخوصك ، وتعرف كيف تختصر الاحداث التي تثقل على القاريء وتعبر الى ما هو ادق وأدل وكأنك لم تختصر ، وتعرف كيف تلتقط الحوار المناسب وتتصيد الالتفاتات النفسية ، وتسخر حين تحلو السخرية وتمر .. فتؤلف قصة هي صورة حية من مجتمع ، وهي صفحات من نفوس وهي حرارة وثقة وايمان وسير بالانسان الى الامام الى حيث يجب ان يكون .

لقد ارخت بقصتك جيلا كاملا بآلامه وآماله بين السجون والكتب الممنوعة والطغيان والسلطة الظالمة والاستغلال والجشع والمترددين والمنافقين وضعاف النفوس والجهلة ومحتقري الانسان ... وبما ينطوى عليه العامة والسذج من خميرة النفوس الطيبة المتفائلة التي تدعو بيسر الى حب الانسان وتحبب خدمته . انك كاتب اصيل وان اصالتك لتتألق في هذا الميدان ، واني لاقدم قصتك بفخر لمن يطلب الى قصة عراقية يقرؤها أو يترجمها الى لغة اجنبية ...

عزيزي شاكر

هذا قليل من كثير عما يمكن ان يقال في « الأيام المضيئة » . وارجو ان لا تحسب اني اقصد من وراء ذلك الى التشجيع واني ارتكب من اجل ذلك ما يقتضيه التشجيع لقد قرأت القصة وانا لا اعرف من هو شاكر جابر ولا يهمني كثيرا ان اعرفه لولا هذه القراءة ، فكم من شاكر وكم من جابر وكم من قصة !!! قرأتها فاستغرقت وانتشيت ورأيتك في كل سطر وحرف وعلى صفات كثيرة يمكن ان اؤلف منها

قائمة طويلة مبتدئاً من التواضع والبساطة . . والخجل . . الى الذكاء . . ومنتهيا - كما رأيت - بالحذر والدهاء والتعقيد . ولكن هذه القائمة ليست ذات قيمة ، وانها لوصفة طبيب « غشيم » يرسـل بها الى صيدلي « غشيم » ، لان المسألة أبسط من هذا بألف مرة ؛ انها اذ يقرؤك القاريء يجدك . . حبيباً الى نفسه قريباً الى قلبه عزيزاً على وجوده . ان قارئك - يا شاكر - ما يكاد يبدأ حتى « يحبك » ، وليس هذا سهلا ، انه كنز اذا تكلمنا بلغة المال ، وهو عنصر مهم بين عناصر الفن اذا تكلمنا في الفن .

قرأت فاعجبت فـ . فـ ... ثم طويت الصفحة الاخيرة وخرجت الى اتحاد الادباء ... أتدري لماذا ؟؟ لقد خرجت ابحث عن اصدقاء طيبين ابشرهم بميلاد القصاص الجديد وادعـوهم الى قرأة القصة الجديدة ، خرجت لاني شعرت بحاجة الى ان افيض بتلك السعادة التي عمتني على الناس ، واني ولا اخفيك ، لو لم اجد الطيبين اخبرهم وابشرهم لاخبرت غير الطيبين وبشرتهم لان « الايام المضيئة » مما تلين به القلوب الغليظة وتنار به النفوس المظلمة .

سلامي اليك يا شاكر ...

اجل ، فلم اكن اعرفك قبل اليوم ولم يعرفك الكثيرون ، اما اليوم فانت صديق ومحط اعجاب وموضع امل .

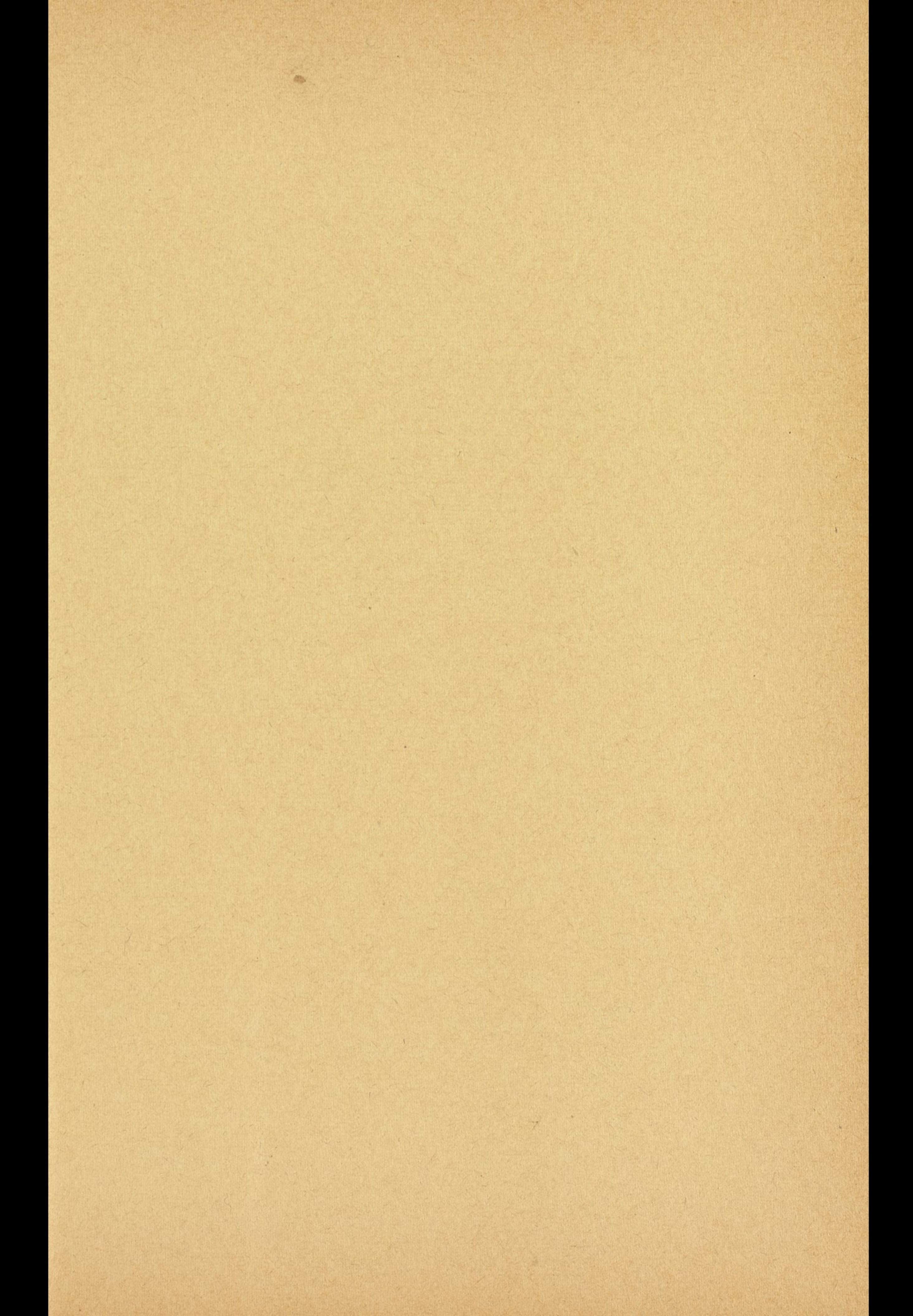
ولابد من الاعتقاد بان هناك في مجتمعنا « شاكرين » اخرين يغطيهم الغبار ، وتثقل كاهلهم الصخور ، وانهم ليجهدون في شق طريقهم ، فسلام عليهم ... والى اللقاء بهم في بواكيرهم ، وبك وبهم في الروائع التالية - والى اللقاء ...

١٤ تموز - ٢٢ تموز ١٩٦١

(٤)

شعراء من العصر السلجوقي

شعر



صردر

ابو منصور علي ابن الفضل ولد قبل الاربعمئة - من أب بغدادي رصافي ، ينبز بالالحاد ، بخيل ، « لقبه الناس من شحه ، صربعرا » .

ولم يحل هذا الوالد بين الابن والتعلم ، والتمرس باللغة والادب وقول الشعر ... ولعله كان يطمع أن يكون ابنه « كاتباً رئيساً » . ثم ان ما ينبز به الوالد من الحاد ، لم يمنع الابن من دراسة الحديث - والتدريس أحياناً .

شهد الشاعر العصر البويهي

وشهد الانقلاب السلجوقي فهو مخضرم .

ومدح وذم ... وذم من مدح ... وأثنى على ابن المسلمة .

ثم ضايقته بغداد أو ضايقه أبن دارست الوزير وأبن الحصين الكاتب فعزم على الهجرة حفظا لكرامته وحرصاً على عزته . وشد رحاله ، وأقام بواسط .

وجدت أمور ، وتغيرت أحوال ، واستوزر الخليفة القائم فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير ، فاهتبلها ابن الفضل فرصة ، وانفذها مدوية من هناك - بأكثر من تسعين بيتاً : يتغزل على عادة زمانه ثم يمدح ويهجو ، ويشكو ويرجو :

لحاجة قلب ما يفيق غرورها وحاجة نفس ليس يقضى يسيرها

وما الشعرات البيض الا كواكب مطالعها رأسي وفي القلب نورها

ثم تخلص الى الوزير والوزارة :

به غض ناديها ، وأشرق سعدها — وأفعم واديها ، وسدت ثغورها

فقل لليالي كيف شئت تقلبي — ففي يد عبل الساعدين أمورها

أعدت الى جسم الوزارة روحه — وما كان يرجى بعثها ونشورها

وكان طبيعيا أن يخز ابن دارست وكاتبه :

أظن ابن دارست الوزارة تلعة — بفارس قد عدت عليه بدورها

أقول وقد واراه عنا حجابه — رويدك دون الفاحشات ستورها

وأعلقه بابن الحصين سفاهة — ألا خاب مولاها وساء عشيرها !

وكان طبيعيا أن يتحدث عن أسباب هجرته :

..ولكنني ابعدت في الارض مذهبي — لا عزاز نفس قد جفاها عذيرها

وهجهج بي عن أرض بغداد ذلة — كوخز سنان السمهري حصورها

لأمثالها تعلو الجياد سروجها — ويلتقم الحرف العلنداة كورها

فكدت بان أنسى لذاك فصاحتي — سوى أن طبعا في الحمام هديرها

تركنا ربي «الزوراء» ينزو خلالها — جنادب يعلو في الهجير صريرها

وقلت : بلاد الله رحب فسيحة — فهل معجزي أفحوصة استجيرها ؟!

وقد تترك الاسد البلاد تنزها — اذا ما كلاب الحي لج هريرها

فدونكها للتاج يبتاع درها — «فرزدقها» غواصها و «جريرها»

انفذها من واسط ثم تبعها بنفسه فجاء « الزوراء » وشرع يوطد صلته ببني جهير ...

وحدث ان قطب الحظ « لفخرهم » فعزل ... ثم ابتسم فعاد ، فهتف صردر :

قد رجع الحق الى نصابه — وأنت من دون الوري ، أولى به

مشوقة اليك مـــذ فـارقتهـا شـوق اخي الشيب الى شبابه
من يعشق العلياء يلق عندهـا ما لقي الوامق من احبابه :
طورا صدودا ووصالا مــرة ولذة الوامـــق في عتابـــه
ما لؤلؤ البحر ولا مرجانـه الا وراء الهول من عبابة

اشتدت علاقته ببني جهير، ولا ســيما بعميد الدولة : محمد بن محمد ابن محمد : يمدحه ويثني عليه ؛ يهنئه ويبارك له ؛ يودعه ويســتقبله . حل النيروز مرة ، فرأى الشاعر أن يهدي للعميد « كتابا عوض الدراهم والدنانير » . ومرض الشـــاعر مرة فتعهده العميد بالعيادة ، وأرسل اليه من يبلغه دعاءه بالشفاء ، ويتمنى له الصحة والعافية .

هذا ، وغيره ، لطف ـ دون شك ... ولكن ما جدواه والشاعر لاينى يشكو ويشكو :

قد حزت الايام في كبدي وأطاف بي مس من الضر

ما جدواه ، والشاعر طامح طامح ، يجد في نفسه الكفاية ، ويسعى لمنصب يليق به ويرفع من شأنه ، ويحقق أمانيه . لقــد عرض عليه الوزير « الكتابة » ، ولكن شاعرا يعرف بصردر يأبى ويرفض :

انه لم يعد ابن صربعر ، ذلك المرحوم الذي أورثه معرة هجاه بها معاصره أبو جعفر البياضي اذ قال :

لئن لقب الناس قــدما اباك وسموه من شحه صر بعرا
فـانـك تنثـر مـا صـــره عقـوقا لـه وتسـميه شـعرا

وهل شح الوالدين ـ صح أم لم يصح ـ ذنب الابناء ؟ لا ... انها مسبة رخيصة يا أبا جعفر !

اما الشاعرية فان لم يكن ابو منصور بالشاعر الكبير ... فانه شاعر محسن ... جيد السبك ، جيد اللغة ... معدود في عصره ، ولقد

شهد له النقاد القدامي . وهـذا الوزير نظام الملك يستمع اه ويقول : أحسنت ، أحسنت ... انك صردر ... انك صردر ... وذهبت لقبا .

ولا ندري كم صر هذا الشاعر من هذا الدر ، وأكبر الظن أن العطايا ، من نظام الملك جاءت أم من غير نظام الملك ، لم تكن لترضي ما تهفو اليه نفسه ، وما يصبو اليه وجدانه . وكان هذا الطماح وهذا البحث ... مما طوح به فجعجع برحله من بغداد ... الى خراسان ، فوجد هناك ما يسد حاجة الانسان من الارض ، فقد تردي هو ودابته في حفرة حفرت للاسود ومات سنة خمس وستين وأربعمئة .

وقد خلف ـ فيما خلف ـ مسودات كثيرة من الشعر ، وصل الينا منها مجموع ، طبعته دار الكتب المصرية .

الباخرزي

علي بن الحسن بن علي ... الباخرزي ... وباخرز ناحية في خراسان .
و « الشيخ حسن » ابو علي ذو مال وجاه وذ فضل ... وشعر لم يترفع فيه عن المجون والسخف .

وقد تولى تربية ابنه وتعليمه وشغل به « وكده وكده » ثم أسلمه لعدد من جلة الفقهاء والمحدثين كالجويني مثلا . وكان شريكه في مجلس الافادة من الامام الموفق النيسابوري ، فتى اسمه منصور الكندري ... فقال فيه مداعباً :

أقبل من كندر مسخرة   للنحس في وجهه علامات

...   .

يحضر دور الأمير وهو فتى   موضع أمثاله الخرابات

نشأ علي ظريفاً ، ماجنا حد السخف ، وقد غلبت الدعابة دينه ، وطغى الأدب وعمل الشعر على فقهه . وكثر تنقله في البلاد ـ طامحاً وطالباً للعلم الأدب :

إذا استقبلتني الريح فيها تعجبت   وقالت لحاك الله : أين تريد ؟
تطاوعني الآساد وهي أبية   ويدنو إلي النجم وهو بعيد

طامحاً ، وطالباً للعلم والأدب ، وساعياً للمال والأعمال ... والكتابة في ديوان الرسائل .

ومرت الأيام وارتقت المناصب بالكندري حتى صار وزيرا لطغرلبك .

ودخل يوماً والباخرزي قريب عهد بالانتظام في ديوان الرسائل فلما وقع بصره عليه تذكره فأقبل عليه وقال : انت صاحب « أقبل » ، « فقال ايد الله سيدنا ، فقال تفاءلت بأبياتك اذا كانت مفتتحة بلفظ الاقبال » .

وقصده الباخرزي من خراسان - وهو بمدينة السلام فلما رآه الوزير خلع عليه قبل انشاده وقال له : عد غداً وأنشد . فعاد في اليوم التالي وأنشد : -

أقوت معاهدهم بشط الوادي　　فبقيت مقتولا وشط الوادي

......

قالت وقد فتشت عنها كل من　　لاقيته من حاضر أو بادي :-

أنا في فؤادك فارم لحظك نحوه　　ترني ، فقلت لها : وأين فؤادي!

ثم مدحه (كالعادة) بالشجاعة والكرم

ثم استجداه - كالعادة أيضاً : -

فنداك منتجعي ، وبابك مقصدي　　وهواك راحلتي ، ومدحك زادي

ولسوف تعلو باعتنائك همتي　　حتى أنص على السماك وسادي

« فطرب الكندري وارتاح » حتى اذا « فرغ الشاعر - من الانشاد قال ... لأمراء العرب : لنا مثله في العجم ، فهل لكم مثله في العرب ؟ ثم نفحه بعطاياه وأمر له بألف دينار .

لقد بالغ الكندري في الثناء على شاعره ، وقد جامل أمراء العرب الوزير أكثر مما يجب - وما كانت الدالية غرة من الغرر - قط .

وليست كل ابيات الباخرزي في الكندري مدحاً وشكراً ، فقد وصف طرفاً مما هيأت له بغداد من حياة رخيه تناسب

مزاجه ، لاهية تشغله عن سواها :

فها انا في بغداد أرعى رياضها وأرتع منها في الرفاهة والخصب

وأسحب أذيالي عليها «وكرخها» مظنة أطرابي «ودجلتها» شربي

وأسبأ من حاناتها عكبرية أرق من الاعتاب في عقب العتب

وفي إقامة الباخرزي في بغداد « أسعد » بانشاد الخليفة القائم بائيته :

عشنا الى أن رأينا في الهوى عجباً كل الشهور وفي الامثال: «عش رجباً»

ووصف لوعته فكان شأن كل محب كاذب في زمانه :

اذا توقد برق من جوانبهم توقد الشوق في جنبي والتهبا

ولا تسل بعد ذلك عن الدموع .

ووصف « الحبيبة » ، وكانت شأن كل « حبيبة » :

اذا رنا طرفها لم يدر رامقها أتلك أجفان ظبي أم جفون ظبا

ولا تسل بعد ذلك عن الغصن وتشبه .

ووصف المهمه ، ثم مدح الخليفة وكان كما تخيله « جيب » الشاعر وليس كما عرفه التاريخ .

وعلى فخر الباخرزي « ببائيته » هذه : « قرعت شقاشقي أعواد السرير بما ملكت فيها من الهدير » فانها ليست على شيء مما يدعي .

ودارت الأيام

وعلا نجم نظام الملك وأصبح الوزير الكبير ، وكسف الكندري ولقي الاقصاء والسجن والتعذيب والقتل فما أعرب شاعره عن إخلاص انما مال مع الربح فمدح السلطان وانضوى تحت الوزير الجديد يمدحه ويخدمه ويبحث بين يديه عن رزق له ولعائلته واصغاره ...

«وارتفعت الاحوال وانخفضت ، ورأى من الدهر العجائب» ... وراح يسافر ويسافر - وكأنه يضمر تأليف كتاب يجمع فيه ما يسمع من الأشعار والأخبار ، يتحدث عمن يلقى من الأعلام ويخبر عما يرى من الأحداث - وقد فعل اذ ألف «دمية القصر».

والباخرزي صاحب «ديوان» قبل أن يكون صاحب «دمية» . وفي بغداد مخطوطة لهذا الديوان . وفي لندن مختارات منه باسم «الاحسن» وفي ملحق الدمية المطبوعة مختارات أخرى باسم «الملتقط» . والكميه في كل ذلك غزيرة - والحمد لله : تتقلب بين المديح والنسيب والشكوى وما لا تسمح روايته من الهجاء والسخف والغزل بالمذكر ثم العاب بديعية ، ومخاريق ذهنية . ومبالغات تتعدى حدود الغلو والكفر مع فساد في الذوق ، ثم ركة سائدة ونثرية شائعة ...

مع كل هذا ورأي الشاعر بشعره حسن جدا جدا . فهو « ينسى قفانبك » و « ويعلو الشعري» و « لا يعيبه الا جاهل » - اللهم اكتبنا في الجاهلين .

ولا يقل عن رأيه رأى معاصريه ورأى النقاد القدامى ، حتى قال قائلهم - وهو العماد - « كان واحد دهره في فنه وساحر زمانه في قريحته وذهنه ، صاحب الشعر البديع والمعنى اللطيف » وقال « لقد رأيت أبناء العصر بأصفهان مشغوفين بشعره متيمين بسحره « وغلا آخر فعده » أشعر الناس - واستغفر الله .

مساكين ابناء المئة الخامسة والمئآت التالية لها . ومسكينة قيمهم واذواقهم عفا الله عنهم فقد كانوا يبالغون في التساهل : كلامهم جزاف وكيلهم بلا ثمن ولا مكان للموهبة والاصالة والموسيقى في موازينهم .

ولم تختلف احكام النقاد الفرس عن أحكام العرب ، وقال عوفي - مثلا : « لقد أصبح الباخرزي » في اللغتين علما يرتفع فوق أرجاء العالم ، وتمكن من أن يسلب فضلاء الزمان قصب السبق في هذين اللسانين » .

أيكون على هذا ، شعر الباخرزي باللغة الفارسية مثل شعره باللغة العربية ؟ أرجو الا يكون .

ورحم الله الباخرزي

فقد توفي مقتولاً ، في مجلس أنس وشراب ، بباخرز ، وذلك سنة سبع وستين واربعمائه ـ وذهب دمه هدراً .

الأبيوردي

أبو المظفر ، محمد بن محمد ، من أحفاد معاوية الاصغر ... الأموي .

ولد في كوفن قرب أبيورد في خراسان .

وأمضى عنفوان شبابه في رخاء وأنس لم يمنعانه عن التعلم والدرس .
قال الشعر مبكراً .

وسافر في البلاد . « وأقام في بغداد عشرين سنة حتى يمرن طبعه على العربية ، ولكنه ظل مع ذلك يرتضخ لكنة » .

وفي العراق مدح الخلفاء والوزراء والأمراء . وشغل خزانة المدرسة النظامية .

وفي عهد المسترشد ورد المستنفرون من أهل الشام يؤلبون على الصليبيين ؟ فثارت ثائرة الشاعر واستشاط غضباً ، فكانت الميمية :

مزجنا دماءاً بالدموع السواجم   فلم يبق منا عرضة للمراجم

ثم ترك بغداد

وأمضى سنيه الأخيرة في الري وأصفهان وهمذان - في ضيافة الصدور والوجهاء - الى أن تولى اشراف الممالك . وكان في منصبه هذا حين سقي السم بأصفهان ، فمات سنة سبع وخمس مئة .

وقد خلف فميا خلف - ديوان شعر جمعه بنفسه وفننه فنونا وقسمه الى نجديات وعراقيات ووجديات . وصلت الينا مخطوطات هذه الاشعار

والفت منها ـ بيروت ديواناً واحداً طبعته منذ اكثر من ستين عاماً ، طبعة غير علمية ، أكبر عيوبها ، حشرها ـ عن جهل ـ كثيراً من شعر الغزي .

وفى ديوان الأبيوردى مدح كثير وشيء من الرثاء وشيء من الهجاء وكثير من نسيب يستطرف دون أن يكون صادقاً . اما لغته فسلمية واما تراكيبه فحسنة .

والوهم حقيقة الشاعر الكبرى ، عاش فيه وأخلص له ؛ وقد ظهر ذلك في فخره سافراً ، عجيباً .

وقد روى العجلي ، قال : سمعت الأبيوردي يقول في دعائه . « اللهم ملكني مشارق الأرض ومغاربها فقلت له : أي شيء هذا الدعاء ؟ فكتب الى بهذه الابيات :

يعيرني أخو عجل إبائي على عدمي ، وتيهي واختيالى
ويعلم أنني فرط لحي حموا خطط المعالى بالعوالي

....

وإن بلغ الرجال مداي فيما أحاوله ، فلست من الرجال

ولم يكن العجلى ليجهل نسب الابيوردي ، ولكن الذي أثار استغرابه ، ما يعرفه من قصر باع صاحبه ، صاحبه الذي يطمع برتب لم يبلغها انسان ، دون أن تتهيأ له الاسباب ودون ان يعمل على تهيأتها ، وحسبك انه يسعى الى الخلافه ، مثلا :

فما اربي الا سرير ومنبر وذكر على مر الزمان يدوم

وانى له ذلك ؟ وكيف ؟

ويتعب من يحاكم الابيوردي محاكمة منطقية ـ ان المنطق يضيع على صاحبه متعا كثيرة ، ويفسد له جواً طريفاً ظريفاً ...

واتعب من المنطقي ، واقرب الى الحماسة والغنائية من يأخذ الأبيوردى على ظاهر أقواله غير ملتفت الى تناقضه ، او انحطاطه ، معتبراً هذيانه حقيقة ، ، وخفته ثقلا حتى ليقول - مثلا : « اما اخلاقه فقد كانت اخلاق الصيد من الملوك ... » و « اما الشعر فكان ينظمه ترويحا للادب لا للنشب وللوفاء لا للعطاء » وما الى ذلك من الكلام التجريدى الذي يدل على حسن ظن المتكلم .

واذن فالأعقل والأولى أن نترك الأبيوردي على سجيته ، ولا أطيب له من أن يفخر ، ولا ينسى ان يدعي بأنه أضاف عزاً الى عز . مدح اباه مرة فقال :-

فانك أصل طيب أنا فرعه وأي نجيب سل من أي ماجد !

أما اذا فخر بماضي اجداده ، فانه لا ينسى أن يفخر بضمير المتكلم :

ملكنا أقاليم البلاد فأذعنت لنا رغبة أو رهبة عظماؤها

ولا ينسى مجده الذي أضافه الى مجدهم :

جدي معاوية الأغر سمت به جرثومة من طينها خلق النبي
وورثته شرفاً رفعت مناره فبنو أمية يفخرون به وبي

ويبدو انه كلما اسود حاضره وضاقت دنياه ازداد تعاظما :

الناس من خولي والدهر من خدمي وقمة المجد عندي موطيء القدم

على ان هذا ، ليس مستغرباً من أمثاله ، وهو معقول في المنطق الأدبي .

ان هذه الثقة الزائدة ، حقيقة كانت ام موهومة : في الشعر أم في السعي الى الخلافة ، هي سر الطرافة في كيان الابيوردى ، وهي اساس

شخصيته ، ومفتاح نفسيته ، ومجلى أصالته ، ثم هي كل ما بقي منه .

واننا اليوم اذ نحس حياة في شعره ، ففي الفخر . وقد مثل منه الابيوردي شكلا خاصاً ، ذلك انه يفخر بما يتصور أنه عليه ، وأنه من حقه . وأنه أهل له . وأحلامه صحيحة في نفسه ، ولا تشترط الأحلام مقدمات منطقية .

وينتبه الابيوردي الى شيء . كان عليه أن ينتبه اليه مبكراً ، او كان عليه أن يقف عنده ، لأنه كل ما يملك ، كل ما يمكن أن يعتد به : انه شاعر ، وإذن ، فالاولى أن يفخر بقوافيه وبقريحته ، وبما يهيؤه له هذا الشعر من مكانة بين أدباء عصره ومن مكانة لدى صدور زمانه . وها هوذا يحدثنا ويقول بصريح العبارة : ان قوافية غضة ، غراء تزين أجياد العواطل ، شرود سوائر . « يهوى ملوك الأرض أن يمدحوابها » . « يصغى الحسود لها ملآن من طرب » . انها تسكر القريب وتهز البعيد .

ولكن الابيوردي لا يمكن أن يقف - حتى في هذا ، عند هذا ، واذن فلا بد له من أن يقول :

كلماتي قلائد الاعناق سوف تفنى الدهور وهي بواقي

ويقول :

لحقت بها شأو المجيدين قبلها وهيهات أن يؤتى بأمثالها بعدي

وصحيح أن الابيوردي شاعر محسن ، ومجيد ، اوتي حظا من الفصاحة ونقاء الديباجه ، وواتاه النفس والامكان ... ولكنه ليس بالعظمة التي يتصورها ، ثم ما هذه الثقة الزائدة « الا انه لاشاعر بعدى » .

ابن الشبل

أبو علي بن الحسين من أهل شارع دار الرقيق ، ولد ببغداد سنة احدى واربع مئة ، وبها نشأ وتعلم ، ودرس الادب والشعر وما اليهما حتى عد من شعراء زمانه وكبار نحاته ، وسمع الحديث وتفقه ، وطلب العلوم المنقولة وأصبح حكيماً فيلسوفاً ومتكلما فاضلا ، قوى الاطلاع في العلوم الحكمية والاسرار الالهية ـ وعد في الاطباء العراقيين .

لم يكن ابن الشبل فيلسوفاً بمتهنا حسب ، فقد كانت قضايا « الوجود » الكبرى تشغل فكره ونفسه وكان يسائل « الفلك المدار » عن الجبر والاختيار والقدر والقضاء :ـــ

بربك أيها الفلك المـــدار ‏ ‏ ‏ ‏ أقصد ذا المسير أم اضطرار ؟

ويحاول ان يفهم الدنيا :ـــ

هي العشواء ، ما خبطت هشيم ‏ ‏ ‏ ‏ هي العجماء ، ما جرحت جبار

ويتساءل عن الاسباب التي يؤخذ بها البريء بجريرة غيره :

نعاقب في الظهور وما ولدنا ‏ ‏ ‏ ‏ ويذبح في حشا الأم الحوار

ثم يسائل عن الحياة والموت . وعن الامل والخوف ، عن الطمع والقناعة ـ وهو بذلك في حيرة تأخذ به نحو التشاؤم والسخرية ونحو أشياء اخرى .

ومن كانت هذه نفسه ، وكان هذا مزاجه .

أثاره كل شيء ، ووجد في موت ، أخيه العزيز عليه سبباً ، أي سبب :

نتمنى وفي المنى قصر العمـ ـر فنغدو كما نسر ، نساء
صحة المرء للسقام طريق وطريق الفناء ، هذا البقاء

. . .

ما لقينا من غدر دنيا ، فلاكا نت ، ولا كان أخذها والعطاء
خلب تحت راعد ، وسراب كرعت فيه مومس خرقاء (١)

هكذا يسوء ظنه بالدنيا ، وهكذا تظلم في عينيه ، ولابد من أن يكون ابن الشبل شديد الحس ، شديد الشعور بكيانه ، شديد الطمع بالخلود والتشبث بأذيال البقاء - ولابد من أن يكون التأثر قد بلغ منتهاه حين جر اليه معنى من أغرب المعاني وصورة من « أجمل » الصور ... سراب . كرعت فيه مومس خرقاء . وكل الناس يعرفون السراب الخادع والخداع ، وكلهم حين يتألمون لأمر يقولون : سراب . ، . اما سراب أبي علي فأغرب وأعمق ، وألأم وأقذر . - فإياك .

القى هذا السراب علي ابن الشبل دروساً بليغاً ، منها هذا الحذر والتأني :

فلا تعدن رزقاً ما ظفرت به الا اذا دار بين الحلق والحنك
اما : لا ، فلا !

لأن الدهر - برأيه - أبو العجائب - والزمان - أعوج - وقد - تجرد الناس من الخير - وطغت عليهم - السفاهة - وتشابه لديهم - العقوق والبر - و - العدل والجور - فضاع بينهم - المستقيم - وأغفل

(١) خلب : في المخطوطة ، صلف - وهي من تصحيحات استاذنا الدكتور مصطفى جواد -

الذكي وجاع الكامل الى ما هناك من آراء سود أملاها عصر أسود .

وربما خلد أبو علي الى التجمل حينا ، وابدى الراحة ولزوم السكوت واظهر القناعة ، لان في ذلك عزاً :

لاتنكرى عز الكريم على الاذي — فحين تجوع الضاريات تهاب

ولكن الى أمد . الصبر الى أمد . والتعفف الى أمد :

قالوا القناعة عز والكفاف غنى — والذل والعار حرص النفس والطمع
صدقتم : من رضاه سد جوعته — ان لم يصبه بماذا عنه يقتنع . .

وشكوى - أبي علي - لاتنتهي ، ويشتد برمه ويشتد . ويعود يعوذ بالصمت محتقرا رحمة الناس . ثائرا على عذلهم وعذرهم :

لاتظهرن لعاذل أو عاذر — حاليك في السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين حرارة — في القلب مثل شماتة الأعداء

داعيا الى اعتزالهم :

فالشيء يدهى بالأذى من جنسه — مثل الحديد جنى عليه المبرد

يعتزل ويطوى آماله - وهيهات . فهو ونفسه في حساب وعتاب دائمين . وانها لتنكر عليه العزلة ، وتوبخه على اليأس . ويشتد الصراع فيجهد لأن يقتنع ويحلل ويعلل ، فما زالت فيه بقية من أمل ، ولربما تغلغل الماء في الحجر الصلد :

فلا تنكرى بعدي عن الناس انما — يضم الأسير الكف من الم القد
عسى هبة للدهر تثني صروفه — فيعدل من فرط الوعيد الى الوعد

فان لان من فرط العتاب فربما تغلغل لطف الماء في الحجر الصلد

ويعيد النظر .

فتمتد النظرة القلقة ... وتجره الى ما هـو أبعد من القلق - الى الايمان بالقضاء :

وكأنما الانسان فيه غيره متكون والحسن فيه معار

متصرف واه القضاء مصرف ومكلف وكأنه مختار

. . .

فيظل يضرب بالملامة نفسه ندما اذ لعبت به الأفكار

لايعرف الافراط في ايراده حتى يبينه لـه الاصدار

وهكذا يسير ابن الشبل نحو استقرار جديد ، لعله كان المخرج المحتوم لمآزقه الفكرية التي كانت تخلقها ظروفه . واحدة بعد واحدة وكادت تودي بعقله .

والعمر أثره ... وللنكبات آثارها ... وها هو ذا يهرب من طائفة من الغز ، يهرب يبغي النجاة ، فيقع به غيرهم ويأخذون ماله :

خرجنا من قضاء الله خوفا فكان فرارنا منه اليه

وأشقى الناس ذو حزم توالت مصائبه عليه من يديه

تضيق عليه طرق العذر منها ويقسو قلب راحمه عليه

اي نعم ، المسألة اصبحت لديه مسألة قضاء :

وكم من من طالب رزقا بعيداً أتاه الرزق من أمد قريب

والعكس صحيح !

هذا هو ابن الشبل ،

وهذا هو ملخص شخصيته : نفس مفكرة لاتكاد تستقر ، واذا

استقرت فهي مجبرة ، وتظل عنيفة في كل أطوارها . حتى في استسلامها .

ثم انه كان ظريفا ... ومن ظراف بغداد المعدودين ... ولم يحفظ لنا المؤرخون امثلة على هذه الصفة الملازمة التي كروها وكرروها ، وأكبر الظن أن تلك الظرافة ليست سفاهة رخيصة ، وليست كما كانت تبدو للناس ، ولابد من انها كانت ذات صلة بعنف نفسه وعنف « وجوديته » ولابد من ان تكون تشاؤما اخذ شكلا آخر ، هو الظرافة المرة ... العنيفة .

وكان الذي يهم الناس - منها هو الظاهر - .

ومن كان ظريفا تسابقت اليه المجالس والكؤوس فوجدت فيه « النديم المطبوع » ، واذا دعا الى الديارات لباه الحاضرون والغائبون ... يبغي الناس عنده النكات والنوادر ويبغي منهم ومن خمرتهم : النسيان والتعلل :

...قم فاجل في فلك الظلماء شمس ضحى	بروجها الدهر كاسات وكاسات
لعله ان دعا داعي الحمام بنا	نقضي وأنفسنا منها رويات
بم التعلل لولا ذاك من زمن	أحياؤه باعتياد الهم أموات
خذ ما تعجل واترك ما وعدت به	فعل اللبيب فللتأخير آفات

عاش ابن شبل - على ذلك - أكثر من سبعين عاماً .

ثم ودع بغداد .

ورضي منها ومما فيها من خير وشر ... « بأشبار » معدودات من مقبرة باب حرب - ولعله لم يرض وانما أجبر على الاختيار .

وخلف فوق الارض » فيما خلف ديواناً ظل مشهورا « منتشرا في الاقطار » دون أن يصل الينا . ولو وصل ، وصل الينا شعر حسن وأكثر من حسن ، لان أبا على روح عنيف في حالتيه من السراء والضراء ، وهو في هذا من القلائل في الادب العربي . واكبر الظن ان

همه الاول من الشعر لم يكن الأستجداء والارتزاق ، انما كان يجد فيه المخاص والمهرب ، وحلولا لأزماته النفسية التي كان يعمل على تعقيدها مجتمع مضطرب يسوده الجور ويسعد فيه الناقصون .

وان في الذي وصل الينا من شعره مشابه لشعر أبي العلاء ولا يبعد في أن يكون في الذي لم يصل مشابه آخر : ودليل على ان ابن الشبل من هؤلاء الذين أعدوا لشعر الفكر والاجتماع والحياة ، ولعله - مع كل الاحتياط اللازم - اشعر من أبي العلاء في فلسفته .

المعلم الجديد - مايس ١٩٥٩

سـيرة

مؤيد الدين الطغرائي

ولد الحسين بن علي عام ٤٥٣ في جي من أصبهان في عائلة «شريفة» من ولد ابي الاسود الدئلي . فهو على هذا عربي الاصل وليس فارسيه كما هو الشائع وكما جزم المؤلفون المحدثون دون أن يدلوا على استقصاء في البحث .

ومن المنتظر أن يكون الحسين قد ألم منذ الصغر بفنون معارف عصره وباللغة الفارسية ، ودرس اللغة والادب بشيء من التعمق ، ولعله أعجب مبكراً بالمتنبي والشريف الرضي وأحس في نفسه من المطامح ما يقربهما منه ويقربه منهما .

وعندما اكتمل له شبابه أحب فتاة كانت « المنى » في الكمال والجمال والعفاف ، وقد فاز بها « من بين يأس وخيبة » وبعد ان « غايظ أهل بيته كلهم » ؛ فاز بها فآنست منزله وجعلته جنة ينسى فيها همومه . ولكن عمر هذه السعادة الزوجية كان «قصير المدى» فلقد احتضرت «الحبيب» وراح الموت « يقبض كفها ويبسطها » « وقد دمعت أجفانها » ثم أسلمت الروح ، فغاب الهلال وذوى الغصن و « أصبح العرس مأتماً » . فأضاع الشاعر رشده وفقد اصطباره ، ولم تجده الدموع .

توفيت تاركة رضيعاً يزيد في أحزان « الحسين » الذي حفظ ذكرى الفقيد وظل يحن اليها وينظم الشعر الصادق في رثائها ، ويجد في زيارة قبرها بعض السلوى :

مضت حين لم أصغر فأجهل قدرها ولم أعمر الدهر الطويل فأحلما

وأقسم على ألا تسكن نفسه الى سواها ، ولكن ضرورات الحياه عدلت من رأيه فتزوج ثانية ورزق منها الولد

ذلك أن شواغل اخرى كانت متمكنة من نفس أبي اسماعيل ، وتحثه في طريقه لنيل السها .

وكان عليه ـ في سبيل ذلك ـ أن يستعين بالمتنفذين من رجال عصره ـ وكان من أوائل من قصد : « أبو المحاسن معين الملك محمد بن فضل الله » . وكان من أفضال معين الملك أن قدم الشاعر الى « نظام الملك » وهيأ له حظاً في الكتابة ، وبسطة في العيش .

وحين نكب معين الملك وقبض عليه وحبس وكبل ظل الحسين مخلصاً وفياً ، ينظم القصيدة تلو القصيدة في التعزية والمؤاساة ، وفي المديح والاعتراف بالفضل . وفي التألم والتحسر .

وشملت مصيبة معين الملك الشاعر فعطل من الكتابة ولقي الذل والهوان وتوعده الاعداء على حبه ابن فضل الله وتهددوه وهو ثابت فخور بنفسه و « سيده » ، وربما سلى عن نفسه بمنى يعقدها « ان عاد ذاك المقبل المتقبل » .

والطغرائي صادق اللهجة فيما اخبرنا به عن اخلاصه في الدفاع عن سيده والاسى عليه . ولكن الذي نعرفه أيضاً أنه مدح نظام الملك وابنه مؤيد الملك ، وقد يكون شطر من هذا المديح مما نظمه في أيام الصفاء وفي ايام عز معين الملك ؛ ولكن الذي لا نشك فيه أن شطرا آخر منه يرجع الى ما بعد النكبة ، واذن فقد أصلح الطغرائي أمره مع أهل الكلمة العليا ـ ولا يحتاج مثله الى معلم .

كما أنه خدم السلطان ملكشاه بن ألب ارسلان .

ولدى موت ملكشاه واشتداد النزاع بين ولديه بركيارق ومحمد ، كان الطغرائي أقرب الى الثاني . وقد اقترن هذا النزاع بتنافس شديد بين صدرين كبيرين هما : مؤيد الملك - وزير بركيارق ، ومجد الملك - المقرب من أم السلطان . وقد انضم مؤيد مؤيد الملك الى محمد واستشاره على حرب أخيه - فكان أن اخذت اصفهان وقتل محمد مؤيد الملك . ويبدو أن الطغرائي ترجح بين مؤيد الملك ومجد الملك طمعا بالمنصب الأكد ، مما أغضب عليه الاول ، فظل يعتذر ويعترف ، ولعله نجح في مسعاه لاننا نراه يرثي الوزير لدن قتله بقصيدة طويلة مخلصة .

ولا نعلم الوظائف التي كان يشغلها الطغرائي بعد هذا التاريخ ، ولعلها كانت تتصل بالانشاء والطغراء . ولا بد من انه عزل عن عمله في فترة ما ، لانه رفع قصيدة الى أحد السلاجقة ذكره فيها بخدماته السابقة ، وشكا اليه ما ناله من حيف ، وطلب منه منصباً ينقذه من « الضر الذي أودى به » . وربما كان من آثار هذه القصيدة أن أصبح نائباً في ديوان الطغراء الذي كان يشغله الأمير العميد - في وزارة الخطير .

وعندما توفي العميد عام ٥٠٥ « جلس مكانه في ديوان الطغراء وصدر الانشاء الاستاذ أبو اسماعيل الكاتب الاصفهاني - وكان ذا فضل غزير وأدب كثير ، تولاها بالاصالة متصدراً في دست العلاء » . وكان اذا انشأ تروى بطيا وتفكر مليا وغاص في بحر خاطره ثم أتى بالمعاني البديعة والاستعارات « الغريبة » « ولم يكن للدولتين السلجوقية والامامية من يضاهيه في الترسل والانشاء » . ومن عمله في هذا الديوان غلب عليه لقب الطغرائي (نسبة الى من يكتب الطغرى ، وهي الطرة التي تكتب في اعلى الكتب فوق البسملة ومضمونها نعوت السلطان الذي صدر

الكتاب عنه) .

وفي هذه السنة ، أي سنة ٥٠٥ نفسها حل بالطغرائي - وهو بمدينة السلام - خطب عظيم ، فقد عزل وعلاه من دونه وتنكر له أصدقاؤه ، وثقلت عليه الاقامة ببغداد فنظم - فيما نظم - قصيدتين هما من خير ما قال ، امتزج فيهما الواقع بالمثال والعقل بالقلب والحكمة بالجنون والحرب بالسلم والطماح بالقناعة والكبرياء بالتواضع ... تانكم هما اللامية المشهورة :

اصالة الرأى صانتنى عن الخطل   وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

وبائية لا تقل عنهـا في الاعراب عما اختلج في ذلك القلب الجريح من ألم وسخط ، ومطلعها :

أهاب به داعى الهوى فأجابا   وعاوده نكس الصبى فتصابى

وفيها ثورة على « العراق » وأهل العراق :

مللت ثوائي بالعراق وملنى   رفقي وكانوا بالعراق طرابا

* * *

فلا زائر يغشى جنابي لحاجة   ولا أنا أغشى ما أقمت جنابا

* * *

بنوا الغدر لما فتش البحث عنهم   أراك وميضاً خلبا وسرابا

وفي البائية هذه ، عتاب على الخلافة :

فيا عجباً حتى الخلافة ما رأت   لحقي أن اجزى به واثابا

ولم ترع لي نصحي القديم وصحبتي   أخوض غمارا أو أروض صعابا

لعمرى لقد ماحضتها النصح باذلا   لو سعي وقد ردت الى منابا

فيا ليت نصحي كان غشا وطاعتي   نفاقا وصدقي في الولاء كذابا

كما صار آمالي غرورا ، وخدمتي   هباءا ، وسعيي خيبة وتبابا

والابيات صريحة في التعبير عن صلة الطغرائي بالخلافة وشدة هذه الصلة أيضاً . وكان ذلك في عهد المستظهر .

وطبيعي ان يعتزم الشاعر الهجرة ويتذكر الوطن . ولعله نفذ العزم ورحل الى اصفهان ، ولعله أمضى فترة متعزلا ومنصرفاً الى الكيمياء والتأليف فيها . ولكن همته كانت ترى في العزلة مقاما على الهوان . حتى اذا كان عام (٥٠٩) راينا القاسم ابن الحريري يكتب اليه يهنئه بولاية الطغراء بأصبهان .

وفي هذه الايام وفي حوالي عام (٥١٠) رزق عليا ـ اصغر بنيه ، ففرح وشكا ، ولم يكن مرد الشكوى الفقر أو العزل وانما الشيخوخة وحرص الآباء :

هذا الصغير الذي وافى على كبرى ... اقر عيني ولكن زاد في فكري
وافى وقد ابقت الايام في جسدى ... ثلما كثلم الليالي دارة القمر

٭ ٭ ٭

سبع وخمسون لو مرت على حجر ... لبان تأثيرها في صفحة الحجر
فزاد حرصي على الدنيا وجدد لي ... ضنا بمالي واشفاقا على عمري
أضوى عليه واخشى ان يعاجلني ... يومى ولم اقض في ترشيحه وطرى
واشتهي ان اراه وهو مقتبل ... غض الشباب خضيب الوجه بالشعر
أحيا مآثر آبائي واشبهم ... في مجدهم واقتفى في هديه أثرى

وفي عام (٥١١) تقدم في مدارج الادارة شخص سميرمى واصبح المستوفي بل المهيمن على زمام الحكم « وكان يبغض الاستاذ أبا اسماعيل الطغرائي ، « الوحيد الذي بقى من القدماء ، ولما لم ير اعدؤه في فضله مطعنا ولا على علمه من القدح مكمنا ، اشاعوا بينهم أنه ساحر ... وان مرض السلطان (محمد) ربما كان بسحره ، وانه ان لم يصرف عن تصرفه

فلا أمن من امره ، فبطلوه وعطلوه واعتزلوه وعزلوه » . « وعاد الخطير الذي كان وزيرا يمد الطغراء خطه » . ولم يكن رأى الطغرائي بالخطير حسنا ، وهو القائل فيه :

اما الخطير فجبة وعمامة ومنازل مرفوعة الآساس
واذ رجعت الى الكرام فطاعم ما بين أهل المكرمات وكاسي

وفي هذه السنة نفسها ، اي سنة (٥١١) توفى السلطان محمد وتمكن ابنه محمود من السلطنة بعده واناط بالشاعر ديوان الطغراء والانشاء وظل فيهما حتى أمره السلطان بملازمة بيته و « استقر الشهاب أسعد في مكانه وانتصب في منصب ديوانه » . وربما كان هذا من بعض دسائس السميرمى عليه .

ولم تكن مطامح الطغرائي لتستجيب لهذا الامر ، فقد قصد الموصل حيث الملك مسعود - اخو السلطان محمود - وكان صغيراً ، ابن احدى عشرة سنة ، ويدبر له الملك في حكم الموصل واذربيجان اتابكه جيوش بك . اما طغرائيه فمحمد بن الطغرائي الشاعر .

وفي الملك مسعود يقول الطغرائي من قصيدة :

.... ان الهوى والرأى مالانحوكم بركائبي وهوى الرجال فنون
ابلغ نهايات العلى وسجيتي تأبى التوسط - والتوسط هون
واسلم لادرك فيك ما املته ظنا - وظن الالمعي يقين

وتحقق له بعض هذا العلى اذ استوزره مسعود فأصبح الملك « بالمؤيد مؤيداً ، وسداده مسدداً » .

ولكن الطغرائي الذي ظهر في نونيته من الحريصين على سلامة البيت السلجوقي ومن دعاة وحدته ، لم يلبث ان غير رأيه وانضم الى المؤامرة

التي كان يحوكها دبيس بن صدقة المزيدي ملك الحلة « ويكاتب بها جيوش بك ويحثه على طلب السلطنة للملك مسعود ويعده المساعدة ... فحسن - الطغرائي - ما كان دبيس يكاتب به من مخالفة السلطان محمود والخروج عن طاعته »

« وظهر ما هم عليه من ذلك فبلغ السلطان محمود الخبر فكتب اليهم يخوفهم ان خالفوه ويعدهم الاحسان ان اقاموا على طاعته وموافقته، فلم يصغوا الى قوله واظهروا ما كانوا عليه وما يسرونه، وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النوب الخمس، وكان ذلك على تفرق من عساكر محمود فقوي طمعهم واسرعوا السير ليلقوه وهو مخف من العساكر، فاجتمع اليه خمسة عشر الفا » والتقوا عند أسد آباد - قرب همذان، وسط ربيع الاول من سنة (٥١٤) واقتتلوا بكرة الى آخر النهار، فانهزم عسكر الملك مسعود واسر منهم جماعة من اعيانهم ومقدميهم، واسر الاستاذ ابو اسماعيل وزير مسعود » - « وكان اول من اخذ » « فأخبر الوزير كمال الملك - (السميرمى) به فقال للشهاب أسعد - وكان طغرائياً في ذلك الوقت نيابة عن النصر (أخي كمال الملك) : « هذا ملحد » فقال الوزير : « من يكن ملحدا يستحق ان يقتل » وقد اقام أقواماً فشهدوا عند السلطان محمود ان الطغرائي زنديق وانه لا يتدين بدين الاسلام، فقال السلطان : « قد ثبت عندي فساد دينه واعتقاده » - وامر بقتله - فقتل (أو ذبح) بين يديه صبرا في ربيع الاول من عام (٥١٥) وقد جاوز عمره الستين سنة .

ترى أحق ما رووا من ان الطغرائي ملحد زنديق لا يدين بدين الاسلام؟ ان ذلك تلفيق لا غبار عليه ، فالطغرائي مسلم دون ريب

ولو وقفت المسألة عند الالحاد لقلنا ان مأتاه تشيعه ، وطالما اختلطت كلمة الالحاد - في العصر - بالباطنية والتشيع ، وما كان دين الطغرائي يوما مجال شك ، وكثيراً ما عقب المؤرخون بأنه « قتل ظلما ». ومنهم من عده « شهيدا » . ولو صدرت التهمة من انسان غير السميرمي لاستحقت العناية ، اما وانها خرجت من رجل « كان مجاهراً بالظلم والفسوق » ، فمن العبث الوقوف عندها واخذها سببا للقتل ؛ الا ان هناك ما هو اهم واعقل . فقد كان الطغرائي فاضلا ، واسع الفضل ، قديماً من بقايا السيوف في المملكة ، وقد قال منذ سنة (٥٠٥) :

ما كنت أوثر ان يمتد بي زمني حتى ارى دولة الأوغاد والسفل
تقدمتني اناس كان شوطهم وراء خطوي اذ امشي على مهل

وفهم السميرمي الابيات على انها تعريض به ، وليس ذلك ببعيد ، فقد كان الطغرائي يحتقره ويستصغره . ولما وقع المصاف خاف اعداء الطغرائي وخشوا اقبال السلطان عليه فكادوا له ودسوا حتى رموه بالالحاد وعملو على قتله واعتمدوا هذه الحجة ، وما كانوا لينجحوا لو لم تلق دعواهم هوى من قلب السلطان محمود الذي كان ينقم عليه موقفه وتحريضه أخاه عليه .

شعر العصر السلجوقي

في

اغراضه وموضوعاته

لا تكاد تخرج أغراض الشعر في العصر السلجوقي عن الاتجاهات التي سارت عليها في العصور السابقة ، ولكنها في جملتها كانت أميل الى الانحطاط .

ولا يمنع هذا الحكم العام من استعراض لاهم المميزات وأهم التطورات في مختلف هذه الاغراض ؛

الغـزل :

وقد أكثر العصر من الغزل لمناسبة ولغير مناسبة ، فقل الجديد فيه ، وغار الاصيل . وقد أولع الشعراء باتخاذ جزيرة العرب مسرحا لاوطارهم المزعومة فمثلوها على وجرة ، والعقيق ، واللوي ، ونعمان ، وحزوى ... وكان طبيعياً أن يقتضيهم ذلك ما تقتضيه البادية من أبل وخيام وظعن ... وما اعتادت أن تطلقه على بناتها من اسماء مثل لبنى وأميمة واسماء ...

اما الاوصاف الجسمية « للحبيبة » فمما هو معروف من وجوه كالاقمار وعيون كعيون بقر الوحوش وأجياد كأجياد الظباء ... ثم هي بطيئة المشي ...

وليس من المعقول أن نبحث وراء هذه الاوصاف وتلك الاعلام عن الصدق مهما يحاول الشعراء أن يخدعونا ومهما تسل الدموع الغزار من

مآقيهم ويشغلهم الحب عن كل ما سواه ... ان حبهم لا يزيد عن كونه تقليدا وتكرارا لمعاني السابقين وتكلفا لصباباتهم ..

ولم يحل هذا التكلف عن وقوع أبيات طريفة تسترعى الانتباه وتستلطف بما هيأ لها اصحابها من سبك ماهر ، ولهجة تكاد تغري الطيبين بالعطف والمشاركة .

وقد كانت التقاليد القاسية تحتم على المحبين التشدد في كتمان هذا الحب :

سرى حيث لا يدري الضمير مكانه ولا يهتدي يوماً اليه الهواجس

وقدرة الانسان الى مدى :

ومن لي بكتمان الهوى ومدامعي تنم ، وانفاسي الحرار تشيع

والرقباء والوشاة والعذال بين مجيء وذهاب ، وفي شغل شاغل ... وللمرجفين سوق رائجة :

هم أرجفوا بالوصل بيني وبينها وظن بنا فيما حكوه ظنون
فليت أراجيف الوشاة حقيقة وليت ظنون الكاشحين يقين

وتشاء « الحبيبة » ان تجازف فتقصد الحبيب ولابأس ، لأن ذلك انما يقع في الاوهام :

أتت وهي أحلى للفؤاد من المنى وأطيب من تهويمة الفجر في جفني

ولا بأس باللقاء لانه يقوم على الحياء :

وليلة وصل قد قدرت فصدني حيائي ألا ان الحياء رقيب

ويقوم على العفة والتقى ... كما كان حب الشريف الرضي ...

والطغرائي - وهو صاحب الابيات الانفة الذكر - اكثر شعراء العصر تأثرا بالشريف واكثرهم فخامة في النظم .

أما الابيوردي « فعالم » آخر ، يصول ويجول على ثرى نجد وبين عذارى نجد ، عاشقاً ومعشوقاً ، وقد منحه خياله هذا مجموعة طريفة من الشعر فيها خفة وعليها رواء ، أسماها « النجديات » .

ولم يتورع شاعر في العصر عن التغزل وادعاء الحب واوعاته ان في مطالع المدح وان في مقطعات خاصة - وكلهم يصنع ويتصنع ، وقد يأتي بين الحين والحين ما يستطرف من المعاني والتراكيب ويشتهر من القصائد والمقطعات .

ومما استلطفه القدماء قول صردر :

. . نسائل عن ثمامات « بحزوى» ... وبان « الرمل » يعلم من عنينا
وقد كشف الغطاء فما نبالي ... أصرحنا بذكرك أم كنينا
ولو أني انادي : يا « سليمي » ... فقالوا : ما أردت سوى « لبنى »
ألا لله طيف منك يسقى ... بكاسات الردي زورا ومينا
مطيته طوال الدهر جفني ... فكيف شكا اليك وجى وأينا ..

المـــدح :

ولا يكاد المديح يختلف كثيراً عن الغزل في مجراه التقليدي ، فما زال المادح السلجوقي يفضل أن يبدأ بالنسيب ويصف الناقة والطريق ومن ثم يتخلص الى الممدوح . ثم يعرض معاني شائعة ذائعة فهذا كالبحر وذاك كالاسد ، وقد يقع بين الحين والحين بيت يستجاد أضاف به مؤلفه شيئاً الى أمثاله من سابقيه ، كأن يقول الابيوري في نظام الملك :

أتى في السماحة ما لم يدع ... لاهل الندى سيرة تعجب

أو أن يأخذ صورة هي أقدم من النابغة فيقول :

ولهم وقائع في العدى مذكورة　　　تروي الذئاب حديثها والانسر

ولم ينسوا أن يمدحوا بالرأى وحسن التدبير فيقولوا :

يلاحظ غب الامر قبل وقوعه　　　ويبلغ ما لا تبلغ العين ، بالفكر

كما أن للنسب نصيبا وقد قال صردر :

مشتبه الاطراف أعمامه　　　يظنها القائف أخواله

ويمدحون بصفات اخرى ... فيكثرون ويطيلون ويزيدون الكمية .

وتتصل بالمديح أغراض صغيرة اخرى كالاعتذار والعتاب والاعتراف .

ومع أن الجائزة هم الشاعر الاول فان المؤرخ يستطيع أن يعثر هنا وهناك على نص يعينه على اجلاء ما غمض في التاريخ السياسي أو يعوض له عما فقد .

الفخــر :

أما الباحث عن الأصالة فيولي وجهه شطر الفخر ، فيرى أن الشعراء فخروا بشاعريتهم كثيراً ، فالارجاني يقول انه « مطبوع » وان قوافيه « سائرات » يرويها الدهر :

ولا أنس الا بالذي ان نظمته　　　تهاداه دان في البلاد ونائي

ومني اقتباس المحدثين معانيا　　　ولم أقتبس معنى من القدماء

هكذا يقول ، والواقع يكذبه ، ونحن لا نرضى منه الا بقوله :

أنا أشعر الفقهاء غير مدافع　　　في العصر أو أنا أفقه الشعراء

لاننا نعرف رداءة شعر الفقهاء ـ وان جهلها هو .

ولم يرض « الغزي » ما سمع من القريض بفارس ، وقصيدته ـ برأيه ـ

« محكمة شرود » :

شـآمية لولا تـأخر عهدهـا حوت قصبات السبق من دون جرول

وانـه :

لو امتلأت بها اذن « ابن حجر» لعلقهـا مع السـبع الطوال

وكلمة الطغرائي « طلقة » « تنافس فيها أعين وعقول » :

فدونكها غـراء تعجب معرقا وتفتن نجديا وتونق مشـئما

وقوافي « الابيوردي » « غضة غراء » « تزين أجياد العواطل »

« شرود » « يصغى الحسود لها ملآن من طرب » فهي « تسكر السامع » ، لم تسبق ولا تلحق ، خالدة .

فدونكها غراء لو رام مثلها سواي بليغ ظل يصفي ويجبل

أما « بدائع » صردر فـ « ينافس فيها الجاهلي المخضرما » و « فرزدقها غواصها وجريرها » فهي « زبور » :

وأنا أمرؤ لو مد في غلوائه نطقي لقيل : كلامه تنزيل

هذه آراء الشعراء بشاعريتهم ، ولهم أن يحسنوا الظن بأنفسهم الى أقصى ما يشاءون ، فلسنا ملزمين بتصديقهم وان كنا نستجيد أقوالهم هذه ونستطرفها أحياناً .

وكما فخروا بشاعريتهم ، فخروا بثقافتهم وعلمهم وفضلهم ، وأكثرهم غلوا في هذا الباب الطغرائي ، وهو القائل :

أما العلوم فقد ظفرت ببغيتي منها فما أحتاج أن أتعلما

وفخروا بحسن أخلاقهم وكرمهم وصبرهم وابائهم واخلاصهم للصديق .

واحتل الطموح والسعي الى المجد مكانا يلفت نظر القاريء ، فقد أيد التاريخ الطغرائي فيما ادعاه (لا سيما في لاميته وبائيته) من الولاية والجاه .

اما الأبيوردي فله شأن خاص ، وهو القائل :

يا من يساجلني وليس بمدرك ... شأوى ، وأين له جلالة منصبي

لا تتعبن ، فدون ما حاولته ... خرط القتادة وامتطاء الكوكب

أن الرجل يفهم الاشياء على نحو خاص جداً جداً ، فانه يرى لنفسه الحق بالخلافة ، وان مصدر حقه هذا كونه معاويا « وجده ... سمت به جرثومة من طينها خلق النبي » ، ولا يمكنك ان تحاكمه وتناقشه فما الى المنطق من سبيل ، لانه مؤمن بما توحيه نفسه ، ونفسه اذ تفخر تنسى الحدود والقيود ، وتنسي بني العباس ، وتنسى حتى الجوع ... وهكذا يصر على حقه ، ويصر على فخره ، ويكرر في كل حين :

ملكنا أقاليم البلاد فأذعنت ... لنا رغبة أو رهبة عظماؤها

وهو اذ يتحدث يتصور أنه هو الذي ملك ، وهو الذي ساد ...

وخلف الابيوردي أخا ـ بالروح ـ بذه وفاقه ، ذلكم هو الحيص بيص الذي أنف أن يكون شاعراً فقط ، فقال :

يا رواة الشعر لا تروه لي ... فبغير الشعر شيدت رتبي

وقال :

الى كم يراك الدهر في زي شاعر ... وقد نحلت شوقا اليك المنابر

فاذا به يطلب الخلافه أيضاً ـ سامحه الله

الشكوى :

ويصحو الشعراء من كبريائهم ويرون المدى الواسع بين الخيال

والحقيقة ، وبين ما هم عليه وما حلموا بأنهم عليه ، فتسود الدنيا في عيونهم ويريقون أساهم على الورق وفي طيات القصائد فاذا بالشكوى في كل مكان ولكل سبب واذا هي غرض قائم بنفسه .

وهم يشكون من الدهر أو الزمان أو الليالى كأن الدهر هو السبب لما ينالهم من جور وأذي وألم . فيقول صردر :

قد حزت الايام في كبدى وأطاف بي مس من الضر

والابيوردى :

تنكر لي دهري ولم يدر انني أعز وأحداث الزمان تهون
فظل يريني الخطب كيف اعتداؤه وبت اريه الصبر كيف يكون !

ثم انهم يعزون بؤسهم الى القدر الذي كتب كل شيء ، ولا يستطيع الانسان أن يقدم أو يؤخر :

فما اجتهاد الفتى يوما بنافعه وانما هو ابلاء المعاذير

والى الحظ :

أهبت بالحظ لو ناديت مستمعاً والحظ عني بالجهال في شغل

فأين مفري وما حياتي وجدى في كل صوب أمامي

والطغرائي على شكواه من الزمان والحظ يذكر الناس صراحة ، ويعين صنفا بعينه :

أعدى عدوك أدنى من وثقت به فحاذر الناس واصحبهم على دخل

وهو يكرر شكواه من الحساد والاصدقاء والشامتين ويغرق وتملي عليه ظروف خاصة فردية تعميمات يراها صحيحة كل الصحة :

تشابهوا في طباع الشر بينهم ... على اختلاف من الاهواء والصور

فلا ترومن انصافا ، وقد شهدت ... مخالب الليث أن الظلم في الفطر

ويرى غيره عامل الشكوى في الحكام والصدور ممن ترأس دون أن يكون للرئاسة فلم يعدل ولم يعرف أهل الفضل ، ولهذا قال الابيوردي :

وأبرح مـا ألقى رياسـة عصبة ... أخس زمـان نال مني زمانهـا

وقال

أفي كل يوم دولة مسـتجدة ... يذل بها حر ويسـمو لها عبد

وقال :

وشر بلاد الله ما سـاد أهله ... أراذل لا يرعون حق كريم

وأوغل الشعراء في الشكوى حتى قالوا مع الغزى :

مللت العيش حتى كدت أشكو ... جنايـات المـلال الى المـلال

ومع ابن الهبارية :

ولست بشاك صرف دهري وأهله ... ولكنني أشكو الى الدهر من نفسي

وفي هذه الصرخات الصادقات تنفيس عما كان يكتنف الشعراء من ظلم ـ وما يصيب « حرفة الادب » من كساد .

الـرثاء :

وأول ما يستوقف الباحث في الرثاء قصة الطغرائي أو بمعنى أدق بكاء الطغرائي على زوجته التي فقدها وهي في أوج شابها وربيع عمرها فحزن أشد الحزن وأعرب عن حزنه هذا بأبيات نادرة في تاريخ الشعر العربي ولا سيما في رائيته :

أقول وقد غال الردي من احبه ... ومن ذا الذى يعدي على نوب الدهر

* * *

أعيني جـودا بالدمـاء وأسـعدا ... فقد جل قدر الرزء عن عبرة تجرى
أذم جفوني أن تضن بذخرها ... وأمقت قلبي وهو يهدأ في صدرى
بنفسي من غاليت فيه بمهجتى ... وجاهي وما حازت يداي من الوفر
وغايظت فيهـا أهـل بيتي فـكلـهم ... بعيد الرضى يطوى الضلوع على غمر
وفزت بها مـن بين يأس وخيبة ... كما استخرج الغواص لؤلؤة البحر
فجاءت كما جاء المنى واشتهى الهوى ... كمالا ونبلا في عفاف وفي ستر

* * *

ألا ليتنا لم نصطحب عمر ليلة ... ولم نجتمع من قبل هذا على قدر

* * *

بنا أنت من مهجورة لم أرد لها ... فراقا ولم تطو الضلوع على هجر
طلعت طلوع البـدر ليلة تمه ... وفقت كما أربي على الانجم الزهر

* * *

وما كنت الا نعمة الله لم تدم ... على لعجزى عن قيامي بالشكر

وفي قافية له لا تقل عن هذه نفاسـة يصور زوجته في لحظات الاحتضار ، ويصور لنا زيارته لقبرها وما يجده عند هذا القبر من راحة .

كل هذا وامثاله رائع ونادر في الادب العربي ولا تكاد تجد له مشابها . ستقول جرير . مشهور ولكنه استهل قصيدته بـ « اولا الحياء لهاجني استعبار » ثم انه اكتفى بأبيات معدودات انتقل بعـدها الى هجاء الفرزدق وأخته بأكثر من مئة بيت حشاها بأقذع الكلمات واخس الافعال .

ويستوقف الباحث في رثاء العصر قصيدة أخرى قالها ابن أبى الفتوح يبكي ولده وقد تذكره يوم عيد :

لبس الحبور جديدهم في عيدهم | ولبست حزن «أبي الحسين» جديدا
ووددت لو حضر المصلى فيهم | حيا وكنت الميت الملحودا
أيسرنى عيد ولم أر وجهه | فيه ، ألا بعداً لذلك عيدا
كيف المسرة لامرىء فقد الهوى | وحثا عليه جنادلا وصعيدا

☆ ☆ ☆

أفحين عاد الليث بأسا يتقى | والبدر حسنا والسحابة جودا
وتقيل النجباء من آبائه | وجدوده المتخيرين الصيدا
وأوان أوهنت الليالي أعظمي | وغضضن من بصرى وكان حديدا
.. فارقته وبقيت اخلد بعده | لاكان ذاك بقا ولاتخليدا
من لم يمت حزنا لموت حبيبه | فهو الخؤون مودة عهودا

☆ ☆ ☆

وهكذا سجل مشاعره الصادقة وأعرب عن حبه كما أبان وقع المصاب على شيخ مثله .

هذان الانموذجان أجدر مافي الرثاء بالذكر والثناء ، وهناك قصائد أخرى دبجها الشعراء في رثاء الصدور وذوي السلطان ، وأخرى في بكاء استاتذتهم وغيرهم من أهل العلم والعرفان .

الشعر التعليمي :

يمكن أن نتوسع بمفهوم « الشعر التعليمي فندخل تحته كل ما نظم بارادة وقصد خارجي يقوم على المهارة دون غيرها كما رأينا في بابي الغزل والمديح ثم ندخل نظم الفقهاء والاساتذة وما جاء في باب النصيحة والوعظ والزهد ، لما في كل ذلك من جفاف واغراق في العقل ، ولو جاء هذا العقل مشفوعا بعاطفة تطل من وراء الكلمات فتخفف من ثقلها وتوحي الى السامع أطرافا من تأثر صاحبها ، لو جاء كما قال الطغرائي :

وإذا الفتى عرف الرشاد لنفسه هانت عليه ملامة الجهال

لكانت الحكمة من الشعر ، ولا ستحقت عناية تليق بها - ولكن أمثال هذا قليل . ومثله في القلة نفحات فلسفية كالتي نراها لدى ابن الشبل .

ويتصل بالشعر التعليمي كتابان لابن الهبارية هما « نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة » و « الصادح والباغم » وفي هذا الثاني - في الاقل - محاولة ذات بال في الشعر القصصي عند العرب .

ثم يضيق المفهوم ، ويضيق حتى نلتقى بالشعر التعليمي في معناه الاصطلاحي - وهو لا يمت الى الشعر الحق بصلة - فينظم الفقهاء وغيرهم مناسك الحج ، والحريري « ملحة الاعراب » والطغرائي « مقطعات في الصنعة » - ويقصد بالصنعة الكيمياء .

خاتمة -

هذه أهم أغراض الشعر في العصر السلجوقي ، وهي استمرار لخط تقليدى . وقد رأينا في الفخر والشكوي والرثاء صفحات أصيلات تستوعى الاهتمام والاعجاب .

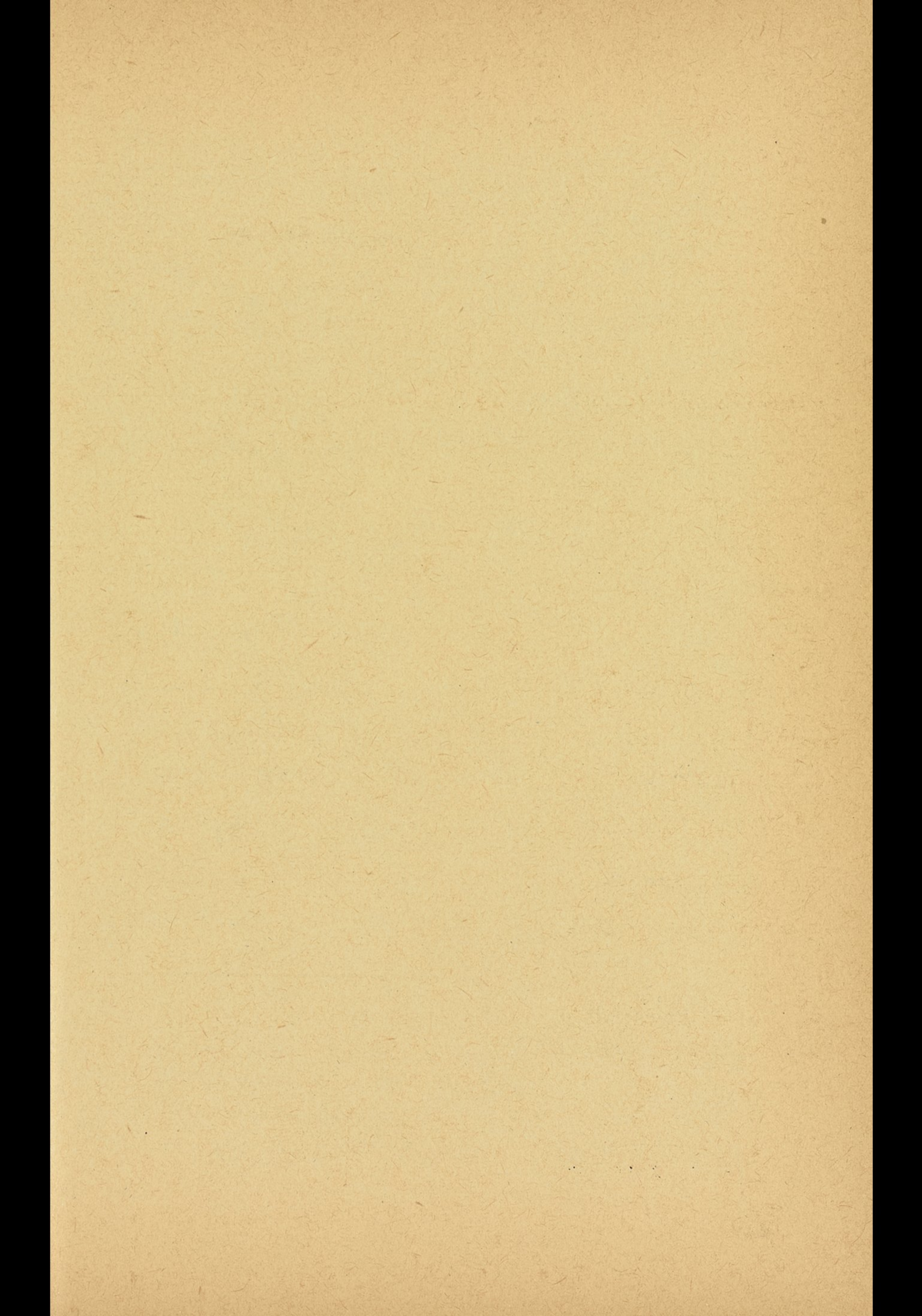
وقد تجنبنا في هذه المقالة الحديث عن الاغراض التي تتمم معانيها خط السخف الذي (ازدهر) في العهد البويهي .

تنظر « الاستاذ » ١٩٥٩

(٥)

جامعة باريس

دار المعلمين العالية



جامعة باريس [1]

تاريخها وتنظيمها

منذ اواسط القرن الثاني عشر ، كانت المدارس الپاريسية عديدة ، كانت الشهرة التي هيأها لها اساتذة مثل (أبلار) و (گيوم شامپو) ، تجتذب اليها التلاميذ من كل البلدان . كانت تدرس العلوم المعروفة آنذاك ، اولا وقبل كل شيء : الفنون الحرة المؤلفة من الثالوث (٢) والرابوع (٣) . ثم العلوم الاكثر تخصصاً : الطب ، القانون المدني ، القانون الكنيسي واللاهوت .

كانت هذه المدارس تحت السلطة المباشرة لاسقف باريس وكان هذا يمنح اجازة التعليم التي لا يمكن التدريس من دونها ، وكان له الحق الدائم في الاشراف على التعليم والضبط . ويظهر هذا الاعتماد الشديد على السلطة الاسقفية في موقع هذه المدارس فانها كانت ـ اول الامر ـ مجموعة كلها في الإيل دلاسته (جزيرة المدينة) عند كنيسة نوتردام ، حتى اذا تكاثرت المدارس والتلاميذ وضاق المكان ، اضطروا الى عبور

---

(١) الاصل عن دليل جامعة باريس Livret de L' Etudiant اما الحواشي فعن مراجع اخرى منها « تاريخ التعليم في فرنسا » تأليف كلاتيني Clatigny ، ومعجم لاروس ، و « تأريخ الجامعات » لايكران Aigrain .

(٢) النحو والبلاغة (الخطابة) والمنطق (او الفلسفة) .

(٣) الحساب والهندسة والفلك والموسيقى .

النهر ليقيموا في جوار الاديرة الشهيرة في سنت جنفيف وسن فكتور.

كانت هذه النقلة بداية التحرر من السلطة الدينية ، وقد اصبح هذا التحرر ، بعد قليل ، تاماً ، وذلك بفضل مساندة السلطة الملكية والبابوية.

وكان أول آثاره أن ابدت المدارس وعياً واضحاً لمصالحها العامة وللدور الذي تستطيع ان تمثله ، ونتج عن هذا الشعور حاجة تلقائية للمجتمع ، ادت الى تأسيس نقابة قوية هي نقابة المعلمين والطلبة.

كانت جامعة باريس والهيئة والاسم قد وجدت منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر ولم يبق للجامعة ، منذ ذلك الحين ، الا ان تحصل من السلطة الملكية اولا ، ثم من المقر البابوي ، على الامتيازات التي تجعل منها مؤسسة مستقلة ، منفردة.

في عام ١٢٠٠ ، على اثر شجار وقع بين عدد من الطلاب وابناء الطبقة المتوسطة أصدر فليب اوگست منشوراً نزع به الجامعة عن السلطة المدنية ، واخضعها لقضاة الكنيسة وحدهم (١) ، ثم ، في عام ١٢١٥ اعترف لها منشور بابوي - وهي المنظمة الكنيسية - بحق الاجتماع والتحالف وامتلاك الخاتم . وبوضعها تحت السلطة المباشرة للمقر البابوي خلصها نهائياً من السيطرة الاسقفية (٢).

---

(١) وكان هذا في صالح الطلاب لان قضاء الكنيسة كان اكثر عدلا من القضاء المدني . وفليب اوگست هذا هو الملك فيليب الثاني بن لويس السابع ، ولد عام ١١٦٥ وملك عام ١١٨٠ وشارك في الحروب الصليبية الثالثة مع ريكارد قلب الاسد . ويعزو لاروس الى فليب الثاني تأسيس الجامعة ... توفي عام ١٢٢٣ . يجعل كلاتيني نشوء الجامعات في القرن الثالث عشر . وكذلك ايگران.

(٢) وهكذا ازدادت سلطة الاساتذة وزاد استقلالهم . وعلى اثر تحريم السلطات الدينية لكتب من مؤلفات ارسطو مما يتضمن المنطق الجديد ، اعلنوا عام ١٢٢٩ الاضراب عن التدريس . وقد انتهى الاضراب بانتصار باهر للاساتذة اذ سمح البابا بتدريس الكتب التي كانت محرمة.

وفي خلال هذا القرن الثاني عشر نفسه، تكونت في احضان الجامعة تجمعات ادت الى التجانس بين مبادئها المختلفة، وعن هـذا الفعل الداخلي ولدت الكليات، وكانت اربعاً : كلية الفنون (الآداب) - وهي الاهم بعدد اساتذتها وطلابها، - كلية القانون الكنيسي، كلية الطب وكلية اللاهوت.

أدت كثرة الطلبة وتعدد أصولهم في كلية الفنون الى نشوء مجموعات اخرى هي « الشعوب »، وكانت تضم الاساتذة والطلاب الذين ينتمون الى بلد واحد (١)، وكان كل شعب ينتخب ممثلا يأخذ على عاتقه السهر على مصالحه وقد اصبح الممثلون، منذ عام ١٢٤٥، تابعين لمدير ينتخب لمدة قصيرة، ولكن سلطته اتسعت بحيث طغت على سلطة العمداء الذين اعتادت كل كلية ان تنتخبهم، ولم يلبث المدير ان اصبح رئيس الجامعة كلها.

سبق هذا التنظيم الداخلي لجامعة باريس، استقرارها المادي، فقد ظلت زمناً طويلا دون ان تمتلك بناياتها الخاصة بها. وكانت الكليات والشعوب تستعير لاجتماعاتها رواقاً او مطعماً من احد الاديرة، اما اجتماعات الجامعة فكانت تعقد في كنيسة. وكان الاساتذة يعلمون حيث يشاءون، في بيوت خاصة أو في أروقة الاديرة أو على مفترق الطرق (٢).

ان المدارس التي انشئت منذ القرن الثالث عشر لم تكن، في الاصل، الا بيوتا أسست من أجل الطلاب الفقراء، لتهيىء لهم المسكن والمأكل. وأكثر هذه البيوت شهرة ما أسسه عام ١٢٥٧ روبر السوربوني

---

(١) والشعوب الاربعة في كلية الآداب هي : البيكارديون والنورمانديون والانكليز (كالانكلوسكسونيين) والفرنسيون (وتشمل أهل وسط فرنسا وجنوبها).

(٢) قبل نهاية القرن الثالث عشر ... لم تكن بنايات عامة ... وكان كل استاذ يستأجر — كما يشاء — قاعة متواضعة لا تجد فيها عادة حتى مقاعد للطلبة.

ــ الاستاذ في اللاهوت [١] ومعرف الملك [٢] . ولم يكن لوجود هذا البيت ، في أول أمره سبب غير ايواء ستة عشر طالباً فقيراً ممن يحملون ليسانس الفنون ويسعون للدكتوراه في اللاهوت [٣] . ولم يلبث أن جاء عدد من أساتذة الجامعة وأقاموا في البيوت ، فأصبحت ــ هذه البيوت دوراً للتعليم ، وكانت ــ في الغالب تابعة لكلية الفنون ، ولان بيت السوربوني كان يؤوي أهل اللاهوت أصبح ــ في الواقع ــ كلية اللاهوت . وتفسر الاهمية التي أكتسبتها هذه الكلية ــ بعد ذلك ــ في القرن السادس عشر والسابع عشر ، كيف ظل اسمها يستعمل ليعني جامعة باريس كلها [٤] .

ان أهمية جامعة باريس ــ على الرغم من قصور هذه البنايات ــ كانت في تعاظم دائم ، وان الفترة التي تمتد من القرن الثالث عشر الى الخامس عشر هي ــ دون ريب ــ احدى فتراتها الاكثر نصاعة في تاريخها . لقد كانت الجامعة ، آنذاك ، في العاصمة ، المصدر الوحيد لبث المعرفة . وكانت سلطة اساتذتها تنشر نفوذها في العالم كله . وكان البابوات والملوك

---

(١) ولد روبر في بليدة سوربون عام ١٢٠١ وتوفى عام ١٢٧٤ .

(٢) والملك هو « سن لويس » : لويس التاسع الذي ملك فرنسا منذ عام ١٢٢٦ ، وقد قضى العشرة الاولى من حكمه في ظل وصاية أمه . ولويس من ملوك فرنسا الذين قادوا حملات صليبية ... وقد كسر في مصر ، في معركة المنصورة ، عام ١٢٥٠ ... وعاش فترة في فلسطين ... كما انه قاد الحملة الثامنة الاخيرة من الحروب الصليبية فأقلع نحو تونس ولكنه ما كاد يحل في قرطاجنة حتى مات بالطاعون عام ١٢٧٠ .

(٣) وقد حصل روبر عليه من الملك مجاناً . وكان البيت مجهزاً بمكتبة ويهيىء للطلاب الطعام والسكن .

(٤) أما الآن ، فهو (والسوربون مؤنثة باللغة الفرنسية) البناية التي تضم كلية العلوم وأكاديمي باريس فهو اذن جزء من جامعة باريس ، وكثيراً ما قرأنا في المجلات العربية من مصرية ولبنانية وعراقية ... جامعة السوربون وهم يقصدون جامعة باريس .

يرون من الشرف لهم أن يحافظوا على صلاتهم بها ، وظلت كذلك حتى نهاية القرون المتوسطة .

ان انحطاطها بدأ في عصر البعث وقيام الحركة الانسانية (١) . وذلك أنها لم تعرف أن تتكيف لحاجات الروح الجديدة فاضطرت لان تعاني منافسات هائلة كسفت من هيبتها .

كانت أولى (هذه المنافسات) كلية فرنسا الملكية التي أسسها عام ١٥٣٠ فرونسوا الاول (٢) ـ حامي الانسانيين . ثم كانت بعد ذلك الكليات التي أسسها اليسوعيون ـ ولقيت نجاحاً كبيراً سريعاً . وكان زيادة السلطان الملكي ينحو ـ في الوقت نفسه ـ للحد من امتيازات جامعة باريس واستقلالها . وفي عام ١٥٧٩ حاول مرسوم (بلوا) اعادة تنظيم التعليم الجامعي ، ثم ، بعد ذلك ، أيام هنرى الرابع (٣) اجتهدت

---

(١) L' Humanisme التي تعنى خاصة باللغات القديمة من يونانية ولاتينية ، وقد سخر الانسانيون من الجامعة ومن نظم التعليم فيها مر السخرية .

(٢) ولد فرانسوا الاول عام ١٤٩٤ وملك عام ١٥١٥ وتوفي عام ١٥٤٧ ، ويلقب بأبي الادب ، وقد ناصر حركة البعث وحمى الفنانين ودعا الى فرنسا الفنانين الايطاليين أمثال فنسي ...

وتعد كلية فرنسا الملكية Le College Royal de France - التي أسسها فرانسوا الاول بحث كيوم بيده ـ مدير مكتبته ـ انتصاراً للروح الجديدة وحدثاً في تأريخ الثقافة . فلاول مرة في تأريخ فرنسا ينشأ تعليم مستقل لا يقصد الى أي غرض مادي ، فهي لا تشترط أية شهادة في التعليم ولا في التعلم ، وليس هناك امتحان او منهج أو صفوف ... مما يعكر حرية التفكير العلمي . وخصص فيها كرسيان للعبرية وكرسيان للاغريقية وكرسي للرياضيات وكرسي للاتينية ... ان الاساتذة يريدون بذلك الرجوع الى النصوص نفسها وبحثها بجرأة ... وهذا مما أغضب كلية اللاهوت .

ولهذه الكلمة تأريخ ، وتعرف اليوم بكولليج د فرانس College de Fr. ولا تزال تحتفظ بالسبب الذي وجدت من اجله ، وهو حرية التعليم والتعلم وقد أصبحت ذات فروع كثيرة ، وتتنوع مناهجها حسب تنوع اختصاصات الاساتذة انفسهم .

(٣) ملك فرنسا من ١٥٨٩ الى ١٦١٠ .

المملكه أن تفرض حقها في توجيه تربية الشباب ومراقبتها . وفي عام ١٦٢٧ وكل رشليو ـــ الذي كان يدير السوربون منذ عام ١٦٢٤ ـــ الى لمرسيه اعادة بناء بنايات قديمة ـــ وقد انتهى عام ١٦٤٢ ، ولكنه قلل كثيراً من أهمية السوربون بحيث أصبح كأنه محكمة كنيسية ليس غير . وأعاد (كولبر) بناء كليات الحقوق ، وجرى اصلاح مشابه لذلك بايعاز من السلطة الملكية فشمل عام ١٧٠٧ كليات الطب .

وظهرت ـــ على الايام ـــ منافسات أخريات للجامعة . فقد أضيفت الى كليات اليسوعيين ، كليات الاوراتوريين وكذلك مدارس (بور رويال) التي استحوذت على اهتمام الطبقة المستنيرة بجدة طرقها وقدرة اساتذتها .

اما الجامعة فقد دفعها جهل غريب لمصالحها لان تلج في غلق الابواب على نفسها بوجه التأثير الخارجي ، ولم يكن لديها ما يقابل كل هذه المعارف المجددة والمحدثة الا مدرسية القرون المتوسطة .

وفي عام ١٧٦٢ عرضت للجامعة فرصة لم تعرف استغلالها كما يجب ، وذلك حين طرد اليسوعيون من فرنسا وسقطت مدرسة لويس لـ گران بين يديها . وعندما اندلعت الثورة كانت الحياة قد فارقت الجامعة مفارقة تكاد تكون تامة . ثم ان حكومة « المؤتمر » الغتها بتأريخ ١٥ أيلول ١٧٩٣ حين أصدرت تقرير غلق المدارس في كل انحاء الجمهورية .

ولما شرع نابليون باعادة تنظيم التعليم أسست « جامعة امبراطورية » تجمع كل التعليم العام بمقتضى قانون العاشر من مايس ١٨٠٦ الذي كمله مرسوم ١٧ مارت ١٨٠٨ ، ١٥ تشرين الثاني ١٨١١ وكان يرأسها « استاذ كبير » يساعده مجلس الجامعة ، وكانت الامبراطورية مقسمة الى اكاديميات يدير كلا منها مدير يساعده مجلس اكاديمي .

وهكذا ، أصبحت باريس مقراً لاكاديمي تتمتع بخمس كليات جديدة للحقوق والطب والعلوم والآداب واللاهوت الكاثوليكي . ومع ذلك لم يكن بين هذه الكليات أي رابط وأية منظمة شاملة ، وكانت مالياتها - عادة - محدودة جدا ، ثم أصبحت الجامعة الامبراطورية ، جامعة فرنسا ، ولكن نظامها بقي ولم يتغير تغيرا عميقاً ، الا أيام الجمهورية الثالثة (١) .

وأنشأت مراسيم ٢٥ تموز و ٢٨ كانون الاول من عام ١٨٨٥ المجلس العام للكليات ، يرأسه المدير ويساعده العمداء وعضوان منتدبان عن كل كلية ، ومهمة هذا المجلس مناقشـــة القضايا التي تتعلق بالمصالح العامة للكليات . واعترف قانون المالية لـ ٢٨ نيسان ١٨٩٣ بالشخصية المدنية للهيئات المكونة من اجتماع عدة كليات حكومية في نظام أكاديمي واحد . وأخيراً أعاد قانون ١٠ تموز ١٨٩٦ مكملا بمرسومي ٢١ و ٢٢ تموز ١٨٩٧ الى هيئات هذه الكليات اسم الجامعات .

أهم المؤسسات التي تتألف منها جامعة باريس من ناحية ادارية ومالية هي : - كلية الحقوق ، كلية الطب ، كلية العلوم ، كلية الآداب ، كليـة الصيدلة ، دار المعلمين العالية ومعاهد ومـدارس ومكتبات ومختبرات ومراصد ... الخ ملحقة بها .

يدير كل كلية عميد ينتخبه مجلس الكلية ويقره الوزير لمـدة ثلاث سنوات ، ويرأس الجامعة مدير أكاديمية باريس ، وهو رئيس مجلس الجامعة .

المعلم الجديد - ايلول ١٩٥٦

---

(١) تبدأ الجمهورية الثالثة بعام ١٨٧٠ . وبدأت الرابعة بعام ١٩٤٤ .

عن جامعة باريس

عدد الطلاب المسجلين في جامعة باريس خلال عام ١٩٥٤_١٩٥٥ :

كلية الحقوق	١٩٥٠٩
كلية الطب	١٢٠٠٢
كلية العلوم	١١٠٣٨
كلية الآداب	١٧٣٠٢
كلية الصيدلة	٢٢٨٩
مدرسة طب رمس	٢٥٥

	فرنسيون		مستعمرات		اجانب	
	بنين	بنات	بنين	بنات	بنين	بنات
الحقوق	١٢١٦٥	٥٣٠٥	٧٢٨	٧٦	١١١٤	١٢١
الطب	٧٨٤٩	٣٦٦٦	٥٧١	٦٦	٧٤٨	١٠٢
العلوم	٦١٥٤	٣٢٥٥	٦٨٣	١٠٦	٧٤٣	٩٧
الآداب	٦١٨١	٧٩٨٧	١٤٣	٤٢	١٨٢٧	١١٢٢
الصيدلة	٧٨٠	١١٩٤	١٥٣	٥٧	٥٦	١٩
طب رمس	١٤٩	٩١	١٢	—	٢	١
المجموع	٣٣٣٧٨	٢٠٤٩٨	٢٢٩٠	٣٧٧	٤٤٩٠	١٤٦٢
المجاميع العامة	٥٣٧٧٦		٢٦٦٧		١٤٦٢	

المجموع العام ٦٢٣٩٥(١)

(١) في فرنسا (١٧) جامعة رسمية يبلغ طلبتها حوالي ١٦٠٠٠٠ طالب .

* كل استاذ يعين اليوم والساعة والمكان الذي يستقبل فيه الطلبه للاجابة عن أسئلتهم .

* منذ عام ١٩٤٧ يذاع عدد من دروس كلية الآداب بالراديو ... ويعلن لها منهاج سنوي .

* لكل كلية ولكل معهد مكتبة خاصة به .

* في المكتبة الاهلية « الوطنية » ... ٦٠٠٠ مجلد مطبوع
... ٥٠٠ مجلة وجريدة
... ٥٤٠ مخطوط

ولا يدخلها الا حملة الشهادات العالية وأصحاب البحوث الخاصة .

* في مكتبة سنت جنفيف (عامة) ١٠٣١١٤٢ كتاب مطبوع ، ٣٨٠٢ مخطوط .

* في مكتبة السوربون (للآداب والعلوم) حوالي ٩٠٠٠٠٠ مجلد ، ٣٠٠٠ مجلة وجريدة ، مجموعة كاملة من اطروحات جامعة باريس وغيرها من جامعات فرنسا ومجموعة ضخمة من اطروحات الجامعات في العالم .

* في الكولليج دفرانس ٣٠٠٠٠ كتاب (وهي خاصة باللاساتذة) زيادة على عشرين مكتبة خاصة بعدد من المختبرات أو دوائر البحث ـ تضم مجموعات نادرة .

* في مكتبة دار المعلمين العالية حوالي ٦٠٠٠٠٠ مجلد .

* يرجع تأريخ مدرسة اللغات الشرقية الحية لتأريخ ٣٠ مارت ١٧٩٥ وفي مكتبتها أكثر من ١٥٠٠٠٠ مجلد ، ١٠٠٠ مخطوط وحوالي ٣٥٠٠ مجلة وجريدة .

* يدرس في الكولبج دفرانس ـ فيما يدرس : الاشوريات ، المصريات ،

الآداب العربية .

* انشيء معهد الدراسات الاسلامية عام ١٩٤٥ .

* تلحق بالسوربون مدرسة الدراسات العليا وتدرس فيما تدرس - الأدب العربي والتأريخ العربي .

* شهادة الدكتوراه على نوعين : دكتوراه الجامعة ودكتوراه الدولة .

تقتضي دكتوراه الجامعة في الآدب تأليف اطروحة (بالفرنسية) باشراف أحد الاساتذة ويناقشه ثلاثة (بضمنهم الاستاذ المشرف مناقشة علنية (ولايمكن للطالب أن يناقش قبل مرور سنتين على تسجيل موضوعه) ، ويشترط التسجيل - فيما يشترط - الليسانس أو مايعادلها . ويستطيع وزير المعارف ان يجيز - بصورة استثنائية - للطالب تحضير دكتوراه الجامعة - من غير ليسانس - وذلك بعد توصيات مجلس التعليم العالي .

وتقتضي دكتوراه الدولة أطروحتين : (رئيسة يدرس فيها الطالب موضوعه باشراف أحد الاساتذة ويكتبه بالفرنسية ، ومكملة ويدرسه بأشراف استاذ آخر ويكتبه بالفرنسية أو اية لغة تدرسها الكلية (ويفضل فيها تحقيق نص قديم ومقابلته على النسخ المختلفة وكتابة مقدمة له (بالفرنسية)) ويناقش الطالب مناقشة علنية خمسة اساتذة ثلاثة للرئيسة (بينهم المشرف) واثنان للمكملة (بينهم المشرف) ، (ولا يناقش الطالب قبل مرور ثلاثة أعوام على تسجيل موضوعه) .

اما كلية الحقوق فتشترط الدكتوراه الجامعة - غير الليسانس - الحصول على دبلوم الجامعة (ويقتضى دراسة سنة واحدة على الاقل) ثم كتابة أطروحة . وتشترط دكتوراه الدولة الحصول على دبلومين (يقتضيان سنتين - في الاقل) ثم كتابة أطروحة (يمكن الانتهاء منها في ظرف سنة واحدة) .

البـــاب الضيق

او

الدخول في دار المعلمين العالية بباريس (١)

لم تفقد دار المعلمين العالية بباريس (٢) ـ بالرغم من المائة والستين سنة التي مرت عليها ـ شـــيئاً من حيويتها او اشراقها ، فهي التي قدمت ـ وتقدم ـ لفرنسا خيرة الاساتذة وعـدداً من اكابر ادبائها وعلمائها وشخصياتها ؛ سل من شئت من أصحاب مكتبات الحي اللاتيني عن كتاب القصة والمسرحية الذين يلقون الرواج عند زبائنهم من فرنسيين واجانب ، يجبك :ـ جان جيردو ، جيل رومان ، روبر برازياك ، جان پول سارتر ، تيري مونيـه ، پول گيت ، روجه بيرفت ـ وكلهم درمعي «٣» . افتح جريدةما ، تجد اســـماء تتردد :ـ ادكار فور ، جورج بيدو ، ادوار اريو ، جاك سوستل ، مارسل كاشان ، ليون بلوم ـ وكلهم درمعي . ومثل ذلك قل عن

---

(١) مترجم عن مقالة كتبها المسيو باروس المدرس سابقاً في دار المعلمين العالية ببغداد ، اما الحواشي فللمترجم .

(٢) L'Ecole Normale Superieure والترجمة الحرفيمة هي : « مدرسة ٠٠٠٠ » وهي جزء من جامعة باريس وقد ولدت في معمعان الثورة الفرنسية ـ شأن كثير من المعاهد العلمية الشهيرة ـ بموجب قرار صدر بتاريخ ٣٠ تشرين الاول عام ١٧٩٤ م . وهي للبنين فقط [وللبنات دار خاصة بهن أسست عام ١٨٨١م] وهناك [في سن كلو ـ قرب باريس] داران اخريان : واحدة للبنين واخرى للبنات اقل صعوبة ولا تشترطان اللغة اللاتينية وتعدان ـ عادة المعلمين للتدريس في دور المعلمين الابتدائية .

(٣) ربما كان الدكتور ابراهيم سلامة اول من نحت الكلمة قياساً على الدرعمي نســـبة لدار العلوم بالقاهرة ، وربما وجد من يفضل [الدر معلى] .

ومن اعلام الدرمعيين الآخرين :ـ تين ، سنت بيف ، بركسون ، لانسون ، تيبودة ، الان .

ميادين الصحافة والنقد الادبي والدبلوماسية والعلاقات الثقافية والاذاعة والسينما حيث يلمع الخريجون من طلاب شارع ديلم (١) ؛ وعن ميادين العلم حيث يتولى الدرمعيون - ممن يترك التدريس - ادارة مكاتب الدراسات الصناعية الخاصة ، أو ينصرف الى البحث في الطاقة الذرية او يتم رسالة باستير - احد الدرمعيين العالميين .

تقسم الـ (د. م. ع) الى قسمين [٢] : الآداب والعلوم ، ويتم اختيار طلابها بامتحان التصفية الذي يجري كل عام لقبول حوالي الثلاثين لكل قسم منهما - على الا يقل عمر الطالب عن الـ (١٨) عاماً ولا يزيد على الـ (٢٣) عاماً .

يتلقى الطلاب الذين يرومون الدخول في دار المعلمين العالية - بعد حصولهم على شهادتي بكالوريا الدراسة الثانوية - تحضيراً خاصاً في الصفوف النهائية من الاعداديات الكبرى ، ويقسمون الى قسمين : الاول العالي للفرع الادبي ، والرياضيات الخاصة للعلمي . ويقتضي هذا التحضير - الشاق جداً - سنتين في الاقل - وقد يبلغ الاربع في بعض الاحيان . واول المزايا التي يجب أن تتوفر في الطالب للنجاح هي الصحة الممتازة والمقدرة الفائقة على العمل وعلى تحمل التعب . ان الاجسام الضعيفة لا تستطيع أبداً احتمال الصفوف التحضيرية . وثانيها ، خلقية تقتضي ان يكون طالب الدخول في العالية ممن يعرف كيف يمنع نفسه عن النزهات وارتياد السينما والمسرح وعن كل ما يحق لابن العشرين التمتع به والبحث عنه ؛ يجب ان يكون امتحان التصفية شغله الشاغل . وثالثها ، ذهنية : ذاكرة سريعة وأمينة ، عقلية تركيبية تستطيع أن تحيط ، بنظرة واحدة بقضية

---

(١) الشويرع الذي تقع فيه المدرسة Rue d' Ulm

(٢) انما يقصر كاتب المقال كلمته على الفرع الادبي وحدة ، لانه الفرع الذي عرفه وتخرج فيه .

معقدة ، ولا تحتفظ من الامور الكثيرة الا بالدقائق ذات المعنى ؛ ولباقة في الاحكام الادبية وقدرة على النقاش وشخصية في الاسلوب .

ان سبب صعوبة امتحان التصفية هو سعة منهجه والمستوى العالي للمعارف اللازمة في كل المواد . فلكي يبلغ طالب الدخول في العالية ـ ويعرف بلغة الطلاب ، الكانيو Kagneue ـ حظ القبول ، عليه أن يرتفع خلال سنتين أو ثلاث الى مستوى الليسانس — أو اعلى منه في مواد : الفلسفة ، الادب الفرنسي ، اللاتينية وآدابها ، لغة أجنبية حية (الانكليزية أو الالمانية او الاسبانية او العربية ، او الروسية) ، الاغريقية وآدابها (ويمكن أن تستبدل بها لغة أجنبية حية) ، أو تاريخ الدول العظمى منذ القرن الثامن عشر حتى اليوم أو تاريخ الاغريق أو تاريخ الرومان) .

ولكي نكون لانفسنا فكرة واضحة عن الجهود المطلوبة من « الكانيو » وجب أن نتتبعه خطوة خطوة خلال الاسبوع الاخير من مايس أو الأول من حزيران ، حيث يؤدي امتحان التصفية التحريرية . ويخصص اليوم الاول — بصورة تقليدية — للتاريخ . ان المنهج من السعة بحيث يكرس صاحبنا الشاب ليالي عدة على اعادات محمومة . وبالرغم من هذه وبسبب هذا ، يخيل اليه — وهو يجوس خلال قاعة الامتحان — أن رأسه فارغ ثم لا يلبث أن تأخذه سورة من التصورات والتنبؤات حول الاسئلة فيرجم بالغيب ويضرب أخماسا بأسداس . وها هو ذا أحد أعضاء الامتحان يحمل ظرف الاسئلة ويقول « أيها السادة ، انها الساعة الثامنة » أمامكم ست ساعات لتعالجوا الموضوع التالي : وينطق بكلمة واحدة هي (بسمارك) .

ومن الاسئلة التي ألقيت في السنوات الاخيرة : « الاحزاب السياسية في انكلترة » ، « استخلص الميزات العامة لثورات عام ١٨٤٨ في أوربا » ، « فكرة الحياد في السياسة العالمية بين حرب عام ١٩١٤ وحرب ١٩٣٩ » .

وتتألف لجنة التصحيح لكل مادة من أستاذين — من أساتذة السوربون — يصححان الدفاتر منفصلين . ولا تكتفي هذه اللجنة بصحة المعلومات وغزارتها وانما تتطلب وضوح خطة الجواب وجودة التعبير .

في اليوم التالي يعطى طالبنا — لحسن حظه — أربع ساعات فقط يترجم خلالها الى اللغة الفرنسية صفحة أستلت من مؤلف لاتيني (روماني) ، ويخصص اليوم الثالث لراحه ضرورية لليوم التالي حيث يختصم ومسألة فلسفية عسرة مثل : « يكون الله عقبة في سبيل حرية الانسان ؟ » ، « هل التمييز بين العرض والجوهر أمر ميتافيزيقي ؟ » ، « مفهوم النظام » ، « هل الـ أنا كائنة في الذات » ، « هل في التأريخ قوانين ؟ » . وليس لطالب الدخول في العالية مجال للاختيار بين الاسئلة ؛ سؤال واحد في كل سنة .

وبعد الفلسفة ، الترجمة الى اللاتينية بحيث يترجم الطالب خلال أربع ساعات الى لغة شيشرون ، صفحة من فاليرى أو قصيدة من لافونتين ، وليس ذلك بالسهل الميسور . ومن حق صاحبنا الكانيو أن يرتاح فى اليوم التالي الذي يمنحه عطلة قبل الامتحانين الاخيرين ، ونرجو أن يكون مستعدا للغة الفرنسية التي تنتظره : انه الامتحان الاصعب ، الامتحان الذي يخيب فيه خيرة الطلاب . تقدم للتلميذ فيه — عادة — صفحة من النقد الادبي ، تتضمن حكماً على أديب أو مدرسة أدبية أو نوع أدبي أو موازنة بين كاتبين أو عصرين أو مفهومين مختلفين لنوع أدبي واحد . و . . . . . يتبين الطالب الافكار الاساسية للنص ، يجمع الحجج التي تصطرع

من أجل تأييد هذه الافكار أو تفنيدها ثم يعرض — بكل حرية موقفه الشخصي من المسألة . وقد يطرح السؤال بشكل موجز جداً مثل : « باسكال ومونتيني » أو « نفس خلاقة ونفس نقادة » او « الادب الذي يتخذ موضوعه مناظر الطبيعة خارج فرنسا Exotique قبل شاتوبريان (١) » أو « أستتيك القصة القصيرة Nouvelle » .

لقد قارب طالبنا ، الآن ، نهاية امتحاناته ، ولم تبق عليه الا أربع ساعات يترجم فيها نصا عن الاغريقية . أما اذا كان متخصصاً بلغة أجنبية حية ، فعليه أن يجيب عن سؤال ذى ست ساعات في موضوع أدب تلك اللغة التي يختارها .

ينتظر - بعد ذلك نتائج التحريري ، ولا تعلن قبل مرور شهر . يلقى خلاله أعضاء الهيئة الممتحنة دورهم من التعب : على كل منهم أن يصحح أربعمائة دفتر - نصف ساعة في الاقل لكل منها ، وعليك الحساب . أما الطالب فيراجع مسوداته ويستشير أساتذته وينتهي بالاقتناع بنصيبة من ظهور اسمه في قائمة المقبولين للامتحانات الشفوية ، ربما كان هذا غرورا ! الخير ترك التفكير في هذا والانصراف للتحضير المنهجي . سيكون الصراع اشد مما كان عليه في التحريري لانه سيكون مقصورا على الستين الأول ، ولا يقبل من هؤلاء الا ثلاثون طـــالباً . ومما يزيد في قلق الستين وتوتر أعصابهم خلال الامتحانات الشفهية ، جهلهم المطاق لمكانتهم من ترتيب نتائج الامتحان التحريري «٢» ، أضف الى ذلك الحر (نحن في النصف

---

(١) وشاتوبريان أول من عرف بهذا النوع من الادب .

«٢» حين تعلن اسماء الناجحين . لا تعلن معها الدرجات ولا يدري الواحد منهم تسلسله العلمي لئلا يفتر عزم المتأخرين في ذيل القائمة عن مواصلة العمل والامل ، وقد حدث أن بذ أمثال هؤلاء كثيراً من المتفوقين في الامتحان التحريري .

الثاني من تموز) وكون الامتحانات علنية «١» وفي بناية المدرسة التي يتمنى الطالب أن يكون مقبولا فيها .

على كل طالب أن يجيب عن ثلاثة أسئلة ـ لكل سؤال نصف ساعة ، حول ثلاثة موضوعات يقع عليها عن طريق القرعة ، وبعد أن يعطى عشرين دقيقة يتهيأ بها ـ في غرفة خاصة ومن غير كتب وتسجيل ملاحظات ـ وما يكاد ينتهي من اجابته الشفهية حتى تحتدم المناقشة بينه وبين اعضاء اللجنة الممتحنة مدة عشرين دقيقة . هذا في التأريخ ، أما في اللغة اللاتينية والاغريقية والفرنسية والانكليزية فيلزم الطالب بأن يفسر نصوصا ، منها ما كان محضرا ـ بان تفرد له غرفة خاصة ـ ومنها ما كان ارتجاليا . ويستغرق كل امتحان حوالي (٤٥) دقيقة .

كل شيء الى نهاية ، حتى الكابوس المرعب ، يجتمع كل أعضاء الهيئة الممتحنة للمداولة ، بينما يتدافع الطلاب لدى قضبان سياج المدرسة منتظرين اعلان قائمة المقبولين من وراء زجاج غرفة البواب . وتقتضي التقاليد أن يهتبل الطلاب القدماء هذه الفرصة « للانتقام » فيصعد عدد منهم ـ ابناء الفروع العلمية عادة ـ وبيدهم أنابيت الاطفاء يوجهون مزنها على (المساكين) المتعطشين فيغرقون الجادة أمامهم ويعوقونهم عن الاقتراب من غرفة البواب ، ولا يستطيع ان يفوز بمعرفة النتيجة الا الجسور الذي يصمد لهذا (الدوش) القهرى .

أما المرفوضون ؟ فهم بين اثنين : اما معاودة المحاولة في السنة التالية «٢» ، واما ان يقبلوا المساعدة المالية التي تمنحهم اياها الحكومة لتمكنهم من

«١» أبواب قاعات الامتحان مفتوحة لكل من يريد الحضور من الناس .

«٢» ليس للطالب الحق في أن يعاود المحاولة اكثر من ثلاث مرات .

متابعة دراساتهم العالية «١» . اما السعداء الذين استطاعوا أن يجتازوا الباب الضيق فليست بهم حاجة لان نعلمهم كيف يستغلون الاشهر الثلاثة التي تفصل بينهم وبين بداية الدراسة ، انها ستكون أسعد عطل حياتهم ، وسيبدأون بعدها حياة جديدة كل الجدة .

المعلم الجديد ـ شباط ١٩٥٦

«١» وهذه المساعدة راتب شهري يتقاضاه التلميذ طوال حياته الدراسية على أن يظل بين المتفوقين .

لدار المعلمين العالية بباريس (١)

يبدأ شارع ديلم من البانتيون - حيث يرقد فولتير وهيكو وزولا وعظماء آخرون . واضفى عليه هذا الجوار الجد والوقار والهدوء ، انه واحة صمت في باريس صخابة . وانه واحة عمل أيضاً ، بما دمنا نجد فيه غير دار المعلمين العالية ، معهد الراديوم ، والمتحف التربوي ومدرسة الفنون التزيينية ، ولا نجد فيه باعة ولا مقهى ، ولا يمر فيه الاوتوبيس ، وان اقرب محطة للقطار الارضي تبعد عشر دقائق عن الدار ، وليس من السهل فتح محطة جديدة ، واذن فسيظل الدرمعيون يهبطون الى المحطة مشياً على الاقدام ، مارين بشارع استراباد وشارع مفتار وشارع اربالت حيث تقوم بيوت لم تكد تتغير منذ القرون المتوسطة ، يوم كان يمر بها الشاعر فيون واصحابه - من رفاق السوء .

ينهض مربع بنايات الدار القديمة وسط حديقة تضم « فناء » صامتاً يبعث على التأملات ، بنافورته وسمكه الاحمر الذي يسميه الطلاب « الارنست » نسبة الى المؤرخ « أرنست لافيس » الذي كان احد مدراء الدار . تشتمل هذه البنايات القديمة على غرف الادارة والمكتبه الضخمة بقاعاتها الثلاثين التي تحتوى حوالي مليون مجلد خاصة بطلاب الدار وخريجيها (٢) ، وقاعات الطعام وقاعات اللعب والرقص والسينما

(١) مترجمة عن مقالة كتبها المسيو باروس .

(٢) و للطلاب الحق في الافادة من مكتبة السوربون .

والجمناستيك والموسيقى والاسطوانات والجرائد والتلفزيون .

وكان الدرمعيون الى عهد قريب يسكنون في حجر « وصناديق » رديئة وقد نقضت هذه وشيدت عليها - بعد تضييق الحديقة - منذ عشر سنين مبان على احدث طراز مجهزة بآخر وسائل الراحة ، يمتلك كل طالب فيها غرفة واسعة مقسمة الى قسمين : المكتب والمنام . كما نقضت مبان عتيقة وشيدت على ارضها مختبرات فخمة تعتبر من أحسن مختبرات اوربا في الوقت الحاضر . وقد بعد العهد الذي كان يشتغل فيه « باستير » العظيم في مختبرات رديئة وقاصرة (أصبحت اليوم جزءاً من « صحة » المدرسة) .

كان الطلاب حتى عام ١٩٤٧ داخليين : تجهزهم الدولة في اثناء السنة الدراسية بالسكنى والطعام وتعطيهم شهرياً ما يساوي أربعة دنانير . وقد أثبتت الايام فساد هذا النظام الذي كان يحمل الطلاب على اضاعة قسط من وقتهم وفي اعطاء الدروس الخصوصية عبثاً خلال العطلة الصيفية الطويلة . ولكي تحول المدرسة دون ذلك ولتجتذب الشباب نحو مهنة التعليم - ذات الارباح القليلة بالنسبة الى المهن الفنية - ولتهيىء للمتزوجين - المتزايدين - من الطلبة حياة محتشمة . اعتبرت الطالب منذ دخوله الدار موظفاً يتقاضى مرتباً شهرياً قدره (٤٢) ديناراً ، فان كان متزوجاً تسلمها كامله (وزيادة) وان كان أعزبا وداخلياً استقطعت منها المدرسة حوالي الـ (١٢) دينارا ثمناً للغذاء وشؤون التنظيف . وقد جعلت هذه التغييرات الحسنة الطالب المتخرج يبدأ مهنته وخلفه خدمة أربع سنوات ، وفي ذلك ربح مالي . ويرسل الطلاب الذين يدرسون اللغات الحية الى البلاد التي يدرسون لغاتها فيقيمون فيها ثلاث سنين « قراءا » في الكليات ، وتتكلف الدار نفقاتهم اذا لم تلزم الاتفاقات الثقافية تلك البلدان بمثل هذه النفقات . وعلى كل حال ، فان النواحي المادية مؤمنة في صالح الطالب ليستطع أن

ينصرف لدرسه من دون تفكير بقوته اليومي . ويتعهد - هو لقاء ذلك بالخدمة في التعليم الثانوي مدة لا تقل عن ثلاث سنوات يستطيع بعدها أن ينتقل - كما رأينا - الى أي فـــرع يشاء من فروع الحيـاة ، الدبلوماسية أو السياسية او الادبية ، أو أن يبقى في التعليم حتى سن التقاعد ويجمع بينه وبين فعالية أخرى كالصحافة أو الكتابة .

تستلزم الليسانس عدداً معيناً من الوحدات Certificats الدراسية العالية : أربعا أو خمسا حسب الموضوع . فليســانس التعليم (اى التي تمنح صاحبها الحق في أن يعلم) تمنح في الفلســـفة والتأريخ والجغرافية واللغات ، واللغات والآداب الكلاسيكية واللغات والآداب الاجنبية ... للطلبة الذين يحملون وحدات خاصة في هذه الفروع . (أما الليسانس الحرة - ولا تعطي لصاحبها الحق في التعليم - فتمنح للطالب الذي يحمل أربع وحدات مهما كان نوعها) .

ان الوحدات اللازمة لليسانس الفلسفة مثلا هي : (١) الفلسفة العامة (٢) علم النفس (٣) المنطق (٤) الاخلاق وعلم الاجتماع (٥) وحدة من كلية العلوم أو كلية الطب : P. C. B (فيزياء - كيماء - بيولوجي) أو الرياضيات العالية أو الوراثه أو الاجناس . وكل وحدة تتألف من عدة دروس يلقيها عدة أساتذة وتستدعى امتحانات تحريرية وشـــفهية . ففي وحدة الادب الفرنسي مثلا يتكون التحريري من بحث (بأربع ساعات) عن أحد الادباء الذين عينهم المنهج ، وهذا المنهج ينص كل عام على حوالي (١٢) أديباً وكتاباً انموذجيين لمختلف الفترات بين الوسيطة والقرن العشرين . ولابد للطالب من أن يحصل - في الاقل على (١٠)

درجات من (٢٠) كي يكون أهلا للشفهي . ويتألف شفهي هذه الوحدة من ثلاثة أسئلة (١) سؤال في التاريخ الادبي حول موضوع محدود يستدعي معلومات دقيقة (٢) الشرح المحضر لنص من الفرنسية القديمة ، ترجمة الى الفرنسية الحديثة ، توضح المفردات والتراكيب ، التقويم الادبي . (٣) شرح محضر لنص من الفرنسية الحديثة لاحد الأدباء الذين أقرهم المنهج . ومن يرسب في الشفهي (في حزيران) يستطيع أن يعيده (وحده) في تشرين الاول (بعد العطلة) أو حزيران السنة الثانية - عند الحاجة .

يدخل الطالب الدار وهو يحمل وحدتين Certificats في الاقل ، حصل عليهما - من السوربون على سبيل الاحتياط - خلال المدة التي كان يتهيأ بها لامتحان الدخول ، وعلى هذا فان الدار تعطيهم المدة اللازمة (سنتين) يكملون فيها الليسانس . ولا شك في أن التحضير لهذه الوحدات لا يقتضي الشباب الدرمعي كثيراً من الجهود ، فقد مضت عليه مدة وهو في مستوى الليسانس ، وانه قد أصبح بمسيرة التخصص (في الاداب أو اللغات أو الفلسفة أو الرياضيات أو الكيمياء أو الفيزياء ، أو التاريخ الطبيعي أو الجيولوجيا) حسب ذوقه واستعداده من دون قيد أو شرط - بينما كان عليه قبل ذلك - وهو يتحضر للدخول في الدار - أن يكون - رضي أم أبى - مؤرخاً وفيلسوفاً ولغوياً ... الخ . لقد ضمن الطالب النجاح في وحدات الليسانس سلفاً ، ولا تقتضيه هذه الامتحانات المتبقية الا عملا قليلا ، اذن كيف يصرف وقته ؟ ان الادارة تثق به وانه يستطيع أن يفعل ما يحب ويشتهي دون رقيب أو حسيب . هو في الدار وكأنه في فندق ينام ويستيقظ ، يدخل ويخرج كيفما يشأ وأنى يشأ وقد سمح له بكل المتع .

ان التغير فجائي جداً - بعد الذي كان عليه هذا الطالب من شظف العيش وهو يستعد لامتحان الدخول ، انه ليصاب الدوار بسبب هذه الحرية المطلقة . ولهذا فان أول ما يفعله هو أن يغلق الكتاب ويلقي بنفسه بنهم على ما حرمه طويلا : المسرح ، الرياضة ، الرقص ، الموسيقى انه يكتشف الحياة . ولكن هذه الفترة من الحياة الخارجية والاجتماعية لاتدوم الا قليلا ، ان الدرمعي لا يلبث حتى يضع لنفسه قواعد يسير بمقتضاها ، فقد أحس بالضروة تدعوه لان يصوغ شخصيته كما يريدها هو أن تكون - وليس كما يريد الآخرون ، انه في فترة المشاريع الضخمة الجريئة : هذا يصمم أطروحة ستغير كل ما كتب قبله عن موليير ، وهذا يتأهب لكوميدية فلسفية وهذا يناقش رفاقه من أجل وضع فلسفة جديدة . انها سن المطامح وسن العمل أيضاً ، واني لا عرف رفيقاً من طلاب الفرع العلمي ، قام - منذ سنته الاولى - باكتشافين مهمين : واحد يتعلق بالتلفزيون وآخر باللحام الكهربائي مما لفت اليه أنظار كل العلماء الفرنسيين ودر عليه ربحاً مادياً بلغ حوالي ثلاثة آلاف دينار .

يفاتح الطالب بكل هذه المشاريع مدير الدار الذي يرشد الطلاب ويهيء لهم الاتصال بكبار الشخصيات الادبية والعلمية والفنية ممن يستطيعون مساعدته بما لديهم من خبرات ونصائح ونقد . ويقول له المدير : أتحب المسرح ؟ اذهب اذن - من قبلي - الى المسيو « س ... » أحد الخريجين القدماء ، انه سيدخلك المسرح حيث يستعدون لتمثيل مسرحيته المقبلة وبذلك تستطيع أن تلم عن كثب بأسرار الفن التمثيلي ، ان المسيو « س ... » يسره أن يشجعك اذا أحس بأن لديك الكفاية اللازمة لمؤلف مسرحي . وأنت ، أتشرع في كتابة أطروحة في الآداب ؟ ان هذا عمل طويل وشاق يحتاج الى علم بالطريقة ، انه من المناسب أن تتصل

بالمسيو « ي ... » ولابد من انك قرأت أطروحته عن فكتور هيگو ، انه يعد الان كتابا عن شاتوبريان ، انه يبحث عن شخص يساعده على التنقيب في مكتبات باريس للكشف عن رسائل شاتوبريان غير المطبوعة . وهكذا يصبح طالبنا هذا - وهو من أبناء السنة الاولى أو الثانية ، مساهما للمسيو ي ... ان هذا التدريب الذي يقوم به الدرمعيون خلال سنتيهم الاوليين من المدرسة لا يؤيد بأية شهادة مدرسية ولكنه ليس بأقل فائدة في حياته المقبلة .

ان الليسانس هذه لا تؤهل وحدها للتعليم الثانوي ، فلابد للطالب من مرحلة شاقة تقتضيه الحصول على دبلوم الدراسات العالية والنجاح في امتحان التبريز (الاگرگاسيون Agregation) .

المعلم الجديد - نيسان ١٩٥٦

مرحلة الدبلوم والتبريز

من

دار المعلمين العالية بباريس «١»

بعد أن يحصل الطالب على الليسانس يحل دور الدبلوم فيشغله سنة كاملة يكتب خلالها في موضوع يختاره هو ويوافقه عليه استاذ من السوربون ـ دراسة بحوالي مائتي صفحة يطبع منها بالآلة الكاتبة ثلاث نسخ . وليس لتنوع موضوعات الدبلوم حدود ، ولكي نكون عنها فكرة ما، نذكر أمثلة مألوفة في ميدان الادب الفرنسي فمرة يختار الطالب موضوعا محوريا من مؤلفات كاتب كبير (امتداد الوقت في آثار مارسل پروست ـ مؤلف (١٥) مجلدا بعنوان « بحثا عن الوقت الضائع ») أو أن يدرس موضوعا ثانويا جدا مثل موضوع الحلم في مآسي كورني ؛ ومرة يقوم البحث على اختلاف النسخ أو الاطوار المتتابعة التي مربها مؤلف واحد ، ومن الممكن كذلك أن نخرج من عالم النسيان ـ بمناسبة الدبلوم ـ كتابا لمؤلف ثانوي ـ له أثره التأريخي . وليس ممنوعاً ولا محرما على الطالب أن يكرس جهده النقدى على كاتب لازال في قيد الحياة ، لان المهم أن تكون الرسالة محكمة التأليف واسعة المعلومات كثيرة المراجع وسلسة القرأة برغم ما تقتضيه من تقعر . وكثيراً ما يكون هذا « الدبلوم » عدة

(١) مترجمة عن مقالة كتبها بالفرنسية المسيو باروس

الاطروحة في الدكتواه .

ان الاستاذ المشرف يقدم للطالب اعتراضاته ونقداته ، وعلى الطالب أن يجهد للدفاع عن آرائه . وعليه أن ينجح في امتحانات شفهية يقوم بها غير أستاذه المشرف من أساتذة الكلية فيطلب اليه شرح نصوص فرنسية تؤخذ من قائمة اختارها هو نفسه منذ بداية العام ، كما تطلب اليه الاجابة عن مواد لا صلة لها البتة برسالة الدبلوم ، فيسأل الطالب الذي ألف في الادب الفرنسي مثلا عن أمور من النحو اللاتيني والاغريقي ، ويسأل طالب الفلسفة الذي كتب في « فكرة النهائية في علم الاحياء المعاصر » عن كانت وافلاطون مما يجب أن يقرأه في النصوص الاصلية نفسها من دون استعانة بالترجمة .

وبعد عام الدبلوم يحل عام التبريز (اكرگاسيون) آخر مرحلة يجب قطعها قبل الانخراط في سلك التعليم . والتبريز امتحان رسمي غايته اختيار مدرسي التعليم الثانوي ، ويشترط في المتقدم للاشتراك فيه أن يكون حاصلا على الليسانس والدبلوم . ولكل فرع امتحان خاص به : الانكليزية ، الالمانية ، العربيه ، الاسپانية . الروسية ، (الآداب) الكلاسيكية (الافرنسية . اللاتينية ، الاغريقية) ، النحو ، الفلسفة ، التاريخ ، الجغرافية ، العلوم الطبيعية ، الفيزياء الكمياء ، الرياضيات [1] .

تتألف اللجنة الممتحنة من المفتش العام للتعليم رئيساً ونائباً عن الوزير ومن عدد من أساتذة كليات باريس والالوية الاخرى ومن استاذ من التعليم الثانوي ـ هو استاذ الصف الاول العالي ، اذا كان الامتحان في الآداب أو النحو .

«١» امتحان اللغات الحية هو الوحيد الذي يشترك فيه الجنسان مختلطين ، وفيما عداه ، يتألف كل اكرگاسيون من امتحانين منفصلين : واحد للبنين وآخر للبنات ـ والمنهج واحد .

ولكي نعطي أمثلة دقيقة سنعنى باگرگاسيون الآداب . ومنهجه في الادباء الذين تجب رداستهم ضيق وواسع في آن واحد ، وتتمثل فيه - فيما يخص الادب الفرنسي كل الانواع الاساسية . والمنهج يتغير - بالطبع - كل عام ، وهاك قائمة انموذجية توضح الفكرة : المؤلفين الفرنسين (أ) للعصور المتوسطة : ملحمة رولان ، (ب) وللقرن السادس عشر « مقالات» «١» مونتيني (ج) للقرن السابع عشر : مؤلفات موليير قبل الـ Prcieuses Ridicules «٢» أي مؤلفات شبابه قبل هذه المسرحية (د) وللقرن الثامن عشر : القصة : دراسة تفصيلية لقصص ماريفو وديدرو والاب بريفو مع دراسة عامة لتاريخ القصة في هذا القرن (هـ) وللقرن التاسع عشر : دواوين فرلين . ومن المؤلفين اللاتينيين : (أ) شيشرون (الجمهورية) ، تاسيت (التواريخ) ، جيفنال (الاهاجي) ، القديس أوغسطين (الاعترافات) . ومن المؤلفين الاغريقيين : هزيود (الاعمال والايام) ، سوفوكل (خمس مآسي كبيرة) ، افلاطون (الجمهورية) . والمنهج - كما ترى - ضخم وما تكاد تطبع قائمته أوائل آب من كل سنة حتى يبادر الطالب الحذر الحكيم لاقتناء كل المؤلفات التي ينص عليها ، ويكرس قسطا كبيرا من عطلته على قراءة اولى ولا سميا الجديد منها عليه . كما يستغل عطلته لمراجعة في النحو الاغريقي واللاتيني . ومنذ أول تشرين الأول - تاريخ افتتاح المدرسة ، يعمل بجد واجتهاد .

ان الاگرگاسيون امتحان صعب . لماذا ؟ أولا ، بسبب قلة عدد

«١» مقالات ترجمة Essais ومنهم يترجمها « محاولات » .

«٢» نقلت الى العربية بعنوان المتحذلقات ، وهي أول مسرحية في التسلسل الزمني لمؤلفات موليير .

الامكنة ، (٢٥ ـ ٣٠) لاگرگاسيون الآداب ، وبين الـ ـ ٤٠٠ ـ ٥٠٠ طالب القادمين من كل جهات فرنسا ـ وبينهم اساتذة شيوخ لان العمر غير محدد ـ أقل من المائة يجدون نصيبا جادا في التبريز ، ان الذي يؤذى الدرمعيين ـ مع هذا ـ هو العودة الى التمارين المدرسية التي تركوها تركا يكاد يكون تاما منذ دخولهم الدار . كما أنهم تعلموا خلال اقامتهم في الدار عادات جديدة للتفكير وقد بدأوا البحث الشخصي وغير النفعي . أن الامتحانات التي أدوها في اللسانس والدبلوم هيأت لهم وقتاً للتثقف الذاتي حسب اهوائهم من دون تفكير بالنفعيات ، واذا بهم تحتم عليهم العودة الى الوراء ليجدوا العقلية التي كانت لهم يوم كانوا يستعدون لامتحان الدخول في الدار ، ويتحتم عليهم الرضا بأن يجعلوا من أنفسهم عبيدا للمنهج ، ويتحتم أن يقلعوا عن مواصلة بحوثهم الشخصية التي ما زالت مجزأة ، ويتحتم أن يعاودوا تحضير البحوث ذات الاثنتى عشرة صفحة التي تضايق تفكير الدرمعى الناضج أكثر مما تضايق التفكير الوليد الذي كان عليه وهو كانيو Kagneux طالباً للدخول . ويفضل كثير من الطلاب أن يكون امتحان الاگرگاسيون في نهاية السنة الاولى أو الثانية من الدار ـ وليس هذا بالرأى الحالي من الصواب لان امتحانات الاگرگاسيون هي اعادة امتحانات الدخول للدار مع هذا الفارق الذي يشترط في حامل الاگرگاسيون وهو التبحر الاكثر دقة .

امتحانات الاگرگاسيون التحريرية خمسة هي : في الادب الفرنسي بسبع ساعات ، امتحانات في اللاتينية باربع ساعات لكل (ترجمة صفحة من اللاتينية الى الفرنسية ، وصفحة من الفرنسية الى اللاتينية) ، امتحانات مشابهة في الاغريقية . ويختار من الناجحين في هذه الامتحانات ستون طالباً فقط يستطيعون وحدهم التقدم للامتحان الشفهي .

يتألف الشفهي من سبعة امتحانات يجري كل واحد منها أمام لجنة. وأهم ما فيها - دون شك - « الدرس» ويختار موضوعه بالقرعة في الساعة الثامنة صباحاً ، وبعد ست ساعات من التحضير يقرأ الطالب تقريره في « ٤٥ » دقيقة « لا دقيقة أقل ولا دقيقة أكثر » بشرط أن يقنع اللجنة بسعة معارفه ويسمح لها بالحكم فيما اذا كان متوفراً هو على الفن - الضروري لكل مدرس - والذي يستطيع به أن يجعل الغامض واضحا والميت حياً او لا ؟ ان الدار تهيىء كتبيا يحضر للطالب كل الكتب التي يطلبها وهو يعد درسه هذا ، وفي ذلك خدمة لاولئك الذين سبق أن عرفوا هذه المؤلفات وألفوها ولكنها خدمة ضارة لاولئك الذين لا يعرفون الا أسماء هذه الكتب التي لايعرفون مراجعتها : انهم عرضة للغرق .

وتتألف الامتحانات الشفهية للاكرگاسيون - فيما عدا الدرس ، من سلسلة من شروح النصوص ، ومن هذه الشروح ما كان محضراً خلال ساعتين تتخذان ذريعة للمطالبة بالتبحر في الشرح ، ومنها ارتجالية تستل من مؤلفين لم ينص عليهم المنهج وغايتها معرفة قدرة الطالب على أن يوضح بسرعة أي نص فرنسي أو لاتيني أو اغريقي - مهما يكن .

يعد الدرمعيون الذين يجب عليهم التقدم للاكرگاسيون في نهاية العام ، اعداداً خاصا وشديداً ، كما انهم لا يتوانون من الافادة من دروس الاكرگاسيون في السوربون «١» . ومن تحصيل الحاصل أن نذكر بأنه اذا كان استاذ الادب الاغريقي - مثلا - عضوا في اللجنة الممتحنة فان الطلاب يواظبون على متابعة درسه ويقدمون كل ما يطلب من واجبات ، ولكن حصص كل نوع من فروع الاكرگاسيون في السوربون تبلغ حوالي ثلاثين ساعة في الاسبوع ومتابعة هذه الساعات كلها يضيع كثيراً من الوقت ؛ لهذا يعمل الدرمعيون - منذ بداية السنة المدرسية - على توزيع الجهد فيما بينهم

«١» تعد حملة الليسانس التعليم من غير طلبة دار المعلمين العالية .

بتعيينهم واحداً منهم لكل درس من دروس السوربون ذات الفائدة - يكون ممثلهم الرسمي فيه فيكونون بذلك جميعهم على علم بكل ما يجري في السوربون - من غير تبذير في الوقت . انهم يتلقون التعليم الاكثر جدوى في الدار نفسها . فمن يعطيهم اياها ؟ عدة من اساتذة السوربون يأتون المدرسة قصداً من أجل الاگرگاسيون الدرمعي . وتعليم هؤلاء الاساتذة في الدار - وليس في صفوفها الا (١٢) أو (١٣) طالباً - أكثر نفعاً منه فى مدرجات السوربون المزدحمة . كما أن الدرمعيين يتلقون دروساً معينة يقوم بها مدير الدار ومعاونه وسكرتير المدرسة العام - وكلهم كانوا أساتذة كليات . وفي الدار نظام خاص بها ذو نفع جم ، هو نظام الاگرگاسيونيين - المعيدين ، وهم الاوائل أو الثانون من متخرجي الدار يفضلون - بدلا من التعليم الثانوي - أن يمضوا في الدار نفسها سنتين أو ثلاثا أخرى يعملون في اعداد أبناء الدورات التالية لامتحانات الاگرگاسيون ، ويواصلون - في الوقت نفسه - بحوثهم الخاصة ، في المكتبة أو المختبر .

ان النجاح الدائم في امتحانات التبريز يرجع اذن في جزء منه الى نوعية التعليم الذي يتلقاه الطلاب ، وفي جزء آخر الى التنظيم الصالح في العمل . ان الطلاب - كي يتجنبوا ضياع الوقت - يقتسمون فيما بينهم قراءة بحوث المتبحرين ثم توضع الجذاذات لمنفعة الجميع ، ومثل ذلك يفعلون في قراءة آثار الادباء الاغريق واللاتين ، فانه اذا اشترك فيها اثنان تصبح أكثر سرعة وأقل املالا ، وتعود صعوباتها الشديدة أسهل حلا ، ولا تترك هذه الوسيلة شيئاً للمصادفة ، ان هؤلاء الطلاب يأتون الامتحان وهم أحسن استعدادا من أولئك الذين ظلوا يعملون منفردين .

عندما تظهر النتائج النهائية يستقبل رئيس اللجنة المبرزين الجدد حسب قدمهم ويعلمهم بقائمة الوظائف الشاغرة ويطلب اليهم اختيار الانسب -

حتى اذا جاء دور الاخير لم يجد - عادة - الا شواغر قليلة ، لا تشوق ؛ لأنها الشواغر التي لم يطلبها أحد .

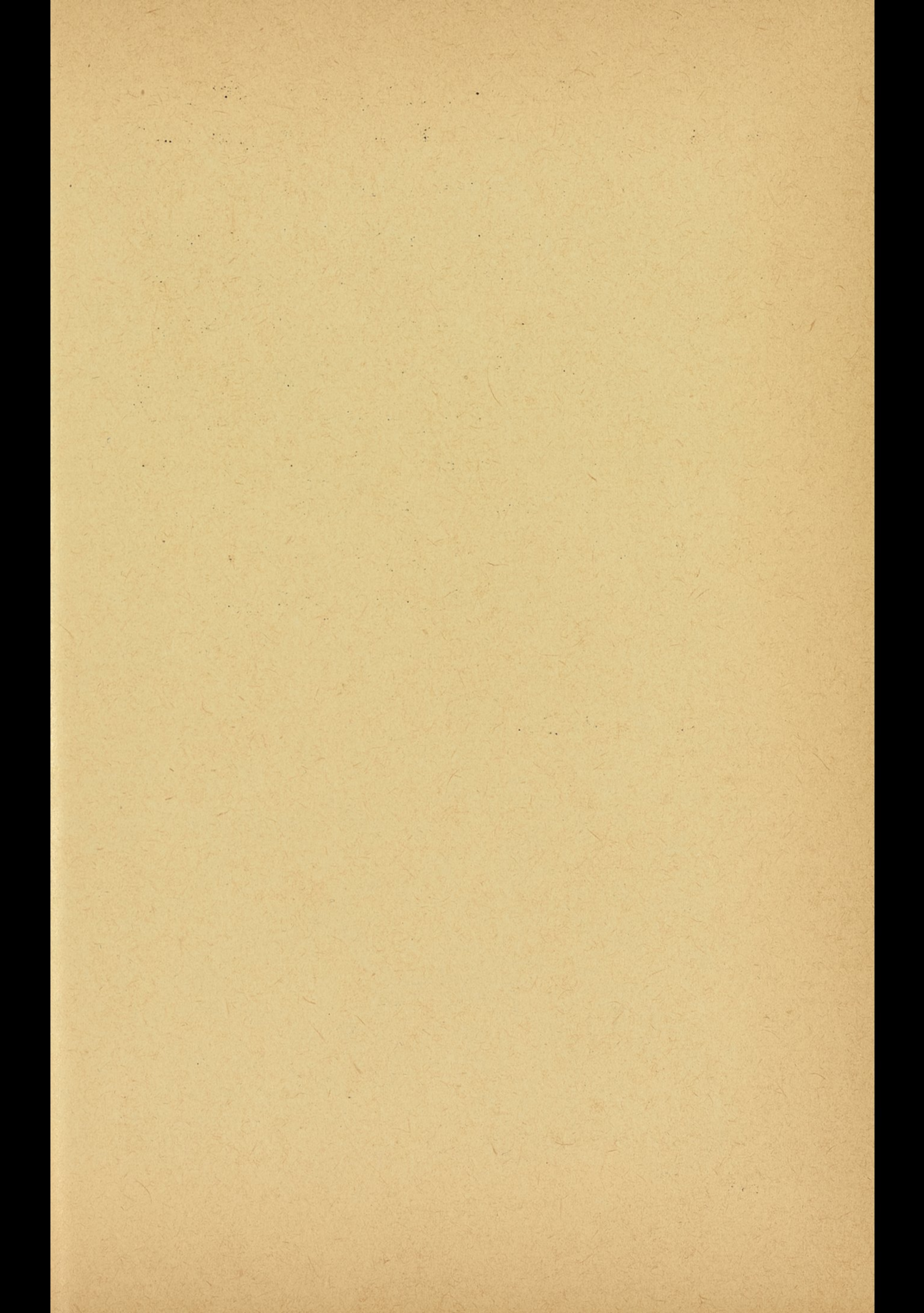
بين المتخرجين الجدد عدد لا يبدأ المهنة رأسا . فمن هؤلاء من تجب عليه الخدمة العسكرية ، ومن هؤلاء من يطلب أن يقبل في مؤسسة تيير Thiers لمدة سنتين أو ثلاث يحضر فيها أطروحة للدكتوراه تفتح أمامه باب التعليم العالي - حال انتهائها .

لقد فرقت الحياة هؤلاء الذين عاشوا عيشة واحدة ، في مختلف جهات فرنسا والعالم ، ولكن الصداقات التي عقدت في الدار ، تقوى على امتحان البعد وامتحان الزمن . عندما يحل المتخرج الجديد في مدن الالوية المجهولة ، يجد دائماً متخرجاً أو عدة من المتخرجين حاضرين لمساعدته ، واذا لم يكن بعيداً جداً عن العاصمة فانه لا يتأخر عن زيارتها لحضور حفلة الرقص التي تقيمها الدار كل سنة ، انها فرصة مناسبة يجدد فيها المتخرجون ذكرياتهم ويجددون صلاتهم بمن غابوا عنهم .

هل يتخرج الدرمعي مسلحاً للحياة معداً للمهنة ؟ لقد تعلم اشياء كثيرة في الدار - وقد رأينا ذلك . ولكن هل يدرس فيها فن التعليم كما اراد القرار الذي انشئت المدرسة بموجبه ؟ ليس من العدل أن نجيب بالنفي . لان « المحاضرات التربوية » التي تنظمها الدار تنور مدرسي المستقبل بأحدث البحوث العلمية في نفسية الاطفال والمراهقين . كما ان الوقت الكافي لان يروا عن كثب اطفالا ومراهقين خلال مشاهداتهم وتطبيقاتهم التي يجرونها في المدارس التجريبية - مثل مدرسة سيفر . ولابد من القبول في امتحان الاگرگاسيون من ان يكون الطالب قد امضى ثلاثة أسابيع في المشاهدة وثلاثة اسابيع في التطبيق العملي [١٢ ساعة في الاسبوع] ، ويقدم المدرس الاصلي تقريرا عن هذا المطبق .

من المألوف ان نسمع اليوم في عدد من الاوساط الجامعية بأن هذا الاعداد التربوي للدرمعيين غير كاف ، ومنهم من يتمنى ان تلحق بالدار مدرسة ثانوية تجريبية تكون بمثابة مخبر تربوي ؛ ويتمنى بأن يحصل كل الدرمعيين على بعثات الى الخارج وان يطبقوا في المدارس الاجنبية النموذجية. وتعود الدرمعيون ان يجيبوا عن ذلك : ان طلابنا في دور المراهقة ، وهل تعتقدون بأننا نحن أنفسنا بعيدون جداً عن المراهقة عندما نتخرج في الدار ونحن في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين من عمرنا ؟ أنستصغرون شأن الاتصال اليومي بأساتذتنا الاكثر تجربة ؟ واخيراً هل تعتقدون بأن « فن التعليم » هو نفسه مادة للتعليم ؟ مهما كان اعطاء مدرسي المستقبل الفكرة الدقيقة عن اختلافات التركيب للعقليات المتعاقبة التي يمر بها الوجود الانساني في اثناء نموه ، فان البحوث التربوية لا تكفي لتكوين المربى الصالح : المدرس يولد ولا يصنع .

المعلم الجديد ـ حزيران ١٩٥٦



(٦)

في التربية وتدريس العربية



أهل المواهب

ونقصد الى الموهبة في اوسع معانيها ، اي التفوق في ناحية من النواحي الفنية أو العلمية وما أشبه .

ولا نريد أن ندخل في بحث « الفروق الفرديـة » فنتطفل على علم النفس الحديث ، ثم الدخول في نقاش طويل عما فعلناه في هـذا المضمار ونحن ندرس هذا الموضوع ، وندرسه منذ سنوات وسنوات ، وقد تهيأت لنا من الفرص مـا كان مناسباً لأن نخطو بالنظريات خطوة على شيء من العملية ـ ولعلنا فاعلون .

في كل مدرسة ابتدائية عراقية بوادر مواهب جليلة يمكن ان تعد لتبني لامتنا المستقبل والحياة والمجد ولتعلو درجة بالحضارة الانسانية : هذا طفل جميل الصوت ، وهذا يحسن القراءة ، وهذا يبرع في الاعمال اليدوية وهذا يبدع في حل مسـائل الحساب وذاك في الصحة ، وذاك في الرياضة البدنية ... وتسير الايام ، وتنزل البكلوريا كالصاعقة على رؤوس الموهوبين، وبردا وسلاماً على قلوب الاوساط ومن هم تحت الاوساط ، وينجح اهل الذكاء العام واهل الاجتهاد و « الدرخ » و « يأكلها » اهل المواهب الخاصة: يرسبون ، ويشتد في حسابهم المجتمع القاسي الذي يرى فيهم اغبياء بلداء، والدليل الرسمي يسند رايه ، ويشتط في حسـابهم الآباء الذين يرون في رسـوب ابنائهم حطا لقدرهم وخزيا لعـائلتهم : « تضيع وقتك الثمين في الرسم !.. انا آكل رسم ! أشرب رسم ! انـا والله لا أدري ماذا افعل

بولدي ، كلما نهيته عن لعب الكرة ، احتال وعاد اليه من جديد .

وماذا ينفعني اليوم قولهم : « اما ان ابنك بلاء ... شاطر ... رياضي من درجة اولى » ، ماذا ينفعني ذلك ؟ لا شيىء . انا امرؤ أريد لابني النجاح واريد له المستقبل ، لان سمعتي قائمة على سمعته وحياتي متصلة بحياته . لعن الله المدرسة الحديثة ولعن ما جاءتنا به من بدع الرياضة ... هذه كرة قدم .. وتلك كرة رأس .. وهذا ركض سريع .. وذلك ركض بطيء .. ألهذا وجدت المدارس ؟! لقد كنا اعقل منهم ! .

ولا يقل اشتداد المعلم واشتطاطه عن فعلة المجتمع والاباء . انه يكد طول السنة يعلم الحساب ولم ينجح بنتيجة الحساب عدد يشرف ، وكيف ينجح وقد شغل فلان بالتمثيل وفلان بالخطابة وفلان بالقفز العالي ! أنا أعلم ان هذه النواحي لا تقل قيمة عن أي منحى من جوانب الحياة الواسعة ، واعلم ، وقد درست طرفاً من ذلك في دار المعلمين ولكن ما قيمة هذا العلم ازاء « لفت النظر » . والله ان أدع « موهوباً » يفلت من يدي في السنة التالية ويسندني في ذلك المدير الذي تهمه سمعة مدرسته .

ويلح المعلمون ويلح الآباء ويلح التلاميذ وتتكلل سنتهم بالنجاح والتهاني والشكر ، ويدخل الطلبة المرحلة الثانوية وتدور (الاسطوانة) وتمر سنون و « تتمشى » في البلد فتقرأ « الدكتور احمد ... » اختصاصي بجراحة الفم ، وصيدلية ابن سينا لصاحبها « يوسف » وتسمع ان « اكرم » هو رئيس البلدية وان فلانا هو ... وهكذا تقرأ وتسمع . فتعجب ولا تعجب ! ترى أين أصبح « حسن » الذي حاز أولية العراق بالقفز العالي ؟ وأين أضحى رؤوف الذي لم يكن ليضاهيه أحد في « الموسيقى » ؟ وأين بات « كاظم » الذي كان غريباً في تفهم النحو واستيعاب أسراره ؟

وأين أمسى حبيب وأين ألواحه التي أجاد فيها وأحسن ؟ كيف صار « عصام » الذي كان يبشر انشاؤه بجديد وبديع ؟ أين ؟ هذا كاتب في مصلحة نقل الركاب وذاك قاطع تذاكر في قطار البطحة وذلك بائع راديوات ... ولا ادري أين ذهبت البقية ولا شك في أن منهم من استطاع أن يتابع درسه في غير هواه ، كان ميالا الى الجغرافية ، دقيقاً في تخطيط خرائطها ولكن حاجة دار المعلمين من الجغرافيين محدودة واذن فليدرس اللغة العربية وليدرسها - فيما بعد - كأن اللغة العربية لا تشترط في صاحبها الميل والرغبة والمقدرة ! ثم هناك بقية أخرى سئمت « النقد » والغمز فآثرت « وظيفة » يكبرها المجتمع ويقدرها ويرهبها ويثيب عليها .

اننا نشكو ضعفاً في كثير من جوانب حياتنا ، وستتصل الشكوى ويستمر الضعف لاننا لم نعد لمعالجة المرض اطباءه الماهرين وحكماءه الحاذقين . انك ، كي تقضي على الضعف باللغة العربية ، ملزم أن تهيىء لهذه المهمة الخطيرة أناساً يرغبون في ذلك ، ومن رغب ضحى ، وسهر وأثمر . ولكي تقضي على الضعف بالرياضات ، ملزم أن تعد أولي الموهبة ، وهكذا ... انك ان أوليت الامور غير ذويها كنت كمن يقصد الى التأخر - وحاشاك ،

اذن أين يذهب أولو المواهب ؟ لم لا يستثمرون خير ما لديم ؟ انهم يذهبون الى ما فيه الكسب والربح ومن حقهم أن يعيشوا بخير وعافية ، ومن حقهم أن يبنوا ويتزوجوا ... أما الموهوب الذي يكتب عليه استغلال ملكاته فلا ولن يكون أكبر من شاعر ! أو رسام ! ها ! يا لسفاهة الرأي : ابني قصاص ! يابه نأكل قصص ، نشرب قصص . ابن فلان - ذلك الطالب الذي كنا نضرب المثل بغبائه يتخرج ويتخصص ولم يبق له

وقت يتسع لقبض كل ما ينهال عليه من مال وجاه . وابننا ! خلفتنا !
أديب ... موسيقي ... ممثل !

وكل تلك مفاهيم خطأ ـ والناس غير مسؤولين عنها . انهم يريدون أن يعيشوا ليأكلوا ـ وذلك أول حقوقهم . انما يسأل أهل التوجيه وأولو الامـر .

وليس مستحيلا على بلد يجد في النهوض من أن يتلافى الموقف . أمن المستحيل أن نتصيد النابهين جدا منذ الدراسة الابتدائية : هذا في اللغة ، وهذا في الرياضة ، وهذا في الصحة ، وهذا في الغناء ـ هذا وهذه طبعا . نتصيدهم ونعد لهم مدرسة مركزية خاصة بهم ، خاصة بكل فن من فنون الحياة ، تلك مدرسة النابهين المجهزة بكل ما يلزم من اساتذة وأدوات وطعام وملبس وتشجيع . يجد أهل الصناعة كل ما يريدون . ويجد اهل الادب كل ما يحتاجون . ويجد كل كلا . ويتخرجون ويرسل منهم من يرسل الى الخارج . ثم يعطون الاعمـال التي تتسق وقابلياتهم وتنسجم ودراستهم .

وثمة شيء آخر لا يقل أهمية عن هذا ، ابداً ، هو الجانب المادي ، الجانب المعاشي ـ ان شئت . لابد « للنابه » اذ تناط به مهمة من أن ينال لقاء أتعابه ما يناله أي موظف آخر وأي تاجر وأي مراب . أحرام على نحات أن يعيش ويبني ويتزوج ويلبس . أكتب عليه العوز يوم كتبت له الموهبة . أكتب عليه الضيق يوم كتب عليه العمل في ميادين الفكر والعقل ! !

المعلم الجديد ـ ك ١ ، ١٩٥٧

جرائمنا في تدريس عربيتنا «١»

لم ننجح في تدريس لغتنا . تلك بديهة لم يعد الاعتراف بها فضيلة .
العراق بلد عربي والعربية لغته الرسمية ، وهل من شك ؟! ولكن درس

[illegible] من أثقل الدروس على الطلبة وان « الواحد [illegible] منهم يفضل أن [illegible]
م كل شيء الا علماً اسمه النحو - مثلا - .

حصص العربية كثيرة ، ومدرسوها كثيرون ، ولكن ، ماجدوى ذلك
ن نجرم في حق لغتنا ، ماجدوى ذلك واننا لم نستطع أن نحبب هذه
ة الى نفسهم ، ولم نستطع أن نطوعها الى حاجاتهم ونمكنهم من
عمالها في التعبير عما يحسون .

لماذا ؟ ليس ذلك لان العربية صعبة جداً ... انما لاننا لا نعرفها
نعرف كيف ندرسها ... لانعرف ولا نريد أن نعرف ... أقول هذا ،
أعلم الضجة التافهة التي ثارت منذ سنين حول التيسير والتعسير ...
جة التي لم تلبث أن أصبحت غاية وراح الفطاحل يمضون السنين
ودون الدفاتر ... في نقاش لا طائل تحته ، ولكنهم يتلذذون في هذا
اش فهو مسلاة ووسيلة لاثبات العبقرية ، وقد أنستهم هذه النشوة
ف الذي بدأوا من أجله طريقهم .

«١» كتبت هذه الكلمة منذ حوالي العامين ثم طويت ، وقد بعثها اليوم ما تبديه «المعلم
ـ » من عناية بملاحظات المدرسين وتجاربهم ، وما تعمله وزارة المعارف بشأن اعادة النظر
لناهج .

ألخص التيسير في كلمة واحدة ـ لست مبتكرها ـ هي تدريس النحو العملي الضـــروري الذي يحتاجه الطالب فيما يقول ويقرأ ويكتب : المرفوعات المنصوبات ، المجرورات ... ما يقتضي الكلام اعرابه ... الافعال الخمسة ، الاسماء الخمسة ، اسناد المقصور للضمائر ... العدد ... أما التوافه من قبيل الضمة المقدرة على الالف المحذوفة ؛ ولتنصرنان ، جملة كأن المخففة ، فكل ذلك تخريف لا محل له من الاعراب ، واذا وجد في الكتب فقد وجد يوماً ما لضرورة اقتضتها حاجة الاعاجم ، واســـتدعاه ما يستدعيه كل اغراق ... وانا لا أمنع هذا الترف على طلاب التخصص ولكن ما جريمة هؤلاء الاطفال الذين ندعي الســـعي لاعدادهم للمواطنة الصالحة ؟ ! ان « الفرد » منا ليمضى السنين والسنين في اعراب صيغة التعجب حتى اذا جاء السبب وأراد أن يتعجب كان خطؤه أفظع من الخطأ الاول ، وما أبدع هذه الـ « ما » التي هي نكرة تامة بمعنى شيء ، مبتدأ ، مبنية على السكون في محل رفع ... وأبدع بها ، هذه « الابدع » التي هي فعل ماض جـاء على صورة الامر مبني على فتح مقدر لمجيئه على هـذه الصورة .

لا ... لا ... لنكن أرفع من هذا ، كفى هزلاً وكفى سخفاً ، وكفى حقارة ، ان الأمر أخطر مما نتصور ، أما بقية من غيرة !! والحديث يطول ، ويمكن أن نسير ونسير فنناقش كل مادة وكل موضوع وكل شروط وجوب تقديم المبتدأ الذي وهو المبتدأ .

يتخرج التلميذ في الصف السادس بل الرابع الابتدائي وهو عارف بعمليات الحساب الأربع وعارف بتطبيقها على شؤون الحياة اليومية ، فلم يتخرج الطالب من الصف السادس الابتدائي أو الخامس الثانوي أو الرابع ليسانس وهو لا يعرف عمليات القواعد الأربع من رفع ونصب

وجر جزم ... ؟ لقد كان أهل الحساب أدق منا واحكم ، انهم يقفون عند العمليات الأربع طويلاً ، ويحلون المسألة من غير استطراد وشوائب ومن غير مطالبة بتعريف الجمع أو التقسيم ... اما نحن « فندرخ » التعاريف ونطالب التلميذ وهو في الابتدائية أن يعلم لوغارتمات اللغة وجتاها وقتاها فنضيع الاصل ونهدم الأساس .

وشئنا أن نكون مربين وأردنا أن نفيد من علم النفس وأصول التربية الحديثة في الانتباه الى الفروق الفردية وفي مراعاة الحاجات فجعلنا صفوفنا علمية وأدبية - لا بأس ، وحسنا فعلنا ، ولكن ما جريمة طالب الفرع العلمي حتى نحكم عليه بدراسة الجمل التي لها محل من الاعراب والتي لا محل لها من الاعراب . وما نفعه من دراسة الاسماء التي لها الصدارة في الكلام ثم قل لي : أي انشتاين على وجه الارض يستطيع أن يعلم حكم « لكن » عند التخفيف ، ان النسبية أسهل من « تخفف لكن ولا تهمل ، غير أن الاسم فيها يكون ضمير الشأن محذوفاً ، ويكون خبرها جملة فاذا كانت الجملة اسمية لم تحتج الى فاصل نحو : فاطمة ذكية لكن أخوها بليد . واذا كانت فعليه وجب الفصل « بقد ، أو لم » نحو : فرح زيد حين رآني كأن قد عرفني ... » استغفر الله ، لو درس العلماء هذه التوافه لما تغلب پاستير على داء الكلب . ان كل ما نطلبه من هؤلاء الذين نعدهم لان يكونوا أطباء ومهندسين وكيميائيين ... أن يرفعوا الفاعل وأن ينصبوا المفعول وأن يجروا المجرور - ومن عرف ذلك فقد عرف كثيراً ، وماذا يمكن أن تطلب من بيطار يريد أن يلقي محاضرة تتصل بالحمير ومن نباتي يكتب عن التركيب الضوئي ، ومن حيواني يرغب أن يترجم كتاباً عن الخفاش .

لا ... لا ... ان الأمر أخطر مما نتصور ، ان بين معلمي العربية

من لا يميزون عند القراءة بين همزة الوصل والقطع ، ولا يدرون متى يكسرون همزة ان ومتى يفتحونها ، ... ولا يجزمون « يكتبون » بلم ... لماذا ؟ لانهم صرفوا العمر في دراسة العربية دون أن يدرسوها ؛ انهم لم يتعلموا كما تقتضي طبيعة الأشياء ، انهم لم يطبقوا الضروري اللازم والكنهم حشوا جماجمهم بالأحجار ... وكلنا مسؤول .

الحديث يطول ، ولا نريد أن نضيف سفسطة الى سفسطات كثيرة ، وكتب التيسير أمست ـ والحمد لله ـ أكثر من ان تحصي . ولنعترف ان ليس بين « فطاحلنا » من اعدته مواهبه للاضطلاع برسالة التجديد ، فلنكتف اليوم بالممكن ولنترك الاصطلاحات الكبرى لرجلها المنتظر .

وليست اللغة نحواً وصرفاً ومصدراً ! ... لا ... ان هذه وسائل لغاية أبعد وأسمى ، لغاية أولى درجاتها أن نمكن للعربي في استعمال لغته حين يقرأ وحين يكتب ... ثم الادب والذوق ، وليست هناك أمة ، على وجه الارض تحرم أبناءها متع الادب وتعمل على اماتة أذواقهم ... وهذه مدارسنا ، وهؤلاء اساتذتنا ، وهؤلاء طلبتنا فأين هو الأدب واين هو الذوق ؟؟ أمران ثالثيان ! انك لتجد بين طيات جدول الدروس : الانشاء ، المحفوظات ، النصوص ، البلاغة ... تأريخ الادب العربي ، ولنترك « تأريخ الادب » مطمئنا في كرسيه الوثير ... ونسأل عن صحة الانشاء ؟ لقد مضت على مدارسنا الحديثة أكثر من ثلاثين سنة ، ولكنها عجزت عن أن تخرج منشئاً واحداً ، واذا وجد من زاول الشعر أو القصة مزاولة ما مزاولةما فقد تعلم ذلك من نفسه وبنفسه ... أشهد أن درس الانشاء لايخلق المواهب ، ولكن أليس من واجبه أن يكتشفها ويتعهدها ؟ أليس من حقه أن يعلمنا كيف نكتب بعبارة مقبولة وبخطة منسجمة الأوصال «١» ؟ كثيراً ما يستحيل درس الانشاء عندنا : « طالعوا » وأشياء

أخرى . كأن يذهب ضحية باردة لدرس القواعد ، اذ يضطر المعلم عن طريق اغتصاب حصة الانشاء لاكمال منهجه الضخم .

يدفع الطماح بعدد مشرف من شبابنا الى مواصلة الدرس ... وينالون شهادات عالية وكلهم طموح ورغبة لان يؤلفوا ويحاضروا ويترجموا - وفي ذلك خدمة لهم ولامتهم ، ولكنهم ما يكادون يبدأون الطريق حتى ينكصوا ويتقهقروا ، ان اللغة الانكليزية أسهل عليهم من لغة آبائهم واجدادهم .

اللهم اننا نسجل خيبتنا في تحبيب الانشاء (١) ، كما وفي الافادة منه في تقويم لغتنا وتصحيح الاغلاط الشـــائعة والشطحات الفظيعة. ونسجل خيبتنا في الانشاء ، في درس المحفوظـــات ... وماذا درســـنا في المحفوظات ؟ « يختار » المعلم أقرب « منظومة » الى رأسه ، ثم يبدأ الطلاب يخططون جدولا « للكلمة ومعناها » ... لا ... ليست هذه الغاية من المحفوظـات ، هذا الدرس الحي الذي يفترض فيه أن يحبب الى الطلبة الادب ويشيع في نفوسهم المتعة ويربي فيهم الآذان والأفئدة . ليس المهـم في المحفوظات : الشـروح والمعاني ؛ فقد شبعنا من المتحجرات ؛ ولايشـترط الاطفال والبدائيون في حبهم أغانيهم الفهم الرياضي ؛ انما الموسيقى والايقاع والهزة التي تنبعث في نفوسـهم من حيث لايدرون . فأين من هـــذا درس المحفوظات ؟ هذا الدرس البغيض الذي يقترن بصورة المعلم يدخل الصف شاكي السلاح مزمجراً يطالب الاطفال بما لاقبل لهم به من شرح وحفظ .

لقد خبنا في درس المحفوظات ... وخبنا في درس النصوص ، الخيبة في النصوص تدل على نجاح الطالب العراقي فلقـد أثبت بأنـه من قوة الشخصية والثقة بالنفس بحيث لايزدرد كل مايجرعه قسرا من حصى

«١» المعلم الجديد ج ٦ مج ١٩ ص ٥٣ .

وأحجار غير كريمة ، ولا يعجب بكل ما يؤمر أن يعجب به وما تزال فيه بقية من ذوق فطري . كيف يعجب واستاذه على هذه الدرجة من الكسل ، يدرس وكأنه المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، كان عليه أن يعجب أولا .

أهذا هو درس النصوص الذي نسعى به الى تحبيب روائع ادبنا في الحماسة والغزل والرثاء ... روائعنا في القرآن وخطب العصر الأول ، أهذا هو ؟! ان فكرة استغلال درس النصوص لتقديم أمثلة انموذجية لكل عصر ولكل أديب من غير النظر الى قيمتها الفنية ، فكرة صحيحة ولكنها خطأ ... وكان الله في عون طلبة الفروع العلمية !

وذا خبنا في تدريس المحفوظات والنصوص ... فمن الاولى أن نخيب في البلاغة ، هذا العلم الذي قسموه الى ثلاثة : معانى وفيه الخبر والانشاء والتقديم والتأخير ؛ والذكر والحذف ؛ والقصر وطرقه ، والفصل والوصل ... ترى ما جدوى ذلك للغة والذوق والبلاغة والطالب الثانوي ... وقد « طرق سمعي » ان علم المعاني مما يدرس في الفرع العلمي وارجو ان يكون ذلك من الاخبار الكاذبة والشائعات المختلقة ؛ وأخشى ان يكون السبب ما التبس على السامع من وجود كلمة « علم » . قبل المعاني ... ولو صح ذلك لما حرم الطلبة من بدائع علمي البيان والبديع وهما علمان اعترف بهما السكاكي وغير السكاكي . لو فهم الذين يدرسون البلاغة لسئموا تكرار أمثلة جافة ميتة . ولاستطاعوا أن يميزوا فنونها في غير الكتب المقررة كأن ينبهوا طلبتهم اليها في الانشاء والمطالعة ... مبينين ما وراء هذه « الاستعارات والكنايات » من قوى خفية التأثير .

واذا تكاثرت الخيبة وتكررت ... نسي المرء الحديث عن القراءة ، فقد غرب عن البال وجود هذا الدرس العالي الغالي ولكن أين هو ؟ اننا

ندخل المدارس ونتخرج بدرجات عالية ونحن لا نعرف القراءة ولا نحسن الاداء ولا نتمثل المعاني ولا نرى النص ولا ما وراء النص!

اذن فلنقرر مطمئنين غياب هذا الدرس او موته - والبقية في حياة تاريخ الادب !

وتلح التعليمات التربوية على اعتبار دروس العربية من قواعد وقراءة وانشاء ... وحدة متحدة ، والالحاح صحيح ولكنه غير مجـــد لانه غير صحيح . ان الوحدة قائمة في الجانب العملي والفني من اللغة ، اما مفردات النحو والصرف المقررة فهي بعيدة عن أن تنسجم وتكون وحدة مع الجانب الحـــي ، انك لو طبقت منهج النحو على القراءة مثلا أضعت النحو والقراءة .

وبعد ، فليست العربية منهجاً يوضع او كتاباً يؤلف انما هي - قبل كل شيء ، معلم يعد . ولو تحدثنا عن اعداد معلمي العربية أو مدرسيها لطال بنا الحديث ، ولكنا نفضل الاحتفاظ بنوادر هـذا الباب ونكاته الى فرصة أخرى .

المعلم - آذار ١٩٥٧

تاريخ الأدب في مدارسنا

لنعترف أننا أمة ذات تأريخ أدب ولكنها من غير تأريخ أدب . وقد مضى علينا أكثر من نصف قرن ونحن نحاول فيه ايجاد هذا الكتاب فلم نستطع ، وذهبت المحاولات عبثا ، وهي - في الحقيقة ، محاولة واحـــدة ، وليست محاولات . فما كاد يبدأ الاول حتى تهافت عليه المقلدون والماسخون والناسخون ولا يزيد المتأخر عن نقل المتقدم أو ترجمته (١) دون معاودة البحث ودون مراجعة النصوص وهذه سنة ورثناها - لسوء الطالع - عن كتاب التراجم القدامى اذ يتكررون على اختلاف المؤلفين واختلاف اسماء الكتب وليكن بعد ذلك اسم الكتاب « البداية والنهاية» او« شذرات الذهب » ... أو أي شيء آخر . ثم ان هذا الاقبال المنقطع النظير لم يقم على أساس علمي معقول ، وكان الاولى أن نعنى بنشر المخطوطات وتحقيقها تحقيقاً علميا (٢) والاكم هي الدواوين التي تصلح لان تكون أساساً للدراســـة ؟ أين هي دواوين جرير والفرزدق وجميل ... وأين دواوين أبي نواس وأبي تمام والبحتري ... والابيوردي والطغرائي ... وصفى الدين ؟ ؟

يتخرج الطالب في ثانويات الغرب وقد كون لنفسه فكرة واضحة ومتسقة عن تأريخ أدبه تلقاها على أيدى أساتذة متمكنين من دراستهم ومن

---

(١) يراجع : النويهي - ثقافة الناقد .

(٢) يراجع : امين الخولى - فى الادب المصري .

تدريسهم وقرأها في كتاب حسن التبويب بين القصد ، لا لغو فيه ولا « فلسفة » ، تؤيده النصوص المناسبة الحسنة التقديم البارعة الدلالة ... الى آخره ... ، فما كنا لنقابل أنفسنا بقوم يخلصون في عملهم ويتنافسون في الابتكار ويسعون للاجود من غير كسل .

والمضحك في أمرنا أن الخرف قد تمكن من تأريخ أدبنا بحيث أضاع أبسط المسلمات المنطقية ! أردت أن تبني بيتا ، فهل تعلق « الشيلمان » في الهواء ثم « تعگد » قبل حفر الاساس ! لا . لا ... ولكنا هكذا نسير في تدريس تأريخ الادب العربي - وأقل ما تقتضيه كلمة « تأريخ » هو الترتيب الزمني وتوالي عصوره فلا يأتي مثلا القرن الاول بعد القرن الثامن ...

اننا نبدأ منهجنا في الثانويات بالعصر العباسي - العصر الاول وليس « العاشر » - لحسن الحظ ... ولكن أين الجاهلي ؟ وأين الاموي ؟ انتظر قليلا فالعجلة من الشيطان ! ابدأ بأبي نواس والبحتري وابن الرومي ... تنتهي حتماً بعبد الله بن الزبير والحجاج بن يوسف الثقفي وقطري بن الفجاءة - وكل من سار على الدرب وصل ! لا ... ما هكذا تورد يا سعد الابل . انك ان طالبت التلميذ العراقي بفكرة واضحة عن تطورات تأريخ أدبه وعن صلة العصر بالعصر ، والاديب بالاديب كلفته شططا ، وان جهل الاجابة دل على شخصية ومنطق ...

ثم ماذا ؟ هذه العناية بعلي بن عبد العزيز الجرجاني وابي الحسن السلامي ... أين أشعارهم ؟ وأين أخبارهم ؟ اذ ألزمنا الطالب والمدرس بدراستهم دراسة تفصيلية . ثم من ابن زهر ؟ ولم لا ابن خفاجة ؟ ... ثم ... ثم من ابن الوردي ؟ أعوذ بالله ! هو صاحب المعلقة البصلية . أعوذ

بالله وصلاة الله وسلامة وعلى الشعر الرائع ! وأعوذ بالله !

- بهذا - سيداتي وسادتي - ينتهي الصف الرابع أو يكاد فيبتدىء الخامس بالشعر الجاهلي وصدر الاسلام فالعصر الاموي .

صحيح أن « علم » تأريخ الادب يعني بكل شيء ، فلا يميز بين غث وسمين ، لان واجبه أن يترصد التطورات والتغيرات التي تعتور الادب وتكتنفه من خير ومن شر ، صحيح . ولكنه في الدراسة الثانوية لا يعني في أية حال من الاحوال - العناية بابن الوردي والبو صيري . اننا ندرس العصر وندرس نماذج من آثاره وخلاصة موجزة لمشاهيره ثم نتفصل بواحد أو اثنين من أعلامه الذين يستحقون الاهتمام لنجاحهم الفني ، ولم لا نجمع بين الذوق والتأريخ ! لم لا نحسن التوزيع ؟ وهل يعني التأريخ الادبي النص على العناية بالطرماح بن حكيم ونسيان جميل بثينة ! اللهم لا . ولسنا أول من يدرس تأريخ أدبه بين أمم العالم . ولا تجد أمة تنص في مناهجها للمدارس الثانوية على أسماء شعراء من الدرجة العاشرة والعشرين .

نعم ، لقد ظهرت في العصر العباسي الاقاليم ، ولكن هل يحتم ذلك البحث عن شاعر يمثل « فارس » ... البحث بكل سبب حتى لو عثرنا على المرحوم علي بن عبد العزيز الجرجاني ... البحث ... ولا تهم بعد ذلك الصلة بين الاثر والبيئة ، والافضل الا توجد ولا تظهر !

وجدت الاقاليم . ولكن أين ندرس المتنبي ؟ لقد أخرجناه من العراق ولنا في ذلك أدلة ! أهو شامي ؟ لا ! أهو مصري ؟ لا ... ان الشاعر الكبير فوق حدود الاقاليم وقيود البيئة وسدودها .

كنا نسعى لان يكون تأريخنا كاملا ! لا بأس في ذلك ولا ضير . ولكن ما بالنا نسينا حتى الاشارة العابرة الى فترة طويلة تمتد على مساحة طولها

أكثر من ثلاثة قرون وكان من سكنتها مهيار والابيوردي والطغرائي ... وغيرهم .

اذن يبدأ الطالب الثانوي بأبي نواس لينتهي بقطرى بن الفجاءة ماشياً كمشية العرنجل بين القرون مرة « صاعـــد » ومرة « نازل » تتقاذفه الدروب بين اليمين والشمال والرأس والقدم ـ وساعده الله تعالى على ما يعترضه من مستنقعات وهوام .

ولكن ، أتدرى كيف بلغ محطة أبي نواس ؟ بلغها بعد ان درس في الصف الثالث « ادب العصر الحديث » اي انه درس البارودي قبل المتنبي ودون ان يسمع بالطغرائي ، ودرس السيد حيدر دون ان يسمع بمهيار ودرس حديث عيسى بن هشام قبل ان يدرس المقامات ! درسهم ، وهو لا يدري لم درسهم ! لان المعقول أن يكون تاريخ الادب وحدة متطورة تتضح خطوطها العامة في سيرها الطبيعي . ستقولون ان العصر الحديث أقرب الى مدارك التلميذ ، وطرائق التربية الحديثة تقتضي الابتداء بالاسهل ! وهل هناك حجة اعظم من هذه لتبرير الخطأ ؟ لا . اذن فما قولكم ـ دام فضلكم ـ بتدريسه تاريخ اربعة آلاف سنة قبل الميلاد وهو في الصف الاول المتوسط ؟ ما قولكم بتدريسه كمشتكا وآلسكا والاسكيمو قبل ان يصل الى الصف الثالث المتوسط . ثم ماذا ؟ قد يكون الذي « وضع العربة امام الحصان » حسن النية سليم القصد ولكنه كان ـ دون شك ـ جاهلا بالادب وطبيعة السهل والصعب منه . ويكفي انه حسب وخال وظن ان عبدالحميد الرافعي وعبدالمطلب والازري والعمري والاخرس والتميمي والحبوبي والشاوي والحلي والسويدي والآلوسي ... حسبهم خالهم من عصر التلميذ وذوقه . استغفر الله ان هؤلاء ـ رحمهم الله ورحمه ـ ليسوا من العصر الحديث في شيء ... وليسوا من العصر القديم في

في شيء ... ان صفحتين أو ثلاث في أعقاب الفترة المظلمة في مقدمة العصر الحديث تكفي كل الكفاية للالمام بهم - لان الذوق يجب ان يظل السيد في تدريسنا الادب ولا سيما في صف متوسط . وليس في الادب قديم وجديد وانما فيه جيد . . والجيد جديد ولو كان جاهلياً . والمفتعل قديم ولو كان على لسان ابناء القرن الثلاثين .

ثم ، نسيت أمراً آخر . نسيته لاني لا استطيع ان اتصور وجوده . ولانى لا أرى له صلة بالادب او تاريخ الادب . اعنى تلك النائبة التي تنزل على رأس التلميذ اذ يجوس خلال الصف الثالث فما يكاد يخطو الخطوة الاولى حتى ينقض عليه السقف . لماذا ؟ لان البناية قديمة جداً ولما عزم المهندسون على ترميمها وتجديدها قرروا التسقيف « بالشيلمان » وتركوا الاساس والجدران كما كان وكانت . لقد خيل الينا بأن التجديد في تاريخ الادب يقضي بأن نفجأ التلميذ والتلميذات بالكلام على اشياء لا يدركها ولا يجد لها نفعاً : معنى الادب . تاريخ الادب . نشأة تاريخ الادب . وغايته . تقسيم الكلام الى شعر ونثر . تأثر الادب بعوامل الحكم والبيئة والثقافة . ألهذه الامور هذه الاهمية وهذه الصلة بالادب وتاريخ الادب واهل العلم لا يدرون . لا ... ليست لهذه السفسطات من صلة توجب الخوض فيها ... وهل يحتاج طالب الى درس في تقسيم الكلام الى شعر ونثر اذا كان قد درس نصوصاً من هذا وذاك في الصف الثاني مثلا ؟ واخيراً وبعد أخذ ورد اتراك تزيد على ان تجعل الشعر الكلام الموزون المقفى ! لا ، « ما هكذا تورد ياسعد الابل » ! وقد اطلنا .

وخلاصة الرأي ان نثوب الى رشدنا فنأخذ بتدريس تاريخ الادب في تطوره الطبيعي مسجلين اهم ظواهره مشيرين الى ابرز اعلامه ، مطيلين

الوقوف عند النماذج الرائعة التي يتذوقها الطالب ويتذكرها وتربى الحس الفني فيه وتحبب اليه ادب امته وتعينه عند الكلام والانشاء وتهيىء له القدوة الحق . اننا حينما نقف عند المثل البارعة نتطرق الى ما فيها من عواطف وأخيلة وما فيها من آثار بيئية ، وما فيها من تنوع الاساليب ، والى ما فيها مما يتحدى القواعد والعوامل وما يتمرد على السدود الضيقة ليرتفع الى مصاف الادب العالمي في تعبيره عن خلجات النفس الانسانية في مشارق الارض ومغاربها . وهذا « التطرق » المناسب الذي استدعته طبيعة النص يهيىء للدرس كثيراً من الحيوية وللطالب كثيراً من المتعة وللادب كثيراً من البقاء .

اما كيفية توزيع هذه المادة على السنين فتكون بأن يتخذ الصف الاول خطوة تمهيدية يسمع الطالب خلالها عدداً من النماذج ، ويحفظ المختار من المختار على اختلاف العصور مع مراعاة السهولة واليسر والسمو الفني . حتى اذا انتقل الى الصف الثاني بدأنا معه من البداية : صفحة أو صفحتين عن العصر الجاهلي والادب العربي فيه واشهر اعلامه ثم قراءات من شعره العالي - شعره فقط - قراءة مع بيان لمواضع الجمال فيه وحفظ شيء منه . ولا يمكن ان يكون العصر الجاهلي مفاجأة للطالب المتوسط فقد درس - كما راينا - السومريين ... والفراعنة ... والعبريين . واليونان والرومان .. كما درس التاريخ العربي ، ولكن لا ، انه لم يدرسه ! ان منهج التاريخ يقفز من الرومان الى دور الرسالة والراشدين فأين العرب قبل الاسلام وأين نجد والحجاز وأين العراق والشام ... ! لقد كنا ندرسهم في يوم من الايام . ولا يمكن أن يفجأ العصر الجاهلي طالب المتوسطة أو يفجعه ! لاننا ، انما ندرس منه روائع أدبه ومن شأن الروائع أن تتحدى العصور والبيئات . ان ما يعجبنا اليوم من شعر

امرىء القيس وطرفه والنابغة وزهير ومما اختاره أبو تمام في حماسته ليس بأصعب مما نقدم لطلابنا من شعر الكاظمي مثلا ، وهو دون شك أمتع من شعر أحمد محرم وعبد المطلب والعمري ... الخ الخ أمتع وأروع - وأسهل ان شئت .

وفي مدة تقرب من تلك نتكلم له بصفحة أو صفحتين على الادب في صدر الاسلام وأهم ما أصابه من تطورات وأشهر أعلامه ثم نقف وقفة أطول عند نماذج من القرآن ومن الخطب . اما حسان ومن الى حسان فنمر بهم - غير ظالمين - مر الكرام .

ثم ننتقل الى العصر الاموي ونتكلم في صفحة أو صفحتين على صلة الفترة بسابقتها وأهم ما جد فيها من اتجاهات وأبرز من ظهر فيها من أعلام . ونقف عند نماذج مختارة من شعر جرير والفرزدق ... وجميل وعمر ابن أبي ربيعة ... وشعر آخر حفظته لنا الحماسة ، وعند نماذج من الخطب . أما عبد الحميد ومن الى عبد الحميد فيكتفى عنهم باللمحة الخاطفة في المقدمة .

وينتهي العام بخلاصة استعراضية لسير الادب وتمهيد للسنه الجديدة .

ويبدأ الصف الثاني بمقدمة تذكرية يدخل بعدها المدرس في الكلام بصفحتين أو ثلاث على الادب في العصر العباسي مشيراً الى أعلامه في كل فن ثم يوزع وقفاته بين روائع : بشار وأبي نواس وأبي تمام والبحتري والمتنبي والشريف الرضي والمعري ولا ضرورة لعلى بن عبد العزيز أو السلامي أو ابن زهر ... خير من هؤلاء « الاعلام » نماذج مختارة من شعراء مقلين أو مغمورين نتصيدها هنا وهناك . ثم أين ابن خفاجة ؟ أما في الخطابة فلنكن صرحاء ولنقل بأنها لا تستحق الاهتمام وان وجد مثل حي فأهلا به وأما في الكتابة فلنكن أكثر صراحة ولنكتف بصفحة من

الجاحظ وصفحة من التوحيدي ومقامة من بديع الزمان ولا بأس في وقفة عند الف ليلة وليلة ولا شأن لنا بابن المقفع ولا بغيره ولعلنا لو اتعبنا انفسنا بالبحث ، وجـــدنا في الزوايا مثلا أو مثلين مما يســـتحق القراءة والحفظ .

كل ذلك على سبيل الايجاز وعلى اختلاف في الطول والقصر مع تأكيد خاص للجانب الفني ولما في الاثر من معاني النفس الانســـانية ، حتى اذا انتهينا تكلمنا في صفحة أو صفحتين على الادب بعد سقوط بغداد ولا يمنع هذا من ذكر اسم ابن الوردي والبوصيري ولايمنع من قراءة أبيات من صفى الدين وللطالب أن يحفظ منها ما يستحسن ثم ننقتل بصفحة أو صفحتين للكلام على الادب في العهد العثماني مؤكدين حالة العراق في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر قارئين مثلا من هذا وذاك كحيدر والحبوبي والاخرس .

يأتي العصر الحديث ونكتفي بصفحتين أو ثلاث عن تجدد الحياة فيه واتصال الشرق بالغرب والعوامل التي أثرت في الادب وتنويعه ثم نمـاذج ... النماذج المختارة هي الاصل ... للبارودي وشوقي ، وحافظ - ان كانت هناك ضرورة . ولابأس بصبري وعلي محمود طه . ونمـاذج من المنفلوطي والرافعي والمازني ثم الزهاوى والرصافي - اذا لـــزم الامر . ثم صورة من أدب المهجر (جبران . ايليا أبو ماضي . نعيمة . فرحات ...) ثم طه حسين والزيات ، والجواهري . بشارة الخوري وعمر أبو ريشة وعمر النص

هذا هو منهج الصف الثالث وهو مهما يطل أقصر من المنهج المقرر ، أقصر وأكثر متعة ونحن نهدف الى تربية الذوق والحاسة الفنية .

ان هذا المنهج يهيىء لكل الطلبة العراقيين الالمام بالخطوط العامة لتأريخ

أدبهم كاملا سواء دخلوا بعد الدراسة المتوسطة الفرع الادبي أم العلمي أم التجاري أم الموظفين الصحيين وضباط الصف . أم هجروا المدرسة الى الحياة العملية والتجارية . وهذا الالمام العام جزء من الثقافة العامة وشرط في الانسان الحديث . وهذا الى أن ادامة النصوص وادامة قراءتها وحفظها هو جزء من درس المحفوظات ومتمم للقراءة ومؤيد للقواعد ومرب للشخصية .

حتى اذا جاءت المرحلة الثانوية بدأنا ـ كما يجب أن نبدأ ـ بالعصر الجاهلي وانتهينا ـ كما يجب أن ننتهي ـ بالمحدثين والمعاصرين محاولين التوسع بالصورة التى المنا بأطرافها في المتوسطة ، مفصلين عددا من النواحي تفصيلا يؤلف للطلبة نموذجا في الدراسة ، فنختار شـــاعراً وندرس حياته وآثاره ومزاياه ، وكاتبا ... وخطيبا ... وقصاصا ... ونختار غرضا من الشعر كالغزل أو الحماسة ... فنتتبع تطوراته ونتبين سماته ونقرأ الكثير من أمثلته ونحفظ النموذجي منها ... أو ضربا من النثر كالخطابة أو القصة ... أو المقالة وما أشبه دون أن ننسى النصوص والتأمل في تحليلها واستجلائها وتطبيق ما يقتضيه السياق من موضوعات البلاغة والنقد الادبي . ولنقف وقفات خاصة عند قصيدة وخطبة ومقالة ... نتخذ دراستها منهجا ودليلا ومعينا على دراسة أمثالها .

وبهذا يصبح تأريخ الادب العربي تأريخا وذوقا وشخصية ... ومتعة وحيوية وسنربح جانبا من الوقت كنا نضيعه في درس معين اسمه البلاغة ودرس معين اسمه النصوص ودرس معين اسمه القراءة ـ هذا ما يخيل الى . ولنجرب ولن نضيع شيئا . ولن نقع بأتعس مما نحن فيه . وشكاوى الطلبة والمدرسين محقة ومتكاثرة فقد خرج تأريخ أدبنا عن كونه تأريخا وخرج عن كونه أدبا ـ وانا لله وانا اليه راجعون .

المعلم الجديد ـ حزيران ١٩٥٧

كلمة في منهج اللغة العربية

لغتنا عماد وجودنا ووجود امتنا ، واعتقد أن ضعف طلبتنا في هـذه اللغة أصبح بديهة لاينكرها الا مغرض أو معاند أو معاد ـ ومن الطلبة يكون رجالات البلد ، واذن فليس من اللائق أن يقف المســؤولون متفرجين من هذه الظاهرة المؤلمة المؤسفة المحزنة .

ولا أطيل .

انما ارجو أن ترعى وزارة المعارف هذه الناحية وتوليها عنايتها فتؤلف اللجان الجادة لتشخيص الداء ووصف الدواء العاجل .

وهذا درب قـد يطول ، واذن بأس من أن نبدأ منذ الآن بالممـكن وبالجزء ـ وما لا يدرك كله لا يترك جله . ولي في هـــذا رأي متواضع أنضجته الايام في الدراسة والتدريس ومشاهدة المطبقين والاتصال بالمدرسين والطلبة ، أرفعه راجيا أن يلقى القبول ، ولا أبغي من وراء تقديمه غير خدمة هذه اللغة وخدمة أبنائنا الذين ضاقوا ذرعا بدرسها ومن ثم تخفيف المسؤولية التي أشعر بها والتي أثقلت ضميري .

الخص هذا الرأى بـ :

١ـ الغاء « النحو الواضح » المقرر لسنوات الدراسه المتوسطة الثلاث .

٢ـ حتى تنتهي لجنة تضع منهجا وكتبا لهذه الصفوف تقرر الكتب المقررة الآن في مصر (مع توصيات الى المدرسين بشأن استعمالها) وهي

كتب « قواعد اللغة العربية » التي الفتها وراجعتها لجنة شكلتها وزارة المعارف هناك . مع العلم بأن « النحو الواضح » كتاب مصري أيضاً . وان كلا الكتابين من مطبوعات دار المعارف .

٣ـ الغاء علم المعاني المقرر في الصف الرابع من الفروع العلميه في الدراسة الاعدادية .

٤ـ الغاء منهج النحو الدي ألف عليه « النحو الاعـــدادي » الذي لايمكن أن يفيد طلبة الآداب فضلا عن العلوم .

٥ ـ الاستفادة من الساعات الحاصلة عن هـذا الالغاء في القراءة والانشاء وهما الاساس في اللغه والحياة ، ولعلكم ترون مناسبا أن يتبع في هذا الفرع ماسبق ان أقر للقسم الثانوي من مدارس الفنون المنزلية .

٦ـ تأليف لجنة تضع منهجا جديدا ، يعقبه كتاب جديد لدراسه النحو والبلاغة في الصفوف الرابعة والخامسة من الفروع الادبية ـ يطبق منذ بدء السنة المقبلة .

٧ـ النظر في امكان الغاء أو تقليل ساعات درس العلوم العامة من منهج الفرع الادبي والافادة من هذه الساعات في موضـوعات أدبية واجتماعية .

أما لماذا تجرأت فتقدمت بهذه الاقتراحات التي أرجو أن تلقى العناية التي تستحقها فلـ :

١ـ ضعف الطلبة الفظيع ...

٢ـ ضيقهم باللغة العربية وكرههم اياها .

٣ـ ضيق المدرسين أيضا .

٤- بعد الكتب المقررة عن الحياة وعن المستوى العقلي والنفسي المناسب .

٥ - فهي محشوة بالثقيل الذى لا يحتاجه الطلبة في حياتهم اذ يقرأون ويكتبون ويتكلمون - وهي تدرس النحو - - مثلا - وكأنه غاية بنفسه ، وكذلك قل في البلاغة ، انهما يدرسان الآن كما كانآ يدرسان للاعاجم وكما كان ينقطع اليهما قوم لاشغل لهم في الحياة سواهما ...

٦- اذكر أمثلة من موضوعات يعنى بها النحو الواضح كثيرا ، دون أن تكون ذات جدوى في حياة الطلبة ، دون ان تكون ذات قيمة تستحق بها هذه العناية :

من الجزء الاول :

توكيد الفعل - اعراب نعم وبئس - وفعلا التعجب - نائب الفاعل اذا كان ظرفا او جارا او مجرورا او مصدرا - مواضيع تقديم المبتدأ على الخبر - سد الفاعل أو نائبه مسد الخبر - اعراب زيادة الباء في خبر ليس- اعراب الجمل بعد تخفيف كأن ولكن - اعراب جملة لا سيما - ما يضاف الى الجملة وجوبا وجوازا ... الخ

ومن الجزء الثاني

العطف على الشرط والقسم - حذف الشرط أو الجواب - اعراب أدوات الشرط - جموع القلة وجموع الكثرة ... الخ .

ومن الجزء الثالث :

يكفي أن نذكر التصغير والنسب واعراب الجمل ... الخ .

١ - تكون هذه الموضوعات « الميته » اكثر من نصف النحو الواضح .

٢- أما الباقيات فلا بدال والاعلال والميزان الصرفي ... الخ وشروح شواذ تضيع على الطلبة مجال الفائدة العملية وتضيع عليهم الجوهر

والاساس .

٣- أما التمارين فطامة اخرى ويكفى أن تجد بينها مالا يطابق القاعدة التي ذكرت قبلها ، أو ما لم يدرسه الكتاب قط .

٤- ان كثيرا من موضوعات النحو المتوسط تعتمد على موضوعات النحو الابتدائي الذي لم يدرسه طالبنا . ولا أدري كيف يستطيع أن يفهم في النحو الواضح « سد الفاعل أو نائبه مسد الخبر » وهو لم يدرس في الكتاب الفاعل أو نائبه وكيف يدرس الموضوعات الاخرى دون أن يكون قد درس كان وأخواتها وان أخواتها ... وكيف يدرس اقتران جواب الشرط بالفاء وهو لم يدرس الشرط ... الخ ... الخ ...

٥ - اذا تذكرنا موضوعات النحو الواضح وتصورنا المستوى العملي للطالب المتوسط تصورنا الهوة السحيقة . أما اذا تذكرنا منهج النحو الواضح في مواده وشواذه واستقرائه وتمارينه فان هذه الهوة تزداد سعة وتصبح مخيفة . وهذا عجيب في بلد يبني تربيته على اسس نفسية وفلسفية حديثة .

٦- لقد أصبح الاسم العرفي للنحو الواضح « النحو الغامض » ، هكذا يعرفه الطلبة ، ولهم في ذلك كل الحق .

ما يقال عن النحو الواضح يمكن ان يقال عن كتب البلاغة وكتاب النحو الاعدادي ويكفي أن نرجع الى المفردات في المنهج المقرر لنرى أين نحن من القرن العشرين ولم نرجع الى المنهج ولكل منا في المدارس أبناء واخوة وزملاء يدرسون ويدرسون ، نستطيع أن نعرف رأيهم .

وبعد

لقد بلغ درس اللغة العربية واستحالة الاستفادة منه حدا مخيفا ،

ويكفي انه بات يكره للطلبة لغتهم ، وليس الذنب في ذلك ذنب اللغة أو المدرس أو الطالب ، انما المسؤول هو المنهج الجامد الذي حشي بما لا صلة له بالحياة والذوق . ولقد عرضت هذه المشكلة ولآثارها وأسبابها وشيء من علاجها في مقالين نشرتهما مجلة المعلم الجديد في الجزء الثاني والثالث من مجلدها العشرين . الاول بعنوان « جرائمنا في تدريس عربيتنا » والثاني « تاريخ الادب في مدارسنا » لان هذا هو الواقع الذي أحسسته كلما نظرت الى اللغة العربية في مدارسنا . كما أن مقدمة المنهج الذي أقر لمدارس الفنون البيتية والتي كتبتها بنفس الدافع تفيد في هذا الموضوع .

كم هممت أن ارفع خبر هذه الظاهرة الخطيرة الخطرة الى المسؤولين ، فيمنعني ما أعلم عن مصير مثل هذه التقارير ، وما هو ذائع من سوء الظن بالنوايا المخلصة وما هو معروف عن الذين لا يعملون ولا يريدون أن يعمل غيرهم . وقد ظل الشعور بالمسؤولية - واحيانا بالجريمة ، يلاحقني ، ولهذا جئت بهذه الكلمة راجياً العناية بلغتنا وتحبيبها الى نفوس أبنائنا والعمل على ربطها بحياتهم والسعي في خدمتها وخدمتهم ، لعلي بذلك قد ألقيت قسطا من المسؤولية التي أشعر بها ، وخففت جزءاً من الواجب الذي أثقل ضميري .

المعلم الجديد - تموز - ١٩٥٨

المحفوظات أم الانشـــاد !

المحفوظات ... كلما تذكرتها تصورت حجرة حشر فيها جمع من الاطفال الخائفين المتهيبين المفجوعين ... آه المحفوظات . الكلمة ، معناها . وكيف له بذلك ؟ المحفوظات ما معنى البيت الفلاني ، وانى له ! يدخل المعلم وبيده دفتر الدرجات ، والمسكين من ابتدأ اسمه بالالف والباء والتاء ... مسكين من كان اسمه أحمد ... أحمد . وارتجف أحمد وذعر ولابد له ان يتظاهر بالصبر ومن ضرورات درس المحفوظات الشجاعة الادبية . خرج أحمد وخف الى السبورة وأخذ « تمني » وبدأ كالببغاء يخب في كلامه كمن طردته اللصوص ، فلا يفقه ولا يعي ، ولايربط بين الكلمة واختها ولا يفصل حيث يجب الفصل ولا يتعجب حيث يجب التعجب . ولم كل هـذا والدرس محفوظات ، اذن ليركض ... وليشمر بيديه ذات اليمين وذات الشمال وذات الرجل وذات الرأس ... وذات الرئة ... من دون صلة بالكلام الذي يقوله ومن دون رابط بالحالة النفسية التي كان عليها المؤلف ... ولا ضرورة للتنبه للايقاع الموسيقي ، ولم والدرس درس محفوظات ؟ والمحفوظات تعني ـ دون شك ـ الاستظهار أي الحفظ عن ظهر قلب أو على ظهر الخاطر ـ كما كنا نسميه أيام كنا نتعلم القرآن ولم نكن آنذاك قد سمعنا بكلمة « الدرخ » مثلا ...

وما تكاد الببغاء تبدأ حتى يستوقفها صاحبها يسألها عن معنى الكلمة الفلانية وما تكاد تجيب حتى يأمرها بوصل ما انقطع وما تكاد تصل حتى

يسألها عن معنى البيت الفلاني ... وتاريخ ميلاد الشاعر ... وهكذا يعود أحمد وقد حاز « العشرة من عشرة » فهنيئاً له وقد اصبح قدوة ومثلا أعلى ... ولكن « باسم » طموح ويصبو الى التفوق واذن فليكن اكثر بيغاوية واكثر حركات ، ألم يطلب المعلم النشاط ، ألم يدع لى الحركة .

لا ... لا يا « سعد » ان الامر غير ما تتصور ، اننا اذ نخصص للشعر حصة في الاسبوع لا نريد أن نكرر مأساة استخدام الاثار الفنية لتسهيل العلوم وتطبيقها ، انما نقتدي بالامم الحية في العالم ، التي تعد الشعر من الفنون الجميلة التي تنمي الذوق وتربي الاذن وتغذي الروح وتذكي التصور وتثير الخيال ولهذا كان عندها اقرب الى درس الالقاء والتمثيل والغناء . وما اجدرنا بأن نسمي هذا الدرس الذي ظلمناه اذدعوناه بالمحفوظات الالقاء ، لنهيىء للدرس غايته الاولى ولننقذه من مقتضيات كلمة المحفوظات التي تعني في ابسط دلالاتها الاستظهار ...

أجل هو درس الالقاء ... أشهد ان اخواننا في البلدان العربية أقدر منا على قراءة الشعر وابرع في انشاده ، انك لتطرب اذا سمعت الطالب منهم يلقي واصغيت اليه وكأنه يلحن قطعة موسيقية .

أما معاني المفردات ... ومعاني الأبيات ... واعراب الجمل ... وحياة الشاعر فأمور ثالثية يجب ان نتجنب الاغراق فيها ولا نأخذ منها الا بالقدر الضئيل الذي تقتضيه طبيعة النص وما تستدعيه الضرورة . فاهم من ذلك تهيئة الجو الذي ينبه احساسات التلميذ ويحبب اليه المقطوعة وما تنطوي عليه من خيال وعاطفة ... وشعر ... ، ليس المهم في الفن . الفهم الرياضي انما الوحي والالهام ... وكما ان الوحي لازم للشاعر فهو لازم للقارىء .

كل هذا في درس الالقاء ـ ولا اقول المحفوظات .

ولطيف لو رسم المعلم القدوة المثلي للانشـاد ـ أجل ، كانت العرب تقول : أنشد ينشد فأين من ذلك حفظ يحفظ .

ثم انك قد تكتفي بالانشاد ... والأداء الحسن وتطوي القطعة الى أخرى والى اخرى ولك ان تهيىء للتلاميذ قصائــــد مغناة وتسمعهم مـا يحضرك من (الاسطوانات) والتسجيلات وما يجدر بأولى الامر تحضيره من تســـجيلات تقتنص بها الصوت العذب والاداء الحلو ... مما يزيد الأدب جمالا الى جمال .

المعلم الجديد ـ ك ١ ، ١٩٥٧

للمؤلف في موضوعات المناهج كلمات اخرى فى « المعلم الجديد » مثل مشكلة الانشاء ، وفي غيرهـا كما في مقدمات بعض كتب الأدب التي اقرت عام ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ ومن ذلك مقدمة الجزء الاول من كتاب « الادب والنصوص » .

العراق في المؤتمر الدولي للتربية والتعليم

(١)

في جنيف مكتب دائم للتربية الدولية . يعود تأسيسه الى عام ١٩٢٩ . وكان تابعا في أول أمره الى عصبة الامم . ولما تأسست هيئة الامم المتحدة الحق باليونسكو . ويؤلف مؤتمر هذا العام (الذي عقد في ٦ تموز) المؤتمر الثاني والعشرين . وقد اشتركت فيه (٧٥) دولة ، مثلها (٢٠٠) عضو . وكان قد طلب الى الدول المشتركة ان تعد — اذا شاءت — تقريرا عن سير التربية والتعليم فيها خلال العام ١٩٥٨ — ١٩٥٩ على أن يرسل قبل مدة مناسبة لانعقاد المؤتمر ، كما طلب اليها ان تقدم تقريراً آخر عن التعليم الابتدائي وان تعد نفسها لمناقشات التعليم المهني .

(٢)

وحين أختير اول وفد عراقي في العهد الجمهوري ، أراد هذا الوفد أن يطلع ويستعين بآثار الوفود السابقة ، فلم يجد شيئاً ذا بال : فلا تقارير محفوظة عن المؤتمر او له ، ولا معلومات ولا تعليمات ولا اقتراحات .

هذا ، الى أن اختيار الوفد الجديد جاء متأخراً جداً ، فلم تزد المدة التي كانت بين الاختيار وانعقاد المؤتمر على اسبوع كان عليه ان يعد خلاله تقريراً عن سير التربية والتعليم (يطبع بـ ٣٠٠ نسخة) وتقريراً عن مناهج التعليم الابتدائي وثالثاً عن التعليم المهني ، اضافة الى معاملة الجواز والسفر والعملة .

وإذن ، فمن الطبيعي ان لا تكون التقارير على الشكل الذى يريده الوفد لنفسه ، والذي تحمل من أجله المسؤولية .

(٣)

ولكنه استطاع — على أي حال — أن يبين في تقريره بوضوح أثر ثورة الرابع عشر من تموز في التربية والتعليم ، وما استدعته هذه الثوره من تغييرات واصلاحات ، وما رسمته من خطط للمستقبل .

فقد بين أن السياسة العليا التي كانت ترسم سير التربية والتعليم في العهد البائد ، كانت ترمي الى توجيه التعليم نحو خدمة الطبقة الحاكمة ، والجهة الاجنبية التي تستند اليها تلك الطبقة ، بأن تجعل المناهج ناقصة ، جافة ، مثقلة ، بعيدة عن الحياة العملية وعن كل ما من شأنه توسيع الفكر وتحريره ، وتنبيه الاذهان الى مساوىء الحكم ، وبأن تحارب التعليم المهني عامة والصناعي خاصة ، كجزء من خطة مدبرة لابقاء البلاد متخلفة في هذا الميدان ، وليظل التعليم نظريا كأنه عملية منفصلة عن الحياة والمجتمع ، وكأن الغاية الاولى منه تخريج عدد كبير من حفظة الكتب (الدراخين) وطلبة الوظائف .

ولجأ حكام العهد البائد في سبيل تحقيق ذلك الى أساليب مختلفة منحطة في الترهيب والترغيب ، دون أن يجديهم ذلك كثيراً ، فلقد شارع التذمر واشتد الوعي ، وبان التناقض ، مما عجل في نهايتهم .

ولهذا ، كان من مستلزمات الثورة تغيير سياسة التربية والتعليم طبقاً للمباديء والاهداف الديمقراطية التي قامت من أجلها ، وذلك بالعمل على :

١ ـ توفير فرص التعليم لكل ابناء الشعب على السواء ، دون تمييز عنصري او ديني او طبقي ،

٢ ـ ربط المدرسة بالمجتمع لتعد الافراد الى مواجهة الحياة والنجاح فيها ، والى المواطنة الصالحة والمستقبل الافضل .

٣ - تغيير المناهج جذرياً أ ـ بتنويعها ، ب ـ وتوجيهها نحو معالجة مشكلات البلاد ، ج ـ والتعريف بامكاناتها المتوفرة ، د ـ وازالة المفاهيم الخطأ التي ركزتها السياسة التعليمية السابقة ، هـ ـ والعناية بتوسيع آفاق التلاميذ وتنمية شخصيتهم ، وتوصيل التراث العالمي اليهم دون تمييز بين شرق وغرب لينطلقوا نحو الاسهام في بناء الحضارة العالمية .

وقد استعانت الوزارة في السير لتحيق هذه الاهداف بـ : (١) رفع الميزانية الى حوالي ٢٤٫٥ مليون دينار (٢) تغيرات في نظام الوزارة وجهازها الاداري (٣) فتح مدارس جديدة ، (٤) العناية بمكافحة الامية ، (٥) عقد اتفاقيات ثقافية مع دول لم يكن متيسرا عقد مثلها في العهد البائد ، (٦) اطلاق حق التنظيم وتشجيعه مادياً وادبياً ، والاستعانة به في تطوير التعليم وحل مشكلاته ، فتألف بذلك ـ ولأول مرة في تاريخ العراق : نقابة المعلمين واتحاد الطلبة ...

(٤)

بلغ الوفد العراقي جنيف في (٥) تموز ، وقصد مقر المؤتمر في قصر ولسون ، فلاحظ :

١ ـ ان كثيراً من الدول قد سبقته في اعداد تقاريرها وطبعها .

٢ ـ ان عليه أن يقرأ هذه التقارير ، ويلم بها ، لكي يكون على علم بالمناقشات التي ستجري حولها ، وليبدي رأيه العلمي فيها .

٣ ـ أن كثيراً من الدول قد أرسلت تقاريرها عن مناهج التعليم الابتدائي في وقت مناسب بحيث استطاع المكتب أن يجمع هذه التقارير

في كتاب خاص ترجم الى الفرنسية والانكليزية ، وطبيعي ان لا يرد ذكر للعراق فيه .

٤ ـ ان العراق قد فقد ـ بسبب تأخر تقريره ـ تسلسله الطبيعي من من منهج جدول الاعمال لليوم الاول ، وان عليه أن يراجع هذا وذاك لكي يضمن له مكانا في الايام التالية .

٥ ـ ان الدول التي تحسن الدعاية لنفسها قد هيأت عدداً مناسباً من الكتب والمجلات والخرائط والصور وسائل الأيضاح ... تقدم هدية لكل الاعضاء . وكان « المغرب » خير الاقطار العربية في هذا المضمار .

٦ ـ ان عدداً من الدول مثل امريكا وروسيا ومصر ... قد احتجزت غرفا خاصة من المعرض الدائم ، عرضت فيه الوانا من نشاطها الحضاري والتعليمي ... وان عدداً آخر مثل المغرب وتونس ... قد تهيأ لاعداد مثل هذه المعارض ، اما العراق فلم يفكر في شيء من هذا ، مع أن ادارة المكتب تطلب ذلك وتلح في الطلب ... وترجو وترحب .

(٥)

في السادس من تموز ، بدأ المؤتمر عمله ، وبعد خطب الافتتاح ، واعلان الرؤساء والسكرتيرين ... اعلن سكرتير المكتب بأنه قد خصص دوام ما بعد الظهر لمناقشة تقارير سير التربية العام في البلدان التي قدمت تقارير ، ودوام الصباح لمناقشة المناهج والتعليم المهني .

وتجري طريقة مناقشة سير التربية بأن توزع تقارير الدول قبل المناقشة بمدة مناسبة ، حتى اذا جاء دور دولة من الدول ، جلس أحد ممثليها وراء المنصة ليرد على الاسئلة التي يوجهها اليه الاعضاء الراغبون في الاسئلة .

وللعضو أن يتكلم احدى لغات أربع هي لغات المؤتمر : الفرنسية ؛

الانكليزية ، الاسبانية ، الروسية ، وينقل كلامه الى سامعيه باللغة التي يعرفها هؤلاء عن طريق الترجمة والسماعات الخاصة .

كما أعدت مدرجات خاصة للصحفيين والمستمعين ، وقد اكتظت هذه المدرجات في يوم الافتتاح ، الا اننا لم نلحظ أي اهتمام صحفي بالمؤتمر ولم نقرأ أي خبر في صحف سويسره .

ومما يلاحظ في الطابع العام للمناقشات انها كثيرا ما كانت تجري لمجرد المناقشة واثبات الوجود ، وانها لم تكن جدية كما يجب ، وقلما دلت على أن العضو المناقش قد قرأ التقرير وتبين المشكلات التي يهمه العلم بها . لهذا ، كان السؤال السائد ، سؤالا عاما (لا يخلو من سذاجة) ، خلاصته :

سيادة الرئيس ـ سيادة المندوب :

هل يتفضل مندوب الدولة « الفلانية » المحترم ، ان يقدم لنا تفصيلات أكثر عن القضية « الفلانية » ؟ اني لاشكركم جداً .

ذلك أن عين السائل وقعت اتفاقاً وفي قاعة المناقشات نفسها ، وساعتها نفسها ، على عنوان من فصول التقرير ، وطبيعي أن التقرير الموجز لا يستوفى كل شيء ، واذن فقد ضمن السائل جوابا لسؤاله ، اذ لابد من تفصيلات اخرى بقيت خارجة عن التقرير ، واذن ، فليسأل عن هذه التفصيلات ، وليجهل بعد ذلك مضمون الفصل وما احتوى عليه من امور أساسية ، بل ليغير مجرى انتباهه الى أية جهة يشاء لأن السؤال هو المهم ، ولا قيمة للجواب .

ومن الوفود ما ضمت اعضاء مهذارين لا يدرون ماذا يجب ان يقولوا ، وكيف يجب أن يقولوا ، ولا يهمهم ان تكون اسئلتهم طويلة جدا ولا تعني شيئاً لدى المسؤول ، ولا بأس في أن يشتدوا في النقاش

دون ان يتهم بعضهم البعض .

ولوحظ ايضا أن من الوفود ما لزم الصمت ولم ينبس يوماً ببنت شفة ، وان منها ما كان يكثر من الغياب ، ومن قلة الاهتمام في الحضور في الوقت المناسب وفي المساهمة والاصغاء والمتابعة .

ومنها الوسط الذي سلك السلوك اللائق فلم يتكلم الا بالمناسبة وبقدر .

(٦)

وكان وفدنا من هذه الوفود القليلة التي لم تتكلم الا عند الضرورة ولمعنى خاص ، وبقوة ومنطق ووضوح .

وقد لحظ وفدنا - منذ الاجتماع الاول - ان الصين الشعبية غير ممثلة ، وقد أسف لذلك ، حتى اذا أعلن وفد رومانيا اعتراضه ضم العراق صوته الى الكتلة الاشتراكية بعد أن جلاه بشكل علمي موضوعي معقول ، وكان مما قاله : اننا هنا - كمربين - يجب ان نكون فوق ضيق النظرة السياسية ، واننا الذين يجب ان يقودوا السياسة ولا يدعوا السياسة تقودهم ، ان لدى الصين الشعبية من التجارب ما يمكن ان نفيد منه ، وليس من المعقول اهمال دولة تضم ٦٣٠ مليونا وقد خطت خطوات سريعة وبمدة قصيرة نحو الرقي .

وكان لهذا الرأى الناضج وقعه ومعناه - حتى عند الدول التي جبنت عن أن تعلن ما تعتقد .

ثم ان من اعمال الوفد العراقي موقفه من اسرائيل ، فلما وصل ممثل وفد اسرائيل المنصة ، ثقل على العراقيين ولم يستطيعوا الاستماع اليه والى اسم اسرائيل ، فنهضوا وتركوا القاعة بهدوء له دلالته ، ثم تبعه وفد المغرب والوفود العربية الاخرى : السودان ، تونس ، ممثل العربية المتحدة ، ممثل الجامعة العربية ، الكويت .

ومما يذكر أن الوفد العراقي بذل كثيراً من الجهد في سبيل الاتصال باخوانه ممثلي الاقطار العربية الاخرى ، ولكن على غير جدوى ، فلقد بدا على كثير من الممثلين الاعراض والتجنب ٠٠ واشياء اخرى ٠٠ وحتى التقصير في أبسط قواعد المجاملة ، وربما كان الوفد المغربي اقرب الوفود العربية الى الوفد العراقي .

وكنا ننتظر أن يكون حلول الرابع عشر من تموز ، يوم الذكرى الاولى للثورة التي حققت للعراق سيادته وللعرب نصرا عظيماً . . كنا ننتظر أن يكون هذا اليوم مناسبة للتهاني والاماني ، ولكن ما قبل الظهر وما بعده مضياً دون ان يقع لنا من اخواننا شيء من هذا .

وكان من المصادفات أن تجري مناقشة التقرير العراقي صباح يوم الرابع عشر من تموز (وقد تولى الدكتور طه الحاج الياس - مدير المناهج والكتب في وزارة المعارف - الاجابة عن الاسئلة والايضاحات) . وكان من الاسئلة التي وجهت سؤال القاه مندوب رومانيا عن التعليم الجامعي في العراق واجراءات الجمهورية العراقية لتوسيعه وتحسينه ، فأجاب المندوب العراقي :

أن من حسن المصادفة أن يثار هذا السؤال في اليوم الذي يضع فيه زعيم البلاد الاوحد الحجر الاساسي لجامعة بغداد التي تضم (١٢) كلية ، وتتسع لـ ١٢٠٠٠ طالب وطالبة .

ووجه مندوب الاتحاد السوفيتي سؤالا عن الاجراءات التي اتخذتها الجمهورية العراقية في توفير التعليم للعدد المتزايد من الطلاب بعد الثورة . فشرح المندوب العراقي خطوات الوزارة المختلفة في توفير المدرسين والبنايات والكتب .

ثم سأل المندوب الافغاني عن التغييرات التي طرأت في المنهج بعد

الثورة . فأجابه المندوب العراقي بأن تغييرات كثيرة جدت في المناهج ، ولاسيما في دروس العلوم الاجتماعية ، اذ أن الجمهورية سعت الى أن تقدم الى طلبتها المعلومات الصحيحة الكاملة بروح علمي موضوعي لا يتجه لاية جهة .

وكان من المصادفات ايضاً ، ان تكون مناقشة تقرير الاتحاد السوفيتي في اليوم نفسه . وقد تولى وزير المعارف السوفيتي تقديم تقرير بلاده والاجابة عن الاسئلة التي توجه بشأنه . ولكنه ، قبل ان يبدأ شيئاً من ذلك ، استأذن رئيس الجلسة ان يقول كلمة . . فكان مما قاله الوزير السوفيتي : « ان في مثل هذا اليوم ، اي الرابع عشر من تموز ولدت في العالم جمهوريتان : الاولى قديمة وهي الفرنسية ، والثانية حديثة وهي الجمهورية العراقية . . » وقد حيى الجمهورية العراقية أجمل تحية وتمنى لها النجاح والازدهار . ثم طلب الى الحاضرين مشاركته في هذه التحية ، فصفق الحاضرون ووقف ممثلو الجمهوريتين يردون التحية .

وعادوا الى مناقشة التقرير ، وسأل الوفد العراقي عما يلاحظ من ازدياد عناية الاتحاد السوفيتي بالتعليم المهني ، وعما اذا كان من الممكن معرفة ما اذا كان ذلك لا يضر بالحياة الخلقية والعقلية ؟ فأجاب المندوب السوفيتي : ان سؤال المندوب العراقي يسرني كثيراً ، لانه يهيىء لي فرصة مناسبة لأن أنبه الى ما علق في بعض الاذهان من مفهوم خطأ لسياسة التربية والتعليم في الاتحاد السوفيتي ، ذلك اننا نعنى بكل جوانب الحضارة ، وبكل مقومات الشخصية الكاملة ، فلا نبالغ في جهة على حساب الاخرى ، فكما نعنى بالتعليم المهني ، نعنى بالنواحي الاخلاقية والفنية والادبية .

هذا ، ومن الاسئلة التي القاها الوفد العراقي ، السؤال الذي وجهه الى سيادة وزير معارف المغرب عن نقابة المعلمين ، فأجاب انها قائمة ، وانها تؤدي واجبها في رعاية شؤون المعلمين المادية وغير المادية .

ومنها سؤال وجهه الى مندوب اوكرانيا عما اذا كان التعليم المسائي والتعليم النهاري لديهم على مستوى واحد . فأجاب : مع ان ساعات الطالب المسائي اقل ، الا ان الامتحانات ادت الى نتائج متقاربة .

وبعد ايام ، لا تخلو من ملل ، ومن ضيق اقتصادي ، حل اليوم الاخير (٥٩/٧/١٥) ، فجرى التصويت على التوصيات التي اعـــدها المـؤتمر فنوقشت واقرت .

واعقب ذلك كلمات الختام ، فأكثر المتكلمون وبالغوا واطالوا في الثناء على اليونسكو والمكتب الدولي للتربية وعلى المؤتمر والقائمين بشؤونه . اما الوفد العراقي فقد أبان دور التربية والتعليم في خلق التفاهم الدولي ونشر السلام في العالم ، وان التربية لا يمكن ان تنفصل عن شؤون الحياة الاخرى ، وان على المربين أن يقوموا بواجباتهم في سبيل احلال التفاهم الدولي لأن في ذلك ضماناً لنجاحهم في مهمتهم ، واقترح على المؤتمر ان يتقدم بنداء الى وزراء خارجية الدول الكبرى - بمناسبة اجتماعهم في جنيف - يدعوهم الى العمل الجدي في ازالة التوتر الدولي وايقاف التجارب النووية وسباق التسلح ، خدمة للإنسانية والسلام وصيانة للتقدم البشري في العلوم والآداب والفنون ، هـذا التقدم الذي يجب ان يستثمر في خدمة البشرية والسير بها الى الامام .

وقد قوبل الاقتراح بالاستحسان . ومما يذكر أن أحد مندوبي بلجيكا دل على انه لم يفهم الاقتراح كما هو وعلى حقيقته . وذلك اذ علق انه خير من اقتراح مندوب ايران ، ان نقدم الى وزراء الخارجية الـكتاب الذي ضم توصيات مؤتمرنا منذ تأسيسه . فلم يجب الوفد العراقي لانه لم يرد ان يناقش رأياً صدر عن شخص لا يميز بين ايران والعراق حتى بعد الرابع عشر من تمـوز ، ولانه لا يريد أن يخرج بالآراء السليمة

الى المناقشات البيزنطية المغرضة .

وبعد ان انتهى المؤتمر بسلام ، يجدر بنا أن نستعد للمؤتمر المقبل (والمؤتمرات المناظرة) لكي نتجنب الخطأ ، ولكي نبين للعالم الوجه اللائق بجمهوريتنا . ويقتضي ذلك اموراً منها :

١ـ حفظ التقارير في مكتبة خاصة .

٢ـ ترجمة التوصيات التي صدرت عن المؤتمر .

٣ـ ترجمة وتلخيص تقارير الدول المشتركة بغية الوقوف على سير التربية والتعليم في العالم ، والاستفادة من الصالح في تحقيق اصلاحاتنا وسند ثورتنا في التعليم .

٤ـ الجد في مراسلة المكتب الدائم في جنيف .

٥ـ ان تواصل اللجنة الوطنية لليونسكو عملها .

٦ـ العناية مبكراً باعداد تقرير العام المقبل عن سير المعارف (١٩٥٩ـ ١٩٦٠) كأن تختار لجنة تهيىء مواده بحيث تجعله متصفاً بالشمول والدقة ومشفوعاً بالاحصائيات اللازمة ، ومن ثم تعمل على طبعه طبعاً جيداً وارساله الى جنيف قبل الموعد بمدة مناسبة .

٧ـ التهيؤ للموضوعين الآخرين والعمل على توفير موادهما حين وصولهما ، ومن ثم طبع تقارير خاصة بها .

٨ـ تهيئة مجموعة من المنشورات والكراريس والمجلات والافلام .. التي تعرف العالم بالعراق وبما قطع من أشواط .

٩ـ تأسيس معرض دائم في مقر المكتب بجنيف ، يعرض الوانا من التربية العراقية ونماذج من الكتب ... وصوراً وخرائط وخطوطاً بيانية .

١٠ـ اختيار اعضاء الوفد مبكراً مع مراعاة الشروط اللازمة بحيث

يحسنوا تمثيل العراق بما يقتضي من علم ووطنية وتحرر.

١١- أن يسافر هذا الوفد قبل الموعد بمدة مناسبة تمكنه من الاطلاع على تقارير الدول الاخرى مما يسهل عليه مناقشتها مناقشة علمية.

١٢- أن تكون مخصصات الوفد مما يتناسب ومستوى المعيشة في جنيف لئلا تسبب له الضيق الاقتصادي الذي يعكر عليه مهمته. ولعله من الانسب للوفد ان يتسلم سلفته في جنيف بوساطة القنصلية العراقية.

١٣- يقيم عدد من الدول المشتركة دعوات خاصة تدعو اليها اعضاء المؤتمر. ولهذه الدعوات مغزاها في الدعاية العلمية للبلد وفي تهيئة فرص التعارف والمناقشة على صعيد يختلف عن صعيد قاعة قصر ولسون.

لهذا. يحسن بالوفد الذي يمثل العراق ان يلبي هذه الدعوات، ويحسن به ان تكون له من المخصصات ما يقيم مثلها.

١٤- ان يقدم اعضاء الوفد التقارير اللازمة الى وزارة المعارف بعد عودتهم وان تنشر هذه التقارير في مجلة المعلم الجديد او ملحقة بها.

(٧)

لقد تشرف اعضاء الوفد العراقي ان ينوبوا عن جمهوريتهم الفتية، وان يبذلوا كل ما في وسعهم لخدمتها والظهور بالمظهر الذي يليق بها. ولا شك في ان ما اتصفت به اسئلتهم واجاباتهم ومواقفهم من تحرر وقوة ورصانة انما هو انعكاس لسياسة جمهوريتهم المتحررة.

المعلم الجديد ح ٨ - ١٩٥٩

دعوة عامة الى نقد المناهج والكتب

كان طبيعيا أن يعاد النظر في المناهج والكتب بعد الرابع عشر من تموز ، وقد اعيد فعلا ، ويمكن القول ان المناهج - في جملتها - اقرب الى مقتضيات الناشئة وحاجات البلد ، وان حسن النية وحسن التوجيه وحسن التجربة متوفرة في جملة الوسائل والغايات .

ومع هذا ، انك حين تعيد النظر فيها الآن تأخذ عليها اشياء ، وليس هذا لان امكان المؤاخذة أمر طبيعي ، وانما لطابع الارتجال الذي وجد طريقه الى بعضها ، ولقلة الاخلاص الذي أبداه عدد من اعضاء اللجان التي الفت لهذا الغرض ، وللملابسات واختلاطات وطوارىء اخرى .

وضعت مفردات المناهج ، والفت اللجان لتأليف الكتب ، وكان وجود عضو ضعيف أو أكثر من عضو في لجنة المناهج أقل خطرا من وجود مثل هذا العضو أو الاعضاء في لجان تأليف الكتب . وتقول : كيف تسرب الضعفاء الى اللجان ؟ لقد تسربوا بأكثر من سبب ، ولكن الذي أود النص عليه أن عددا غير قليل منهم تسربوا بحسن نية . فلقد سأل « المسؤولون » عمن يستطيع القيام بقسط من هذا العمل ، فبلغ اليهم اسم فلان وفلانة ، وكان الوقت يستدعي اصدار الامر بأسرع ما يمكن ، فصدر .

ويبدو أن الوزارة أرادت أن تفيد من أكبر عدد ممكن من المؤلفين وأن تكون من « الديمقراطية » بحيث لا يفوتها عنصر تعلم وجوده في

بغداد ـ ومن مأمنه يؤتى الحذر ، فلقد كانت اكثر ديموقراطية مما يلزم ، فحشدت لتأليف كتاب يمكن أن يستقل به اثنان ، اكثر من ثلاثة أو اربعة . وما كادت التجربة تقترب من التحقيق حتى رؤي انه من الصعب جمع هذا العدد والتوفيق بين رغباتهم وأوقات فراغهم ، ثم رئي أن هناك من العناصر الضعيفة ما لا يمكن أن تثق بعلمها وان تطمئن الى عملها وتفكيرها وتصرفها ... واذن فما على العنصر « الاقوى » الا أن يتولى العمل لنفسه ولغيره دون أن يحاول أن يجرح كبرياء زميله أو زملائه المحترمين .

ومن العجيب ان يكون بين هؤلاء « الضعفاء » من لم يكن ضعيفا في « النقد » والهجاء ، بل لم يكن ضعيفا في مادته ... وانما كان ضعيفا في أساليب التأليف ، ومن الانصاف لهؤلاء أن نقول انه ليس كل من علم الف . ومن الانصاف للآخرين ان نقول انه حتى العلم التأليف لا يكفي ما لم تتوفر الرغبة والارادة .

ويعزى ضعف عدد آخر الى قلة اخلاصه في العمل كمن تعود أن يعتمد اتعاب سواه وان يقطف جهد المجتهدين .

والمنتظر ، ان الذين يقصرون في عملهم اعتماداً على غيرهم هم الاكثر نفوذاً في « اللجنة » ، وقد وقع هذا فعلا حيث ظهرت بعض الكتب وعليها اسماء طنانة . ويعرف اعضاء اللجنة مدى اسهام هذه الاسماء في الجهد والتأليف . هذا هو المنتظر وقد وقع ، ولكن من الحقيقة ان نقرر أنه لم يتكرر بكثرة ، بل الذي حدث أكثر هو العكس ، هو غير المنتظر ، فلقد شاءت وزارة المعارف ، جريا على طريقة تربوية ، اشراك معلمي الابتدائية والثانوية في التأليف المدرسي ـ والقاعدة صحيحة ، وقد أجدت في بعض الاحيان ـ الا ان بين هؤلاء من لم يكن اهلا لأن يصبح مؤلفا ،

ولا ادرى كيف ارتضى هؤلاء لانفسهم هذه الصفة .

وواضح اني لا انقد الطريقة ، فهي على حظ كبير من الصحة ، وانما أقرر حقيقة قد يعود سببها الى حسن الظن في الاختيار . ولا أشك في أن هناك ـ كما اثبتت تجارب متأخرة ـ عناصر نافعة جدا نسيت أو جهلت لدى تأليف اللجان . وان حصر التاليف ببغداد ادى الى التفريط بكفايات مبعثرة في انحاء العراق .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ، اننا وجدنا بين معلمي الابتدائية والثانوية من كانوا اكثر جهلا بمستوى التلاميذ من اساتذة المعاهد العالية ، فلقد كان هؤلاء المعلمون يلجأون الى الطريق الاطول فى العرض والاصعب في المادة والاكثر اضطرابا في التأليف . وصحيح أن بعض هـذا يعزى الى جهل باصول التأليف ، ولكننا لا نحاسبهم على هذا ، وانما على العلم بتدريس مادة ما لصف سبق أن درسوه ودرسوه . اما « البعض » الآخر فيعزى الى شيء من الشعور بالنقص ، كأن يريد المعلم الفلاني أن يظهر علمه أمـــام الاستاذ الفلاني ، وهكذا ، فهو لا يفكر بالتلميذ وبصف التلميذ عندما يحتطب المادة .

هذا ولم نتحدث عن الكسل والركض الى اقرب كتاب مدرسي يستلون منه الصفحات تلو الصفحات وعلى الآخرين أن يصابحوا لهـم وللمؤلفين و « السفسطائيين » الذين سبقوهم واصبحوا أعلاماً بقدرة قدير .

لقد فضحت التجارب « ضميرنا » ، وقد بدا أن عدداً غير قليل كان من غير ضمير . والا كيف تفسر ـ مثلا ـ قعود الشخص الذي يريد أن يصبح مؤلفاً عن ابسط ما يناط به ، عن الحضور في المواعيد المتفق عليها لاجتماع لجنة التأليف مثلا ، لا يحضر ، ولا يعتذر عن الغيـاب ، وكأن « المشرف » المسكين لا وجود له . وكأنه المسؤول الاول ، وكأنه هو

المتفع الاول : نظرة سقيمة عانينا منها كثيراً . ثم يحضر - ان حضر - من دون أن يكلف نفسه احضار شيء . وتكون - لسوء حظه - انك أحضرت له شيئاً فتطلب اليه المعونة فيقبل العرض ثم لا يلبث ان يخون بتصميم أو ما يشبه التصميم .

وتنيط به عملا آخر ، لا يستدعيه جهداً ذهنياً كبيراً ، ولكنه لايكون في هذه المرة « أسعد » منه في المرة السابقة ٠٠ ترى لماذا ؟ لقد خرجت المسألة عن حدود العلم ، عن حدود العلم بالتأليف ، لقد دخلت في الضمير ٠٠ فاذا كان الاستاذ لا يريد أن يعمل ، فلم قبل الانخراط في سلك المؤلفين ؟ قد يكون اذكى من سواه ، والمسالة مسالة ضمير ، فلم لا يكون مؤلفاً ، ولم لا ينتفع من هنا ثم ينتفع من هناك . ولقد أفسدت « المحاضرات » ونظامها المعلمين والاساتذة ، فلقد استنفدت وقتهم وعلمهم وعملهم وضميرهم - اما من وسيلة اخرى يذلل بها المعلم مشكلاته المعاشية دون أن تستعبده وتجعل منه صيرفياً .

وظاهرة اخرى تميز بها آخرون من اعضاء اللجان ، وكان مأتاها ما اشرنا اليه من حرص وزارة المعارف على التزام « الديمقراطية » والانتفاع بكل عنصر ، والابتعاد عن الحزبية . هذه حقيقة يجب أن تسجل ، وامام الانسان خارطة صحيحة بالعدد العديد من اسماء اعضاء اللجان التي الفت في كل مادة وكل منهج ، انهم على أوسع ما يمكن أن تكون عليها نظرة - ولم تكن وزارة المعارف يوما ما على هذه السعة .

فماذا فعل هؤلاء ؟ كان فيهم الطيب « العنصر » فانسجم وعمل ، وكان فيهم آخرون قد يكونون طيبي العنصر ايضاً ، ولكنهم لم ينسجموا . ثم كان آخرون تلكأوا في الحضور ، وتلكأوا في العمل ، وكان آخرون لم يعملوا قط كأن شيئاً يخيفهم في الامر ٠ ثم كان آخرون حالت « مؤامرة

الشواف » دون اسهامهم .

و« لمؤامرة الشواف » أثر آخر في تأريخ المناهج ، أو قل في تأخير التأليف . ذلك ان المناهج قد وضعت - على أي حال - في ضوء « الوحدة الثقافية » فلما وقعت المؤامرة شغل الناس بها حينا ، ثم تردد اعضاء اللجان في السير جداً في عملهم فلقد تعطل العمل بالاتفاقية الثقافية ، وعلم أن مراحل الدراسة ستكون كما كانت : ابتدائية ومتوسطة واعدادية ، واذن فلن يكون صف ثالث ثانوي - مثلا . وشاع كل هذا ، ولم تبلغ اللجان بقرار مما سبب تماهلها وتخوفها من السير في عمل لا تعرف نتيجته . واذا علمنا ان كثيراً من الاعضاء لم يصدقوا حين نسب اليهم العمل وانهم كانوا متخوفين منذ البداية ، عرفنا كيف كان التخوف الجديد مؤيدا ومسانداً لتخوف قديم .

واستمر التماهل ، ومضى وقت طويل ، ولم تبلغ اللجان بشيء ، ولم تسأل اللجان عن شيء ولم يتصل بهم بشكل واضح [١] ، وكادت العطلة الصيفية تبدأ . وهنا شعر المسؤولون عن المناهج أن الوقت ضيق جداً ، وأرادوا أن يتلافوا النقص واسبابه مهما يكلف الامر ، ومعنى « مهما يكلف الامر » العجلة والانجازات السريعة ثم معناه أن يقع الجهد الاكثر في التأليف على عضو اللجنة الاكثر حرصا وان يتركز على الاعضاء الاكثر تجاوباً ، أما الآخرون ، فلا بأس في ان يبقى اسمهم مع المؤلفين ، وأن ينقش على الكتاب وأن يتقاضوا ما يتقاضاه العاملون ماليا ومعنويا . وهكذا كان ، فليكن .

---

(١) علمنا ان مديرية المناهج والكتب كانت تعقب الاعمال باتصالها برؤساء اللجان مرة كل خمسة عشر يوماً لمعرفة المرحلة التي قطعوها ، وكانت اجاباتهم ان اللجان مستمرة .

وقد أنجز عدد من الكتب ، وقدمها المشرفون الى « المسؤولين » ، ومع أن المعقول يقتضي الاسراع في اتخاذ ما يلزم لاقرار ما يستحق الاقرار من الكتب المقدمة ، فان هذا المعقول لم يكن نافذاً ، ومن الكتب ما امتد به اللبث شهوراً . وهذا ما يجب أن نسجله ونحن نؤرخ لمناهجنا وكتبنا الجديدة . أجل ، لقد وقع تهاون من اعضاء اللجان ، وقد سجلناه ، فلم لا نسجل « التأني » الزائد الذي اتصف به المسؤولون في النظر في الكتب والمناهج وفي الاتصال بالمقررين والمشرفين .

ويقدم الكتاب فتمر عليه احياناً مدة أطول مما يقتضيها الحال ، ثم ماذا ؟ تحال مسودة الكتاب - عادة - الى خبير يرى رأيه في صلاح الكتاب للاقرار ، ويبدي ملاحظاته التي يمكن ان تعيد اللجنة النظر بكتابها بموجبها . وقد أيدت التجارب ان الاحالة الى خبير مفيدة ، وانها تحفظ الكتاب من مزالق واخطاء كثيرة ، بل انها قد تؤدي الى الغاء الكتاب ، وهذا الالغاء يجنب التلاميذ الزلل ووزارة المالية المال .

ولكن هل فكرت وزارة المعارف في تعويض اولئك المؤلفين الذين يمضون وقتاً ، ويبذلون جهداً في تأليف كتاب وكلت اليهم تأليفه واختارتهم بكتاب رسمي ؟ قد يقتنع المؤلفون بوجهة نظر الخبير في الرفض ، ولكنهم بذلوا جهداً ووقتاً ، وانهم يقولون : ونحن ما ذنبنا ، لقد اختارتنا وزارة المعارف فقمنا بقدرما استطعنا . واذا عرفت وزارة المعارف حق هؤلاء المؤلفين، فلم تعرف لهم وزارة المالية هذا الحق .

هذا الخبير الذي يبدي مطالعاته على مسودة الكتاب قبل اقراره ، والذي تكون لمطالعاته - اذا كان في مستوى الخبير - فوائد جمة ، معنوية ومادية ... يبذل جهداً . وهو يستطيع أن يقوم بهذا العمل طواعية وعن

طيبة خاطر ، وقد قام عدد من الخبراء ، بمثل هذا . على هذا . ولكن كم يستطيع الخبير أن يكرر مثل هذه الخدمة ؟ يستطيع أن يكررها أكثر من مرة ، ولكن لماذا يكررها كل مرة . اذا كان عمله ينفع الوزارة ماليا ومعنويا ، فلم يؤدي هذا العمل دون مكافأة .

ان هذه المكافأة تشجعه على العمل وعلى الاخلاص في العمل وعلى اختصار جهده في ميادين اخرى ليوفرها لهذا العمل . ثم انها تجعله مسؤولا أمام الوزارة في مسألة الوقت - في الاقل .

لقد عرفت وزارة المعارف هذه الحقيقة ، ولكن وزارة المالية لم تؤيد صحتها - وكان لها ما أرادت .

ويقرأ الخبير الكتاب ويقدم قائمة من الملاحظات تحال الى «المقرر» والى المؤلفين ، وما هو يوم أو يومان حتى يعود الكتاب ، ويقول المؤلفون انهم أخذوا برأي الخبير ثم يحال الكتاب الى مجلس المعارف دون أن يدقق في مدى ما أخذ من آراء الخبير ، ودون أن يعاد الى الخبير نفسه ليرى صحة دعوى المؤلفين . وكأن الوزارة تقول في نفسها : وما هو حقنا على الخبير كي نشغله ثانية بالكتاب !

يحال الكتاب الى مجلس المعارف ، ومع ان الخطوة شكلية ، وشكلية جداً في بعض الاحيان ، ان من الكتب ما تستغرق مدة طويلة قبل أن تمر عليها يد المجلس ، وقد يجتمع مجلس وينفض دون أن ينظر في الكتب المرفوعة اليه ، لان لديه ما هو أهم من الكتب المدرسية - والعطلة تكاد تنفق .

ويقر المجلس الكتاب ، ويعاد الى مديرية المناهج ، على هذه المديرية أن تنتظر تجمع اكبر عدد من مسودات الكتب المقررة لكي تفاتح مطبعة

الحكومة بشأن طبعها ، ولا تتمكن المطبعة من النهوض بأعباء كل هذه الكتب أو بعضها ، واذن فلابد من اعلان عن مناقصة ، ويحضر اصحاب المطابع الاهلية ، وتجري المناقصة ويتم الاتفاق ، ولكن امكانات مطابعنا العراقية محدودة جداً ، ونحن امام سيل من الكتب .

وتعرض فكرة الطبع في قطر آخر ، وتكاد تقبل ثم تستبعد ، وتؤيد الايام صحة الاستبعاد ، ولكنها لا تؤيد صحة الاعتماد على المطابع العراقية كذلك . ان امكانات المطابع محدودة ، والقوم - على أي حال - تجار ، ويعجب المرء - ولا يعجب - كيف ان وزارة المعارف لم تكن لها المطبعة العظيمة التي يمكن أن تنوء بالعبء الاكبر من هذه المسؤولية الجسيمة المتكررة كل عام .

وتبدأ المطابع الاهلية عملها ، ولكنها لا تنجز الكتاب قبل شهرين أو ثلاثة أو اربعة . . والدراسة على الابواب ، فما العمل ؟ العمل بسيط ، أن يوزع الكتاب على هيأة ملازم على المدارس لتتسنى الاستفادة من الصفحات المنجزة من الكتاب في حينها ،

هذا هو الاصل في فكرة الملازم ، وكان المعقول - من أجل تحقيق ذلك - انه ما تكاد تنتهي المطبعة من ملزمة أو ملزمتين حتى تكون « اللوريات » ببابها ، تحمل ثم تتشعب في مختلف جهات البلاد ، وتقف بباب كل مدرسة لتسلمها حاجتها ومن ثم تعود لتحمل الملازم الجديدة ، وهكذا . . وليست هذه بالفكرة الخيالية او الطوبائية ، لان الكتب يجب أن توزع ، وبأي طريقة ، والنتيجة واحدة .

هذا هو الاصل في الفكرة ، فكيف آل بها الامر ؟ أن تنجز المطبعة ثلاث ملازم وتخبر مديرية المناهج ، فتكتب مديرية المناهج الى مديرية التجهيزات ، وتكتب مديرية التجهيزات الى مخزن المعارف المركزى ومخزن

الرصافة ومخزن الكرخ ، ويبحث هؤلاء عن المتعهد ، والمتعهد يبحث ...
وهكذا يكون أمر التربية والتعليم بيد المتعهد ، والمتعهد يشـــتغل بالذي يصرف له ، وهو ينظر المخصصات المرصودة ، وينتظر اكبر ربح شخصي في أقل ثمن ... واذا تذكرنا ما يمكن أن يأخذه من وقت كل خبر يصدر من دائرة لدائرة ومن موظف لموظف ... عرفنا كم تبقى هذه الملازم مطروحة في المطبعة ، تضايق صاحب المطبعة بما تشـــغل من مكان وما تعرقل من اعمال - وبعد لأي تنقل هذه الملازم الى المخازن ، وهناك تستجم غير قليل ، ثم يبدأ التوزيع كيفما اتفق . ولا أريد أن أشير الى خطوات تأخير اخرى لم اتوضحها جيداً ، ولم افهمها جيداً ، مثل مســـألة التسعير ، ومسألة أن يكون الكتاب مما سبق ان ادرج في قائمة الكتب المقررة لهذا العام أو نسي الكاتب المختص ادراجه . . ومســـألة نقل الملازم الى المدارس كيف يتم ، وكيف تخبر المدارس ، وكيف يراجع الكتاب ، ومسألة دوام موظفي المخزن وكيف وتضبط ... ومسألة معرفة عدد النسخ التي يحتاجها كل لواء

حدث أن سألت أحد المسؤولين عن التوزيع ، فقال ان الوزارة مهتمة كثيراً وقد اخبرني مدير التجهيزات انه قد تم كل شيء . ومعنى « تم كل شيء » = وزع كل شيء ، فحمدت الله وشكرته على نعمه وآلائه . وكتب لي أن أزور مخزن المعارف المركزي بعد هذا الخبر بأيام - في النصف الثاني من عطلة نصف السنة - فرأيت المخزن يغص بالكتب ، ولا تكاد تعرف أوله من آخره ، ومن العجيب أني رأيت ألوفا (قد تكون ستة) من المطالعة الثانوية مع أن هذا الكتاب مما انجز طبعه كاملا منذ الشهر الاول للسنة الدراسية ، ومع انه طبع على عدد طلبة الاعداديات . فعرفت

لم لم يصل الى كربلاء . وعرفت لم يشترك كل طالبين في الحلة بنسخة واحدة . وعرفت ... وعرفت ...

لقد قصدت المخزن المركزي لتسلم خمس عشرة نسخة من الجزء الاول من كتاب « الادب والنصوص » . فعجبت لانتشار ملازمه في شرق المخزن وغربه . واذا كان جمع ملازم خمس عشرة نسخة استغرق اكثر من ساعتين أسهم فيه اربعة اشخاص . فكم من الوقت يلزم لتوزيع (١٠٫٠٠٠) نسخة من هذا الكتاب على اربعة عشر لواء ؟ في الجواب نعلم سبب تأخر وصول هذا الكتاب وامثاله الى المدارس والمدرسين !

واذا كان هذا الكتاب مما أمكن طبعه . فلقد حالت حوائل دون اكمال كتب كثيرة . لقد نفد الورق وهذه الكتب ما تزال عند بدايتها أو منتصفها ، لقد نفد ورق مطبعة الحكومة وورق وزارة المعارف وحتى ورق السوق ... أما كان من الممكن أن نحسب لهذه النفاد غير المفاجيء الحساب ؟ أما يمكن أن نتخذ منه عبرة تقينا الوقوع في امثاله في مستقبل الايام .

ولئن صفح كثير من الناس بما فيهم المعلمون والتلاميذ واولياء التلاميذ عما وقع من تلكؤ أو تأخر فلأنهم يقدرون الظروف والطوارىء ، ولأنهم يريدون ان يتركوا أولي الشأن يعملون من دون تشويش ، لقد سكتوا احتراماً ولئلا يبدوا وكأنهم الى جانب الباطل ولئلا يضم صوتهم الى صوت اهل العهد البائد .

ان التجربة جديدة وضخمة ومحاطة بظروف غير اعتيادية ، فهي اذن بحاجة الى هدوء ، والى أن تأخذ طريقها من دون تعكير .

هذه النية وهي حسنة ومنطقية في السنة الاولى من التجربة (في مناهج

العام الدراسي الحاضر) ، لن تستمر ولن تكون منطقية في العام المقبل. سيقول الناس : لقد مضى دور التجربة ، وسيقولون لقد كانت الفرصة كافية ، وسيقولون اشياء اخرى - نرجو ان لا توجد مجالات لاثارتها ..

ومديرية المناهج شاعرة بهذا وعالمة بعبء المسؤولية الملقاة على عاتقها عام ١٩٦٠-١٩٦١ ، وهي تعمل جاهدة للاستفادة من اخطاء العام المنصرم، وتجد لان تخطو خطوة أكيدة الى الامام.

أقول تخطو ، واقصد خطوة ثانية ، لان الخطوة الاولى - على ما فيها وعلى ما يؤاخذ عليها - خطوة خطيرة ومهمة أنجزت عدداً ضخماً من الكتب ، وبين هذه الكتب ما يمكن أن تفخر به معارف العراق ، وما يمكن أن يضاهي بل يفوق امثاله من كتب الاقطار التي قطعت اشواطاً في التأليف والطبع والنشر . وليس هذا القول مما يرسل اعتباطاً فلقد رأينا تلك الكتب وعانينا قصرها ، وعرفنا أي ارتجال فيها واي اقليمية ، وعرفنا أهمية « التعريق » وضرورته .

ولكي تنجح مديرية المناهج في خطوتها الثانية الفت لجانا جديدة لوضع مناهج دائمة ، وقد عمل كثير من هذه اللجان باخلاص في مناقشة منهج العام الدراسي الحاضر فحذفت وأضافت ما تجدر اضافته . ولن تكون هذه المناهج دائمية بمعنى الكلمة ، لان الخلود في المناهج غير صحيح ، انما الصحيح هو النمو والتهذيب والتشذيب والتجديد ..حسب تطورات البلد وحسب الضرورات التي تجد في كل يوم وحسب الخبرات التي تتوالى .

الا ان الكتب الجديدة والمناهج الجديدة مشروع ضخم في عالم التربية والتدريس ، ولا يعقل أن تنوء به مديرية بعينها ، ولا يمكن ان ينوء

به اشخاص معينون نسميهم مرة المؤلفين ومرة الخبراء . لا ، ان العمل اضخم من ذلك ، انه البلد ، واذن فما اجدر أن يكون البلد كله مسؤولا عنه في خيره وفي شره ... اي نعم ، يسأل عنه المعلمون ، ويسأل عنه المفتشون ، ويسأل عنه التلاميذ واولياء التلاميذ . . ويمكن أن يلقي هؤلاء عن عاتقهم جانباً من المسؤولية بنقدهم المناهج والكتب نقداً نزيها مخلصاً بناء لا يبغى الا صالح الاجيال ولا يخضع لأي حقد او هوى او دس ، فان لديهم من التجارب والخبرات ما لا يتهيأ لغيرهم ، وان كل انسان يرى عند تطبيق مادة ما ودرس ما ونظرية ما ... من الاشياء ما يمكن أن ينتفع به سواه مما يصلح خطأ او يقوم عوجاً ويؤيد منهجاً .

لقد ارسل غير قليل من المؤلفين دعوة صريحة مخلصة الى نقد كتبهم والى بيان ما فيها من مساوىء والى النص على ما لم يفهمه التلاميذ والى الاخبار عما يمكن أن يعلو على المستوى كثيراً ، وعما لا يمكن ان يكون مجدياً ، وعما لم يعرض بأسلوب سهل مشوق . . لقد وضع هؤلاء المؤلفون في المعلمين ثقة هم أهلها ، ولكن الذي حدث انهم لم يتلقوا اجابات عن نداءآتهم ، وانهم لم يتلقوا النقد البناء . ولم يعلموا مدى قيمة تجربتهم في التأليف . ومعلوم ان المؤلفين ليسوا كل شيء في الكتاب ، وان الذي يسرهم كثيراً أن يروا الاستجابات وردود الفعل . وذلك انهم لا يؤلفون لمجرد التأليف . انما هم يؤلفون قصد الخدمة والافادة . بل انهم لا يؤلفون لانفسهم لينشروا آراء خاصة بهم وليذيعوا تجارب شخصية . وانما هم مكلفون ، وهم يسيرون بمقتضى منهج ومن أجل بلد . ولا يتحقق هذا ما لم يكتب المعلمون . وما لم يكتب المفتشون . . والتلاميذ . . واولياء التلاميذ . . وكل من يشعر انه مسؤول .

لقد صدرت الكتب . وصدرت المناهج ، ولكن . كم هم الذين

نقدوا . كم هم الذين ارسلوا بمقترحاتهم . وابلغوا ملاحظاتهم .. كم ؟
لم يرد نقد يستحق الذكر ، وسؤال يستحق التنويه . ويبدو أن
المعلم يفهم ان دوره دور الجندي المجهول في ساحة القتال : يؤمر فيطيع
وبين المعلم والجندي فروق كثيرة جدا . ان المعلم يجب ان يناقش يجب
أن ينبه الى الصواب . وان يفضح الخطأ . يجب أن يقول : ان هـذا
الكتاب ثقيل في الموضوع الفلاني ، وان هذا الموضوع ميت ، وهذه
الطريقة عليلة . . كان بين الكتب المقررة الجديدة ما لا يقل سوءاً عن
سابقه ، ومع هذا ، فقد علمه المعلمون وكأن امراً لم يقع ، وكان جديراً
بهم أن ينبهوا المسؤولين لئلا تتكرر الغلطة ويتحمل الجيل جريرتها .

صحيح أن من الساكتين من سكت للسبب الذي مر ذكره ، ولكن
الساكتين الآخرين - واخشى أن يكونوا كثيرين - سكتوا لانهم اعتادوا
أن يسكتوا ، ولانهم اعتادوا أن يصدعوا بما يؤمرون . فلقد كان العهد
البائد يطرب للسكوت بل يعمل جهده على اسكات الاصوات . وقد رأينا
انواعاً من المناهج تقرر وتدرس على عيوبها وعلى مرارتها . . دون أن
ينبس أحد ببنت شفة . واذا كان العهد البائد يدعو الى ذلك ويشتريه
بالدنانير ويوطده بالقوة فمن العيب أن يستمر مفعول العهد البائد فتبقى
تركاته نافذة المفعول حتى بعد انقضائه وحتى في ميدان الفكر والمعرفة .
اننا اذا أردنا أن ننهض - فلابد لنا من النقد - ومن تقبل النقد ومن
الاخذ بالنقد النزيه العلمي .

أعلم أن عدداً من المعلمين يعلق ويلاحظ على هـذا الكتاب أو ذاك
اذا ما خلا في مجلس واذا ضمه مقهى ، ولكن مـا قيمة هذه التعليقات
والملاحظات اذا لم تصل الى المسؤولين ليغيروا بموجبها ويعملوا بمقتضاها .
ولا يمكن ان يعد من هذه الملاحظات النافعة ، اللغط واللغو الفارغ

الذي لا يقصد من ورائه صاحبه الى فائدة ولم يعتمد فيه على منطق أو تجربة .

لئن كان المؤلفون والخبراء مسؤولين عن الطبعة الاولى للكتاب ، انهم لن يكونوا مسؤولين عن الطبعة الثانية والطبعات التي تلي هذه الطبعة ، ان المسؤولية ـ بعد الطبعة الاولى ـ تقع اولا وقبل كل انسان على المعلمين والمفتشين والتلاميذ واولياء التلاميذ . لان المؤلفين بذلوا وسعهم ، وقدموا كل ما يعلمون بالطريقة التي يعلمونها ـ وانتهى امرهم ـ فاذا مر كتابهم من غير نقد ومن دون ملاحظات وتنبيهات أيقنوا أنهم على صواب وأن سكوت من يعنيهم الامر من الرضى . وهكذا يتكرر الخطأ وتتحمل الاجيال تبعة هذا التهاون .

نرجو من معلمينا ومفتشينا ... أن يكونوا أكثر حرصاً واخلاصاً ، وأكثر اقداماً وجرأة ، ولم تعد المسألة مسألة جرأة واقدام ، لقد كان النقد في العهد المباد ضربا من البطولة ، اما الان ، فطريقه ممهد ، و« المعارف »ترحب به وتدعو اليه وترعاه وتأخذه بعين الاعتبار عند اعادة النظر في المنهج وفي طبع الكتاب ، بل انها لمستعدة لان تلغي الكتاب وتقر غيره اذا ما تأيد لديها صحة النقد ووجاهته . ولا أدل على ترحيب وزارة المعارف بالنقد من تعميمها على مديريات معارف الالوية تدعو المعلمين (والمعلمات) لان يوافوها بملاحظاتهم عندما وضعوا المناهج والكتب موضع التجربة والتطبيق . ولكن ، كم هم الذين أجابوا عن التعميم ؟ لم يجب أحد . وصحيح أن عدداً غير قليل من التعميمات لا تعمم في هذا اللواء أو ذاك ، ولكن ليس من المعقول أن يكون هذا التعميم قد « نام » في كل الالوية .

وبعـــد :

فيا ايها المعلمون والمعلمات . . ويا كل من شعر أنه مسؤول عن التربية والتعليم في هذا البلد . . دونكم الكتب والمناهج ، انقدوها نقداً بناء ـ ان أردتم مناهج أحسن وكتبا أفضل .

وهذه مجلة « المعلم الجديد » ـ وهي مجلتكم ـ أرسلوا اليها كل ما يمر بخاطركم وفكركم ؛ ويتصل بعلمكم وتجربتكم . لانها تريد أن تؤدي واجبها كما يجب ؛ وتريد أن تكون سجلا للتربية والتعليم في العراق .

المعلم الجديد ـ آذار ١٩٦٠

س — . . . ؟

ج — . . . .

تلقي السؤال فيتلقفه الطلبة فيجيبون قبل سماعه وتفهمه والتبصر في أمره . وتكفي كلمة صغيرة منه لتسويد صفحات طويلة يتخذها صاحبها ذريعة للتبجح والاطمئنان . والاساتذة يشبرون واذا قرأوا فهم لا يقرؤون ، والا ، كان الاولى بهم أن يتنبهوا الى هذا الخلط العجيب الذي حشر بين دفتي الدفتر على غير مجانسة وعلى غير ذوق . السؤال شيء والجواب شيء آخر ، ليكن السؤال صعبا ، وليكن جديداً ، وليكن ما يكون ، فليس في ذلك ما يضير الطالب أو ما يحمله على تغير موقفه . ولم ؟ ومهما صعب الاساتذة أسئلتهم ، ومهما جددوها فهم لا يطلبون الا شيئاً واحداً هو الجواب ، أي جواب ! ولابد لهذه الصفحات الطوال من أن تعني الاجتهاد والجد والسهر على الحفظ . وهل يراد من تلميذ أكثر من الحفظ ؟ وقد حفظ . فلينجح ، وحفظ كثيراً جداً . فليكن الاول . وله بعد ذلك تطبيل وتزمير . ولن يضره قول بعضهم : دراخ ، وليدرخوا ان استطاعوا . دراخ ! يا للسخف ! أيعاب كل من حفظ درسه حرفياً ! انه الحسد ولا شك . والا ، فأين ذكاؤهم ؟ ولم لم يهدهم سبل النجاح ! أليس الذكاء ـ في ابسط تعريفاته : المقدرة على النجاح ـ وقد نجحنا ولله ألف حمد . أأعاب لاني ذكرت كل ما أملاه علينا أستاذنا الفاضل دون تشويه ؟ وكيف يكون احترام الاساتذة الفاضلين ان لم يكن برواية بحوثهم وآرائهم بأمانة

أجل هي أمانة ، والاستاذ يقرأ - فيرى بحوثه وآراءه سليمة لم يمسسها سوء فيطمئن الى انه أدى رسالته في الحياة وضمن وجوده في الاجيال المقبلة ، وكلما مر بصفحة من انشائه يعيدها الطلبة الواحد تلو الآخر بحصها وفصها ونصها تنتفخ أوداجه - لله درى ، ودر هؤلاء النجباء . ما أكثر أمانتهم !! انهم نسخ مني !

ثم انها طريقة معقولة ، سهلة ، تبلغك مرادك من أقصر الطرق ، أو ليس الامتحان كشفا لما وعاه الطلبة واستوعبوه ؟ أجل ، وهذه الدفاتر خير شاهد على ما اقول . وما علي الا أن « أورقها » - ان أردت - حتى أفهم - وأنا اركض - ان طلبتي مجتهدون ، دون أن اضطر الى القراءة المتفحصة الدقيقة التي يضيع فيها كثير من الوقت هدراً . أجل هدراً ! والا فقد يأتي الطالب برأي جديد ، على أن أناقشه • وقد يروي خبراً عن كتاب لم أقرأه ، على أن أراجعه . وقد يناقش في أمر ويبدو متفوقاً فيزعجني . لا . ان طريقي لمستقيم .

ولان الغاية من الامتحان واضحة المعالم ، يلجأ الاستاذ الى طريق أقصر من ذلك وأنفع ، كأن يملي على الطلبة عدداً من الاسئلة عن المادة المدروسة ، ويخبرهم سلفا أن ستأتي خمسة من هذه التي كتبوها ، وسيختارون للاجابة ثلاثة من خمسة - وانت أعلم بعد ذلك في تصرف الطلبة ازاء هذه الاخبار السارة : يتركون كل ما لا علاقة له بالاسئلة المنزلة ، ثم يتركون قسماً آخر يتصل بالسؤالين الشهيدين ، ثم يعيدون ويصقلون فيما سيكون حتما موضوع الامتحان ، حتى اذا دق الجرس افرغوها على الورق على غير مجانسه وعلى غير ذوق ، وخرجوا يضحكون فقد هيأوا لانفسهم الدرجات العليا والمستقبل الزاهر - تهانينا . وليعش الدرخ ! ولتعش البلادة ! وليولد الغرور الزائف !

هكذا يصبح الامتحان الغاية الاولى والاخيرة ، ويمضي الناس أعمارهم في المدارس من أجل الامتحان ، ولا يتقيدون الا بقيود باطلة .

هذا هو السائد الغالب في اوضاعنا - وهو مؤسف كما رأيت . ولو وقفت المسألة عند الأسى والاسف للبسنا السواد والحداد وانتهى الامر وقعد كل شيء في مكانه ، ولكنها أخطر من ذلك واخطر مما نتصور . وقد رأيت اننا جعلنا الامتحان غاية قصوى وفي ذلك أذى للمعرفة واذى للمقاييس ، وقد بات الناس يحكمون على « عظمة » فلان بمقدار ما يربح من درجات ، وهم غير ملومين . لان هذا هو شأن الحياة في السوق ، أليست مهمة السوقي أن يربح اكبر عدد ممكن من الدراهم - ولا تهم بعد ذلك الوسيلة . اي والله . ان اساليبنا في الامتحان لا تختلف كثيراً عن اساليبنا في العيش: هي منها وعنها واليها ، في وقت كان المفروض فيه أن تقود المدرسة المجتمع اليها .

ولو وقف خطر الطريقة القائمة عند الدرخ وحده ، لهان الامر ايضاً ... لان المرء انما يدرخ - عادة - مادة مبوبة منظمة ، وهو يسكبها اذا ما سئل عنها . ولكن الاخطر ، انك تسكب هذه المادة - التي لاتملك سواها ولا تدري كيف تتصرف بها - في غير مناسبة ، فبينما يعنى السؤال أمراً ، اذ بك تجيب عنه بأمر آخر ، هو كل ما تملك وكل ما تستطيع ثم تنجح ويتصور الآخرون ان هذه هي الطريقة الصحيحة الطبيعية المعقولة في معالجة الامور . وهل هناك ما هو اولى من الدرجات ؟ وقد تهيأت على أحسن ما يرام . وهكذا تعمل الطريقة السخيفة - كما هو طبيعي - على اشاعة السخف واذاعة اللامنطقية في التفكير ، وليست هناك مقدمات وليست هناك نتائج . انما هي حنفية تفتح في كل وقت لينساب عنها ماء واحد لا يتغير : بارد في الشتاء كما هو بارد في الصيف . وهكذا تسهم

المدرسة ثانية في تدعيم المفاهيم الغلط ومساندة المجتمع المتأخر ، ويخرج الطالب الى الحياة الرخيصة وقد جهز بسلاح اللامنطقية في التفكير . وهل تحتاج السوق الى المنطق المتزن ؟ لا ، طبعاً ، لا : هي بضاعة واحدة يبيعها مرة بدينار ومرة بعشرة دنانير ، وطورا على انها حرير وطورا على انها صوف ، وتارة هي من صنع الوطن الغالي وتارة هي شغل الجرمن .أوليست التربيه حياة ! ؟

وانما كان الدراخون دراخين لسببين : الاول في الاستاذ وقد رأينا جمود عقله وجمود مفاهيمه ، والثاني في التلاميذ ، أو في عدد غير قليل من التلاميذ . ذلك أن الدراخ الاصيل هو المرء الذي لا اصالة له ، واذن فهو لا يفقد شيئاً عندما يعيد الى استاذه بضاعته كما هي دون أن يتصرف بها تصرفاً يفتح لذاته منفذاً اليها ويهيء طابعاً عليها . ولا تكاد تتعدى جناية المدرسة في هذه الحالة تهيئة فرص ينجح بها ضعاف الشخصية ويتفوقون . أما الخسارة الكبرى فهي في ميدان آخر ، ان تلزم المدرسة بالدرخ واللامنطق ، اولئك الذين ينتظر منهم - لو وجهوا - أن يكونوا ذوي شيء من اصالة ، وذوي شيء من ابداع . والخسارة أكبر ، في فرضها قيود الدرخ واللامنطقية على الاذكياء والمفكرين والاشخاص - القلائل - ممن وهبوا حظاً كبيراً من الشخصية ، وحظاً كبيراً من الموهبة . انها تحتم عليهم أن يدرخوا ، وأن يضيعوا شخصياتهم ثم أن ينافقوا و ... و ... والذي يستجيب منهم قليل ، وترى هذا القليل ساخراً من نفسه واجابته ، ساخراً من درسه واستاذه ، ساخراً من مديره ومدرسته ولكن ما العمل ولابد لي من أن أنجح ، وانا لله وانا اليه راجعون . أما الذين لا يستجيبون ممن يتمردون على القيود والسدود فيزهدون بالمدرسة وتكثر غياباتهم ، ويزهدون بالمعرفة ويشتد تذمرهم ، وقد تمر السنة دون ان

يحضروا الا قليلا ، ويدخلون الامتحان معتمدين شخصياتهم التي أعدوها الملمات ، وتأتي الاسئلة فاذا هي عناوين لفصول أملاها الاستاذ الفاضل من قبل ، والويل كل الويل للطالب الذكي ، ليس السؤال صعباً عليهم ، فقد سبق أن قرأوا عنه هنا وهناك ، وناقشوا فيه هذا وذاك ولكن ما جدوى ذلك واستاذهم يبحث عن شيء واحد ذي وجه واحد . يؤكد له وجوده ويضمن له بقاءه بعد موته .

هذا هو الوضع السائد الغالب على دراساتنا الادبية والاجتماعية في مختلف مراحل الدراسة . وقد أصبح الجادة المألوفة والخطة المعروفة ، وقد توطدت أركانه وقامت صروحه . وبات من الصعب تغييره ، وان الذي يعمل على التغيير يكاد يلاقي ما يلاقيه المصلحون من عنت وأذى ويبدو وكأنه يحارب حقاً ، ويظهر كمن أتى ببدعة .

أمن البدع أن تصوغ أسئلتك بشكل يختلف قليلا - أو كثيراً - عن العنوانات القائمة في الكتب المقررة ! انك تتعب في صوغها وتجتهد في اختيارها بحيث تطلع على الطالب لتمتحن فيه شخصيته ومقدرته على التفكير المنظم ثم المادة العلمية التي هي الاساس وتحصيل الحاصل . وتحاول في أسئلتك أن تكون واسعاً وألا تكون انت وهي على وتيرة واحدة مما يمكن أن يستحقه الطلبة وما يستطيع أن ينجح فيه ضعاف الشخصية أو المنطق .

أمن البدع أن تسمح لطلبتك أن يتصرفوا في الاجابة قليلا - أو كثيرا ، على قدر ما يقتضيه السؤال الجديد ، وعلى قدر ما تحتمله شخصياتهم في الاعراب عن نفسها حسب خطة متماسكة ، وعلى قدر ما تتمكن عقولهم من الابانة عن أفكارهم من دون تهور .

نعم ، على الطالب أن يصغي لاستاذه وعليه أن يتفهم آراءه ، ولكن من حقه أن يضيف ومن حقه أن يناقش ، ولا تعني التلمذة العبودية

ابدا ، ورب طالب قرأ مصدراً لم يتهيأ لاستاذه ، ورب طالب لمح أمراً خفي على استاذه . اذن ، من الواجب أن يضيف ويناقش كي تكون النظرة أوسع والحقيقة أقرب ، وكل ما يطلب من التلميذ في هذه الحال الادب والابتعاد عن الغرور وأن يتذكر أنه ، على كل حال ، في أول المرحلة وان لاستاذه من السبق الزمني - في الاقل - ما يجعله قريباً من الموضوع وجديراً بالاحترام .

اذن ، يصوغ الاستاذ السؤال صياغة بارعة ، تثير في تلميذه التفكير الشخصي وتحفزه على استثمار مكوناته . وعلى الطالب أن يخرج من قوقعته فيمسك بالقلم ، ويرسم الخطة الاولى للاجابة ثم يسير في العرض والمناقشة والتعليق حسب مقتضيات السؤال . وتجمع الدفاتر . ويبدأ دور الاستاذ ، وعليه أن يقرأ ويدقق ويبحث عن الاصالة أولا ، أما المادة الاصلية فهي من باب تحصيل الحاصل وهي أضعف الايمان . واذا كان تلاميذ الصف ثلاثين ، فانه سيجد - أو يجب أن يجد - ثلاثين اجابة ، لكل منها طابعها الذي يعكس طابع صاحبها وشخصيته في القول والعمل والحياة ، وبهذه الفروق الثلاثين تكمن المتعة في التصليح ، لان الاستاذ سيكون ازاء مناظر تتجدد من دون أن تسبب الملل الذي تسببه المناظر الراكدة والمياه الآسنة . واذا كان له أن يفخر فبمقدار ما يبعث في طلابه من روح المناقشة ، وبمقدار ما يثير في نفوسهم من عوامل الاستفادة من المطالعات الخاصة والتتبعات الفردية والتجارب اليومية . وهو اذ يصحح ، قد يسمع من الآراء ما لا يحتمل أن يتفق وآراءه ، فعليه والحالة هذه ، ان يتمالك أعصابه ، لان الامر طبيعي ، وليس التلميذ استاذا ، وهو الذي فتح الباب لغاية أبعد ، اذن ، لا يشتط في المحاسبة على طبيعة الرأى قدر ما يحاسبه على الخطوات المنطقية التي سار عليها في توضيح الرأى ودعمه .

ومن الطبيعي جداً ألا تكون الاجابة قائمة على مادة الاستاذ وحده ،واذن فليرحب بهذا ولا يطلب أكثر من الاشارة الى المصدر ومن ســـلامة هذا المصدر وسلامة ذكره .

ولابد من شيء آخر في هذا الضرب من الاجابة ، لابد من جمـال العرض وسلامة اللغة واشراق العبارة ، لابد من أن تسرك بالشكل كما تسرك بالمضمون ، ولان الطالب قد تصرف في الاجابة فليس من حقك أن تبحث عن نفسك فيها لانها أصبحت شيئاً آخر ، هو التلميذ نفسه ، هذا مما يجب أن يسرك ويرضيك ، لان الاستاذ الناجح هو الذي يعين طلبته على أن يجدوا أنفسهم .

ثم اعلم ـ حفظك الله ـ انك انما تعد طلبتك لدنيا هي أوسع من دنيا الامتحانات والدرجات ، انك تعدهم للحياة العامة ـ وهي واسعة كما تدري ـ وليس من المعقول أن تكون المشكلات التي سـيجابهها « ابنك » فيها هي المشكلات التي لاقاها في الصف . وليس من المعقول أن تكون الصفحات التي أمليتها عليه مفتاحا لكل أقفال الحياة : يجيب بها عن كل سؤال ، ويحل بها كل معضلة . لا . انك ، ان أردت أن تعده للحياة فزوده بالطريقة أكثر مما تزوده بالمادة المحدودة . أعده لان يكون شيئاً قائما على ما لنفسه من مؤهلات وقابليات وأولاع ، وسيتصل وجودك في هذه الحالة بما شجعت من قابليات ، واخالك تقرني على أن ثناء الاذكياء أفضل من ثناء ضعاف الشخصية .

ويرسب ، بنتيجة الحسـاب ، أحد اثنين لا خير فيهمـا : ضعيف لا يملك من القوة ما ينهض به ، وليس له من النور ما يعينه على السير في الظلام ؛ وذكي يستغبي الأخرين ، يحسب الدنيا حيلة وسفسطة ذهنية فيعمل ـ

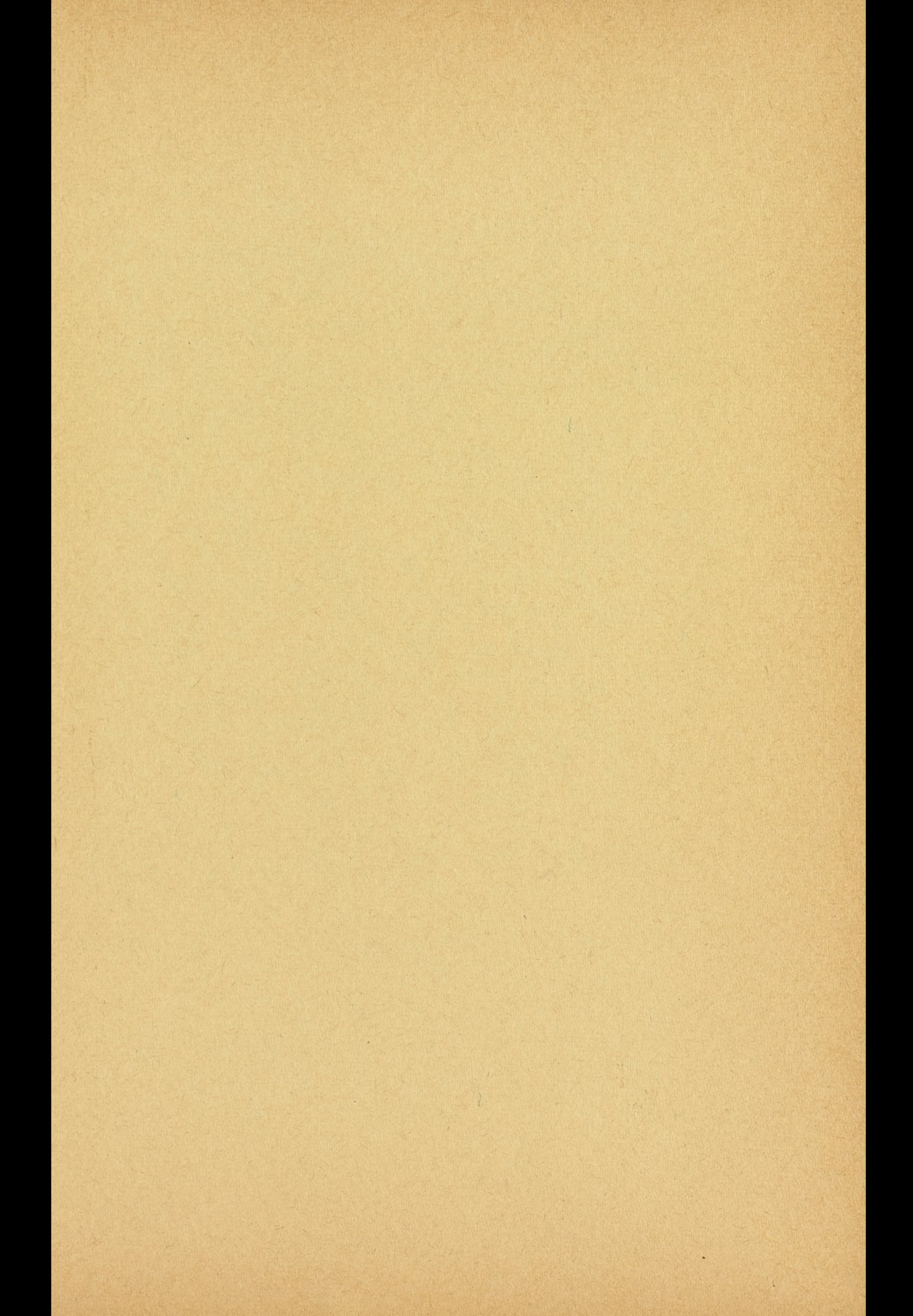
كشيطان بليد ليوهمك أنه ألمعي مجد دون أن يكون له نصيب من ذلك ، فاياك واياه ـ وقد أعذر من أنذر . ولطيف أن يرسب هذان ، لانهما لا ينفعان العلم ولا ينتفعان به ، ولا يضرهما الرسوب كثيراً لانه يعرفهما حقيقتهما أولا ويبعثهما على التفكير فيما يصلحان له ويصلح لهما ثانيا .

هذا ان كنا جادين !

المعلم الجديد ـ ايلول ١٩٥٧

يبدو ان سلطان الدوخ قائم في غير العراق ايضا . وهو في سوريا « بصم . وفي مصر « صم » والطلبة فيها تصم الكتاب « من الجلدة للجلدة » .

الفهرســت



للمـــؤلف

المطبوع

* الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي ج١ ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٥٨ .
* الشعر العربي في العراق » » ج٢ ، بغداد ، مطبعة العاني ٩٦١
* الابن وسبع قصص اخرى (مختارة ومترجمة عن الفرنسية) ،بغداد ، مطبعة اتحاد الأدباء العراقيين ، ١٩٦١
* لامية الطغرائي . بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٦٢

تحت الطبع

الطغرائي - حياته ، شعره ، لاميته ، بغداد ، منشورات مكتبة النهضة ، دار التضامن للطباعة والنشر

معد للطبع

* نقد وملاحظات - وهو نقد على اهم المجاميع القصصية التي صدرت في العراق بعد تموز ١٩٥٨ ، وموضوعات اخرى في نقد الشعر ، والصحافة ، و « تاريخ الأدب في العراق » ...
* محمود احمد السيد - الكاتب التجددي ورائد القصة الحديثة في العراق

مخطوط

* تحقيق « درة التاج من شعر ابن الحجاج » للأسطرلابي
* ابن الحجاج - حياته ، شعره ،
* مقالات أولى — ١٩٤٥ —
* مقالات اجتماعية وما اشبه ، بعد تموز ١٩٥٨
* كلمات . . وتعليقات

قيد التحقيق

ديوان الطغرائي





Ali Jewad AL-TAHIR

ESSAIS

Reflexions sur des questions de Critique Litteraire - Poesie moderne et Contemporaine-Comptes rendus-Poetes Seldjoukides Universite de Paris - Education et Enseignement.

٣٠٠ فلس

Imprimerie Union des Ecrivains Irakiens
Baghdad 1962

